العدد 180
السنة التاسعة عشرة
صيف 2022

مجلة فكرية ثقافية فصلية، تصدر عن شبكة إعلام الاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A cultural intellectual magazine issued quarterly By Kurdistan Islamic Union

صاحب الامتياز
صلاح الدين بابكر

رئيس التحرير
سالم الحاج
salimalhaj83@yahoo.com
07504499179

هيئة التحرير
د. سعد الزيباري
saadsuhaib@yahoo.com

سرهد أحمد علي
sarhad_ahmad72@yahoo.com

الإخراج الفني
قوباد ياسين طه
tqubadyasen@yahoo.com

مدير الإدارة
مغديد صباح
maghdeedsabah@gmail.com

الموقع الألكتروني
http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الألكتروني
alhiwar2003@yahoo.com

alhiwarmagazine2002

alhiwarmagazine

العنوان
إقليم كوردستان العراق/ أربيل - محلة طيراوة/ مقابل نقليات الشمال/ قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

المحتويات

أبحاث ودراسات		٤
- نظريات المواجهة: كيفية التعامل مع الحاكم الجائر	صالح شيخو الهسنياني	٥-٢٥
- الصراع المسيحي - الإسلامي في الهند	د. فرست مرعي	٢٦-٥٠
- رأي العلامة سبحاني حول الشورى ومكانتها	د. عمر عبد العزيز	٥١-٦١
- الحج أسـرار ومعان	هفال عارف برواري	٦٢-١٠٨
- في أخلاق النبي ﷺ مع زوجاته	د. عبداللطيف ياسين	١٠٩-١٢٣
مقالات		١٢٤
- دروس حركية من سورة الكهف لمسيرة العمل الإسلامي	محمد صادق أمين	١٢٥-١٣٢
- التصوف السياسي (الحلولي) والطريق نحو الإلحاد	د. سعد الديوه‌جي	١٣٣-١٣٧
- تأملات قرآنية	د. سيروان أحمد قادر	١٣٨-١٤٠
- رحلة إلى القمر	انتصار الجنابي	١٤١
مرافىء/ كوكبنا وكوكبهم	د.يحيى عمر ريشاوي	١٤٢
رحلات		١٤٣
- مشاهدات الرحالة ابن جبير في دار السلام عاصمة العباسيين	بشار ناڤگوندي	١٤٤-١٥٠
اقتصاد		١٥١
- هل يجري الرِبا في الأوراق النقديّة؟	شوان زنكنة	١٥٢-١٥٦

تراجم عراقية		١٥٧
- الملا مصطفى حسن الريكاني سيرة ومسيرة	د. دحام الهسنياني	١٥٨-١٧٠
بصراحة/ التعليم أولاً	صلاح سعيد أمين	١٧١
ثقافة		١٧٢
- أثر العولمة في الأدب وتأثرها بالانفتاح بين الثقافات	د. حازم ناظم فاضل	١٧٣-١٨٧
آخر الكلام/ منظمات وهيئات لا جدوى منها	محمد واني	١٨٨

أبحاث ودراسات

- كيفية التعامل مع الحاكم الجائر - المتغلب	صالح شيخو الهسنياني
- الصراع المسيحي - الإسلامي في الهند	د. فرست مرعي
- رأي العلامة سبحاني حول الشورى ومكانتها في النظام السياسي الإسلامي	د. عمر عبد العزيز
- الحج أسـرار ومعان	هفال عارف برواري
- في أخلاق النبي ﷺ مع زوجاته	د. عبداللطيف ياسين

نظريات المواجهة

(كيفية التعامل مع الحاكم الجائر - المتغلب)

من كنوز قلائد الجمان شرح اللؤلؤ والمرجان بما اتفق عليه الشيخان

- الحلقة الأولى -

فكرة وإعداد وشرح
صالح شيخو الهسنياني

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

كثرت الآراء والأقوال ووجهات النظر في كيفية التعامل مع الحاكم الجائر، في القديم والحديث، ما بين جواز الخروج عليه خروجاً مسلحاً؛ أو العصيان عليه بعدم التعامل معه أو مع منظومته، وما بين السكوت والإقرار بحكمه درءاً للفتنة، وما بين منعزل لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

في هذه النظريات (**١٨ نظرية**)، التي استنتجناها حول كيفية التعامل مع الحاكم الجائر أو الفاسق، استنبطنا أسماءها ونصها وأفكارها من أحاديث الرسول ﷺ، ومن مواقف الصحابة والتابعين حول الأحداث التي واكبت بيعة وتولي (يزيد بن معاوية) الخلافة،

وكذلك الأحداث التي جرت في خلافة (عبد الملك بن مروان)، عند أخذ البيعة لولدين من أولاده (الوليد وسليمان)، وأيضاً قصته مع عبد الله بن الزبير، ومن أقوال العلماء والفقهاء الذين عاشوا المرحلة، أو الذين كتبوا عنها فيما بعد إلى العصر الحديث.

طرق انعقاد الرئاسة العامة:

الطريق الأول:

مبايعة أهل الحل والعقد[1]؛ من العلماء والوجهاء والرؤساء، للإمام. فإذا بايعه وجهاء الناس؛ ممن تحصل بهم الشوكة والمنعة، ويكون الناس تبعاً لرأيهم ومبايعتهم، انعقدت الولاية، وتمت البيعة. وبهذه الطريقة بويع كلٌّ من أبي بكر وعلي – رضي الله عنهما. وهذه الطريقة تشمل أن يعقدها أهل الحل والعقد، ثم يتابعهم الناس، كما في بيعة أبي بكر ﷺ، أم يشارك عامة الناس، وفيهم أهل الحل والعقد في بيعة الإمام، كما في بيعة علي ﷺ.

الطريق الثاني:

أن يعهد الإمام في حياته لمن يخلفه في الإمامة بعده، فيختار الإمام للمسلمين أصلح الناس وأفضلهم، ليكون هو الخليفة من بعده، ويبايعه الناس على ذلك، وهي الطريقة التي تولى بها عمر بن الخطاب ﷺ.

الطريق الثالث:

أن يعهد الإمام بالخلافة إلى مجموعة معينة من الناس من أهل الحل والعقد ليحددوا الخليفة من بينهم، ثم يبايعونه ويبايعه الناس بعد ذلك، وهي الطريقة التي تولى بها عثمان ﷺ.

الطريق الرابع:

أن يتنازل إمام لإمام آخر، تجنباً للفتنة وإراقة الدماء، وهي الطريقة التي تمت فيها مبايعة معاوية ﷺ، حيث إنها لم تكن كالطرق الثلاثة المذكورة، وقد وقعت بالصلح بين المسلمين؛ بتنازل الخليفة الحسن بن علي إلى معاوية بالخلافة، واتفاق المسلمين على ذلك.

الطريق الخامس:

بيعة الحسن بن علي ﷺ؛ حيث تمت بطريقة مغايرة للطرائق السابقة؛ حيث تمت بمبايعة أمراء الأجناد له[2].

---

[1] - رؤوس الناس؛ من العلماء والفقهاء والأمراء والوجهاء المتبوعين.

[2] - فهد بن صالح العجلان، الانتخابات وأحكامها في الفقه الإسلامي: (٣٢٧-٣٢٨، ٣٣٠)، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع – الرياض، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م. لمزيد الاطلاع يراجع: الفصل الثالث – المبحث الثالث: بيعة الخلفاء

الطريق السادس:

عن طريق الانتخابات الرئاسية المعاصرة، وهو من الطرق المباحة للوصول إلى الحكم، ولكن بشروط؛ منها اختيار الأصلح والأكمل، والقوي الأمين[٣].

حالات أربع:

الأئمة الذين يتولون الحكم في شعوبهم، حالهم لا يخرج عن واحد من أربعة:

١. إمام عادل مقسط.

٢. إمام كافر، أو مرتد.

٣. إمام فاسق.

٤. إمام متغلب جائر.

فالأول يحرم الخروج عليه مطلقاً، وذلك باتفاق جميع العلماء، وذلك امتثالاً للنص الشرعي في ذلك، قرآن وسنة وإجماع المسلمين، وطاعتهم واجبة ملزمة للجميع، أياً كانت طريق وصوله للسلطة.

والإمام الثاني، اتفق جميع العلماء على وجوب الخروج عليه ومقاتلته، إذا ملكوا القوة والقدرة على ذلك، وتخليص المسلمين من تسلطه عليهم.

أما الإمام الثالث، فالأمر فيه تفصيل كبير عند العلماء، وذلك لاختلافهم في هل الفسق سبب من أسباب الخروج أم لا؟ وهل هو سبب من أسباب العزل أم لا؟[٤].

أما الرابع، فالأمر كذلك فيه تفصيل عند علماء الفقه والقانون، وذلك لاختلافهم في هل الخروج عليه يزيل الفساد؟ أم سيفتح أبواباً أخرى لمزيد من الفساد والفتنة؟ فكان لهم طرائق وآراء شتى.

الراشدين من كتاب (النظام السياسي في الإسلام)، للدكتور أحمد غلوش: (ص١٩٦-٢١١)، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/٢٠٠٤م.

[٣]- هناك طرق أخرى لا تراعى فيها الشروط، حيث يتم اختيار رئيس الحكومة عن طريق البرلمان (مجلس النواب) بأغلبية الأصوات، أو عن طريق التوافقات الحزبية والسياسية والقومية، أو الحزب الذي يحصل على أكبر عدد من مقاعد البرلمان، أو الكتلة التي تستطيع جمع أكثر المقاعد البرلمانية، أو بطرق أخرى متبعة اليوم في الكثير من الدول.

[٤]- حسني محمد العطار، ثورات الربيع العربي وفقه الخروج على الحاكم: (ص٧٧-٧٨)، مؤسسة نافذ للبحث والطباعة والنشر، رفح، فلسطين، ط١، ١٤٤٢هـ/٢٠٢٠م.

ومن هذه النظريات:

١. نظرية هجر الظالمين:

قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا}[النساء: ٩٧].

طرق هجر الظالمين المستبدين:

أ. تغيير الظلم، وذلك عن طريق ترك مجالس الظالمين، وعدم الدفاع عن شعاراتهم ومشاريعهم، والعمل على الابتعاد عنهم، مهما كانت الإغراءات. يقول الدكتور **محمد عمارة**: "الذين لا يهجرون المجتمع الظالم لتغييره، هم ظالمون لأنفسهم، وهو أشد أنواع الظلم، لأن ضحيته ليس ذات الظالم لنفسه وحدها، وليست فرداً أو أفراداً، بل الأمة، ومصالحها، والقيم التي دعا إليها الله، وبشر بها الرسول.

ذلك أن كونهم {مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ} لا يعفيهم من مسؤولية التكليف بواجب التغيير للظلم، لأن منطقهم الاستسلامي هذا يعاكس إرادة الله سبحانه؛ تلك الإرادة التي صاغها القرآن الكريم في آية جمعت من المعاني والطاقات الثورية ما لم تجمعه شعارات وشعارات: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ}[القصص: ٥].. فإرادة الله أن تكون القيادة والإمامة للمستضعفين في الأرض، وأن تكن لهم وراثة ما في حوزة أوطانهم من ثروات وعلوم وإمكانيات"[٥].

ب. الانضمام لموكب التغيير السلمي، ليكثر بهم المصلحون، ويعظم جهادهم ودعوتهم، حيث العزة والكرامة. وفي ذلك يقول الشيخ **الشعراوي**: "قوله تعالى: {فِيمَ كُنتُمۡ}، أي: في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع، أي لماذا ظلمتم أنفسكم؟ ولماذا لم تفعلوا مثلما فعل إخوانكم، وهاجرتم وانضممتم لموكب الإيمان والجهاد؟ ولماذا ظللتم في أماكنكم؛ محجوزين، ومحاصرين، ولا تستطيعون الحركة، ولا تستيطعون الفكاك؟"[٦].

ج. مقاومة الذل الواقع عليهم. قوله تعالى: {مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ}، أي: أنهم أريد ضعفهم وإذلالهم وعدم تمكينهم من إقامة الحق؛ لأن السين والتاء تدلان على طلب الضعف لهم من غيرهم، فهم يعتذرون بأن أعداء الدين، أو المسيطرين عليهم، أرادوا بهم

---

[٥]- الإسلام والثورة، محمد عمارة، (ص٢٧)، بتصرف يسير.

[٦]- الخواطر: (٢٥٧٧/٤).

هذا الضعف، وألزموهم إياه، فلم يستطيعوا عنه حولاً!. وهذا اعتذار غير سليم، لأنهم كانوا في ذات أنفسهم ضعفاء، إذْ رضوا بالذل والهوان"[٧].

د. العمل على إفشال مشاريع الظالمين، "بأسلوب غير أسلوب القوة، ولقاء العدوان بالعدوان، والشر بالشر، حين يكون الإنسان فى وجه قوة عاتية متسلطة، ولا قدرة له على دفعها.. إن كرامة الإنسان تفرض عليه أن يدفع عن وجوده الضيم والذل، بكل ما يملك من وسائل مادية وغير مادية، وإلَّا فقد باع إنسانيته بثمن بخس.

وحين لا يجد الإنسان بين يديه القوة التي يدفع بها يد الظلم المسلّطة عليه، كان إمساك نفسه على هذا المرعى الخبيث وعدم التحول عنه، إقرارا بقبول الظلم، ونزولاً على حكم الظالمين"[٨].

٢. النظرية العندية:

عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **(أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ)**[٩].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **(سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ، فَنَهَاهُ وَأَمَرَهُ، فَقَتَلَهُ)**[١٠].

وعَنْ أَمِينِ الْأُمَّةِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَكْرَمُ عَلَى الله؟ قَالَ: **(رَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ بِمَعْرُوفٍ وَنَهَاهُ عَنْ مُنْكَرٍ، فَقَتَلَهُ)**[١١].

أفضل الجهاد:

يقسم قول الحق عند السلطان إلى أربعة أحوال:

١. كلمة حق وعدل عند سلطان عادل، وهذه سهلة.

٢. كلمة باطل عند سلطان عادل، وهذه خطيرة؛ لأنك قد تفتن السلطان العادل بكلمتك، بما تزينه له من الزخارف.

٣.كلمة حق عند سلطان جائر، وهذه أفضل الجهاد.

٤. كلمة باطل عند سلطان جائر، وهذه أقبح ما يكون.

---

[٧]- زهرة التفاسير: (١٨١٩/٤).

[٨]- التفسير القرآني للقرآن للخطيب: (٨٧٧/٣-٨٧٨).

[٩]- سنن ابن ماجه: (١٣٢٩/٢؛ رقم: ٤٠١١)؛ سنن أبو داود: (١٢٤/٤؛ رقم: ٤٣٤٤)؛ سنن الترمذي: (رقم: ٢١٧٤)، حكم الألباني: صحيح.

[١٠]- المعجم الأوسط للطبراني: (٢٣٨/٤؛ رقم: ٤٠٧٩)؛ صحيح الجامع الصغير وزياداته: (٦٨٥/١؛ رقم: ٣٦٧٥)، حديث حسن.

[١١]- مسند البزار: (١٠٩/٤؛ رقم: ١٢٨٥).

فهذه أقسام أربعة، لكن أفضلها كلمة الحق عند السلطان الجائر[١٢].

وعن الحالة الثالثة يقول **عبد العزيز الراجحي**: "إذا ارتكب السلطان منكرًا، فللرعية معه ثلاث حالات:

الأولى: أن يقدر على نصحه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، من غير أن يحصل منه ضرر أكبر من الأول، ولا منكر أعظم من الأول، ففي هذه الحالة يجب نصحه. وكيفية النصح يجب أن تكون بالموعظة الحسنة مع اللطف؛ لأن هذا هو مظنة الفائدة، وناصحه وآمره في هذه الحالة مجاهد سالم من الإثم، ولو لم ينفع نصحه.

الثانية: أن لا يقدر على نصحه، لأنه يبطش بمن يأمره، أو لأن نصحه يؤدي إلى حصول منكر أعظم وضرر أكبر. وفي هذه الحالة يكون الإنكار عليه بالقلوب، وكراهية منكره، والسخط عليه. وهذه الحالة هي أضعف الإيمان.

الثالثة: أن يكون راضيًا بالمنكر الذي يفعله السلطان، ومتابعًا له عليه. وفي هذه الحالة يكون شريكه في الإثم والوزر[١٣].

الإنكار وعدم التأثير:

اختلف العلماء فيما إذا كان القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متأكداً من عدم التأثير؛ أو إنَّ أمره ونهيه لا يفيد، ولا يعود بطائل، على عدة أقوال:

١. لا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الحالة. وهو قول **أبي حامد الغزالي**، إذ قال: "... أن يعلم أنه لا يفيد إنكاره، ولكنه لا يخاف، فلا تجب عليه الحسبة، لعدم فائدتها"[١٤].

٢. تستحب، لإظهار شعائر الإسلام، وتذكير الناس بأمر الدين[١٥].

٣. الإنكار بالقلب والهجر. قال **القرطبي** : "قال ابن عطية: والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه، وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين. فإن خاف، فينكر بقلبه، ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه"[١٦].

---

[١٢]- شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين: (٤٥٤/٢).

[١٣]- القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (ص١٢٦-١٢٧)، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية، بدون بيانات.

[١٤]- إحياء علوم الدين: (٣١٩/٢).

[١٥]- إحياء علوم الدين: (٣١٩/٢).

[١٦]- الجامع لأحكام القرآن: (٢٥٣/٦).

٤. إظهار معالم الشرع. يقول **التفتازاني** في (شرح المقاصد)، وهو يتحدث عن شروط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: "منها تجويز التأثير، بأن لا يعلم عدم التأثير قطعاً، لئلا يكون عبثاً واشتغالاً بما لا يعني. فإن قيل: يجب، وإن لم يؤثر، إعزازاً للدين، قلنا: ربما يكون إذلالاً"[١٧].

ويقول **ابن المناصف القرطبي** : "والأظهر عندي: أنه يجب عليه القول، وإن كان يائساً من كفّ ذلك المنكر؛ لأن الإنكار أخصّ فريضةً، لا يسقطه عدم تأثر المنكر عليه، ألا ترى أنّ إنكار القلب، حيث لا يستطاع الإنكار بالقول، واجبٌ باتفاق، وهو لا أثَرَ له في دفعِ ذلك المنكر! فكذلك يجب القول إذا أمكنه، وإن لم يؤثر. وأيضاً ففي إعلان الإنكار تقرير معالم الشرع"[١٨].

٥. يسقط الإنكار إذا كان الحاكم دكتاتوراً ومستبداً. وفي ذلك يقول **السفاريني** الحنبلي، في (لوامع الأنوار البهية): "من خاف على نفسه السيف، أو السوط، أو الحبس، أو القيد، أو النفي، أو أخذ المال، ونحو ذلك من الأذى، أو خاف مثل ذلك على أهله وجيرانه، سقط وجوب الإنكار. وقد نص على ذلك الأئمة؛ منهم: مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم. قال الإمام أحمد: لا يتعرض للسلطان، فإن سيفه مسلول"[١٩].

ويقول **ابن النحاس**[٢٠]**:** "وأما الإنكار على السلطان بالسب وتخشين الكلام... فينظر؛ إن علم أن شرّ ذلك يتعدى إلى غير القائل، لم يجز له الإقدام عليه، كما في غير السلطان. وإن كان لا يخاف إلَّا على نفسه، كان ذلك جائزاً، بل مندوباً إليه، لأن فيه تحريض للشهادة"[٢١].

٦. وجوب الإنكار. يقول **ابن شبرمة**: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالجهاد، يجب على الواحد أن يصابر فيه الاثنين، ويحرم عليه الفرار منهما، ولا يجب عليه مصابرة أكثر

---

[١٧]- شرح المقاصد في علم الكلام: (٢٤٥/٢).

[١٨]- الإنجاد في أبواب الجهاد: (ص١٥).

[١٩]- لوامع الأنوار البهية: (٤٣٤/٢)، مؤسسة الخافقين – دمشق، ط٢، ١٤٠٢هـ : ١٩٨٢م.

[٢٠]- ابن النَّحّاس (ت: ٨١٤هـ /١٤١١ م): أحمد بن إبراهيم بن محمد، أبو زكريا، محيي الدين الدمشقيّ ثم الدمياطي، المعروف بابن النحاس: فرضي، رياضي، هندسي، فاضل، مجاهد، من فقهاء الشافعية. ولد في دمشق، ورحل أيام تيمورلنك إلى مصر، ولازم المرابطة والجهاد بثغر دمياط، وقتل شهيداً في معركة مع الفرنج. من تآليفه: مشارع الأسواق إلى مصارع العشاق، مثير الغرام إلى دار السلام، تنبيه الغافلين في معرفة الكبائر والصغائر، بيان المغنم في الورد الأعظم، وحاشية على شرح تجريد الكلام. (الأعلام للزركلي: (٨٧/١)؛ معجم المؤلفين: (١٤٢/١).

[٢١]- تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين: (ص٦٠).

من ذلك. وأما مجرد خوف السب، أو سماع الكلام السيئ، فلا يسقط الإنكار - نص عليه الإمام أحمد - وإن احتمل الأذى، وقوي عليه، فهو أفضل"[٢٢].

وقال **العظيم آبادي**: "قال العلماء: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين. والذي عليه الأمر والنهي، لا القبول"[٢٣].

عندما يكون قول الحق جريمة:

يقول **علي القاري**: "أكابر الصحابة، في الصدر الأول، عجزوا مع كمال قوتهم في الدين واليقين والمعرفة، ولم يقدروا على إظهار الحق لأهل البطلان؛ كيزيد والحجاج، وأمثالهما من الظلمة والفسقة، فكيف حالنا والحال أن بعد الألف[٢٤] أيام تقهقر الإسلام، وتسلط السلاطين على جميع الأنام، من غير تحققهم بشروط الإمامة والخلافة، وقلة العلماء العاملين، وكثرة العضلاء الجاهلين والقضاة الظالمين والمشايخ المرائين، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فهذا لا شك أنه زمان الصبر المقرون بالشكر، المنضم إلى الرضا بالقضاء، المتعين فيه السكوت، وملازمة البيوت، والقناعة بالقوت إلى أن يموت"[٢٥].

الفساد داء خبيث، إن بدأ من السلطة:

يقول الشيخ **محمد الغزالي**: "مهما كانت عظمة مرتكب المنكر، فإن المؤمن العظيم يستهين بملوك الدنيا أجمعين، إذا نظر إلى جلال الله وواسع فضله على من يرمي بالحق في وجوههم. فإذا سفك دمه في هذه السبيل، فقد فاز بأعلى الدرجات... المسلم مكلف بترك الشر، وتنظيف المجتمع من لوثاته، مطالب أمام الله بنبذ المعصية، ومحو آثارها من حوله، فرسالته تتجاوز الحدود الضيقة لشخصيته إلى نطاق أرحب، يشمل أمته كلها، بل يشمل العالم أجمع. هل معنى ذلك: أن الإسلام يأمر بالتدخل في تصرفات الآخرين، أو التعرض للحريات الشخصية؟ كما يتصور بعض الناس حين ينهون ويأمرون. ونقول: نعم، إن الحرية مكفولة لمحاربة الظلم، لا لإيقاعه والجور على المصلحة الكبرى للبشر. والإسلام يعتبر الفساد داء خبيثاً، لا يقصر شره على صاحبه، بل يتعداه إلى كيان الأمة كلها. وكما أن المصاب بمرض معد تصادر حرية انتقاله من مكان إلى مكان، ويحجز في مستشفى خاص، حتى لا تنتشر جراثيم علته بين الناس، فكذلك الشخص الفاسد!! إن لم يضرب على يده،

---

[٢٢]- لوامع الأنوار البهية: (٤٣٤/٢).
[٢٣]- عون المعبود شرح سنن أبي داود: (٣٣٠/١١).
[٢٤]- للعلم أنه توفي سنة (١٠١٤هـ/١٦٠٥م).
[٢٥]- مرقاة المفاتيح: (٣٢١٧/٨).

ويستنكر ما بدا منه، شاع فساده، ووجد في القلوب المريضة قبولاً حسناً، وفي البيئات الضعيفة مرتعاً خصباً، والويل لشعب تتبجح فيه المعصية، وتسير مستعلنة من غير نكير، إنه يسير حثيثاً إلى الهاوية! والحق أن المجتمع يدفع عن نفسه حين يحبس أولئك الحمقى، ويمنعهم عن غوايتهم"[٢٦].

٣- نظرية النصح (النظرية النصحية):

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: (**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: (**للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**)[٢٧].

وفي رواية أخرى: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ**) قَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: (**للهِ، وَكِتَابِهِ، وَرَسُولِهِ، وَأَئِمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَامَّتِهِمْ، أَوْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ**)[٢٨].

وقالَ النبي ﷺ: (**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ**)[٢٩].

وقال: (**ثَلَاثٌ خِصَالٍ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**)[٣٠].

قال **الخطابي**: "النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر هذا المعنى بكلمة واحدة تحصرها، وتجمع معناها، غيرها. وأصل النصح في اللغة: الخلوص، يقال: نصحت العسل، إذا خلصته من الشمع.

فمعنى النصيحة لله سبحانه، صحة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته. والنصيحة لكتاب الله، الإيمان به، والعمل بما فيه. والنصيحة لرسوله، التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه. والنصيحة لأئمة المؤمنين، أن يطيعهم في الحق، وأن لا يرى الخروج عليهم بالسيف إذا جاروا. والنصيحة لعامة المسلمين، إرشادهم إلى مصالحهم"[٣١].

---

[٢٦]- الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي: (ص١٤٨).

[٢٧]- مسند الإمام أحمد: (١٣٨/٢٨؛ رقم: ١٦٩٤٠)؛ صحيح مسلم: (٧٤/١؛ رقم: ٥٥).

[٢٨]- سنن أبو داود: (٢٨٦/٤؛ رقم: ٤٩٤٤)؛ سنن الترمذي: (رقم: ١٩٢٦)؛ صحيح ابن حبان: (٤٣٥/١٠؛ رقم: ٤٥٧٤).

[٢٩]- موطأ الإمام مالك: (١٤٤١/٥؛ رقم: ٣٦٣٢)؛ مسند الإمام أحمد: (٣٩٩/١٤؛ رقم: ٨٧٩٩)، حديث صحيح.

[٣٠]- مسند الإمام أحمد: (٤٦٧/٣٥؛ رقم: ٢١٥٩٠)؛ سنن الترمذي: (رقم: ٢٦٥٨)؛ صحيح ابن حبان: (٢٧٠/١؛ رقم: ٦٧).

[٣١]- معالم السنن: (١٢٥/٤-١٢٦).

وقال **الكلاباذي**: "النصح هو: فعل الشيء الذي به الصلاح والملاءمة، مأخوذ من النصاحة، وهي السلوك التي يخاط بها. وتصغيرها: نصيحة. يقول العرب: هذا قميص منصوح، أي: مخيط. ونصحته أنصحه نصحاً، إذا خطته. وإنما اختلف النصح في الأشياء، لاختلاف أحوال الأشياء: فالنصح لله عز وجل هو: وصفه بما هو أهله، وتنزيهه عما هو ليس بأهل له؛ عقداً وقولاً، والقيام بتعظيمه، والخضوع له ظاهراً وباطناً، والرغبة في محابه، والبعد من مساخطه، وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه، والجهاد في رد العاصين إلى طاعته قولاً وفعلاً. وإرادة النصيحة لكتابه: إقامته في التلاوة، وتحسينه عند القراءة، وتفهم ما فيه، واستعماله، والذب عنه من تأويل المحرفين، وطعن الطاعنين. والنصيحة للرسول ﷺ: مؤازرته ونصرته، والحماية من ذويه حياً وميتاً، وإحياء سنته بالطلب، وإحياء طريقته في بث الدعوة، وتأليف الكلمة، والتخلق بأخلاقه الظاهرة. والنصيحة للأئمة: معاونتهم على ما تكلفوا القيام به، في تنبيههم عند الغفلة، وتقويمهم عند الهفوة، وسدّ خلّتهم عند الحاجة، ونصرتهم في جمع الكلمة عليهم، وردّ القلوب النافرة إليهم. والنصيحة لجماعة المسلمين: الشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، والرحمة بصغيرهم، وتفريج كربهم، والسعي فيما يعود نفعه عليهم في الآجل، ودعوتهم إلى ما يسعدهم، وتوقي ما يشغل خواطرهم، ويِ فتح باب الوسواس عليهم، وإن كان في نفسه حقاً وحسناً، ومن النصيحة للمسلمين رفع مؤنة بدنه ونفسه وحوائجه عنهم، والله أعلم"[٣٢].

نصيحة الأئمة:

قال **أبو عبد الله القلعي**: "يجب على من صحب الْمُلُوك وَجَالسهمْ، وَصَارَ من أهل المباسطة لَهُم والموانسة، أَن لَا يطوي عَنْهُم نصيحةً تعود عَلَيهِم فِي صَلَاح الدّين ودوام المملكة وَحسن الأحدوثة عَنْهُم، قَالَ ﷺ: (رَأس الدّين النَّصيحَة). وَلَا يحملهُ مَا يرَاهُ من محبّة الْملك لما يرتكبه من لذيذ شهواته، وسروره بِمَا يَتَأَتَّى لَهُ من دَرك إِرَادَته، وارتياحه إِلَى تَنْفِيذ أوامره ونواهيه، واغتباطه من السياسة بِمَا يذره ويأتيه، مِمَّا يكسبه إِثْمًا، أَو يلْحقهُ وصماً، أَو تعود عاقبته إِلَى فَسَاد فِي مَمْلَكَته، أَو اختلال فِي دولته، على مُوَافَقَته فِي اسْتِحْسَان مَا استحسنه، ومتابعته على استصواب مَا خيل إِلَيْهِ رَأيه من ذَلِك وزيّنه، فَإِن ذَلِك من أعظم دَلَائِل الخيانة، وَهُوَ مباين لسبيل النصح وَالْأَمَانَة"[٣٣].

وإذا علَم ناصح الأئمة أن نصيحته تعدو عليه وبالاً، فهو بين أمرين:

---

[٣٢]- بحر الفوائد: (ص١٠٥).

[٣٣]- أبو عبد الله القلعي، تهذيب الرياسة وترتيب السياسة: (ص١٦٠-١٦١)، مكتبة المنار – الزرقاء، الأردن، ط١.

الأمر الأول: عدم القيام بالنصح، وفي ذلك يقول **ابن بطال**: "والنصيحة فرض، يجزئ فيه من قام به، ويسقط عن الباقين. والنصيحة لازمة على قدر الطاقة، إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه، ويطاع أمره، وأمن على نفسه المكروه. وأما إن خشي الأذى، فهو في سعة منها"[٣٤].

الأمر الثاني: القيام بالنصح مع توقع وقوع الضرر. عَنِ ابْنِ عَبّاس، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (**سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامِ جَائِرٍ، فَنَهَاهُ وَأَمَرَهُ، فَقَتَلَهُ**)[٣٥].

إنما صار قائل الحق ضمن قائمة سيد الشهداء، بعد حمزة بن عبد المطلب، "لأن من جاهد السلطان الجائر، وكان متردداً بين رجاء وخوف، لا يدري هل يغلب أو يغلب؟ وصاحب السلطان مقهور في يده، فهو إذا قال الحق وأمره بالمعروف، فقد تعرض للتلف وأهدف نفسه للهلاك، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد، من أجل غلبة الخوف. والله أعلم"[٣٦].

أول النصح: تعلم علم النصيحة:

يقول أبو بكر الآجري: "ولا يكون ناصحاً لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، إلَّا من بدأ بالنصيحة لنفسه، واجتهد في طلب العلم والفقه، ليعرف به ما يجب عليه، ويعلم عداوة الشيطان له، وكيف الحذر منه، ويعلم قبيح ما تميل إليه النفس، حتى يخالفها بعلم"[٣٧].

نصيحة أبو سعيد الخدري للحسين ﷺ:

لما بايع الناس معاوية ليزيد، كان الحسين ممن لم يبايع له، وكان أهل الكوفة يكتبون إلى الحسين يدعونه إلى الخروج إليهم، في خلافة معاوية. كل ذلك وهو يأبى. فقدم منهم قوم إلى محمد ابن الحنفية يطلبون إليه أن يخرج معهم، فأبى، وجاء إلى الحسين فأخبره بما عرضوا عليه، وقال: إن القوم إنما يريدون أن يأكلوا بنا، ويشيطوا دماءنا. فأقام الحسين على ما هو عليه من الهموم، مرة يريد أن يسير إليهم، ومرة يجمع الإقامة. فجاءه أبو سعيد الخدري فقال: يا أبا عبد الله، إني لك ناصح، وإني عليكم مشفق، قد بلغني أنه قد كاتبكم

---

[٣٤]- فتح الباري: (١٢٩/١).

[٣٥]- المعجم الأوسط للطبراني: (٢٣٨/٤؛ رقم: ٤٠٧٩)؛ صحيح الجامع الصغير وزياداته: (٦٨٥/١؛ رقم: ٣٦٧٥)، حديث حسن.

[٣٦]- معالم السنن: (٣٥٠/٤).

[٣٧]- فتح الباري: (١٣٠/١).

قوم من شيعتكم بالكوفة يدعونك إلى الخروج إليهم، فلا تخرج إليهم، فإني سمعت أباك يقول في الكوفة: **والله لقد مللتهم وأبغضتهم، وملوني وأبغضوني، وما يكون منهم وفاء قط، ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب، والله ما لهم ثبات، ولا عزم على أمر، ولا صبر على سيف**[٣٨].

نصيحة رجل لعبد الملك بن مروان:

قيل: خطب عبد الملك بن مروان يوماً بمكة، فلما صار إلى موضع العظة قام إليه رجل، فقال: مهلاً مهلاً إنكم تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون! أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم؟ أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا، فأين، وكيف، وما الحجة؟ وما النصير من الله في الاقتداء بسيرة الظلمة الجَوَرَة، الذين أكلوا أموال الناس دُوَلاً، وجعلوا عباد الله خَوَلاً؟[٣٩].

وإن قلتم أطيعوا واقبلوا نصيحتنا، فكيف ينصح غيره من يغش نفسه؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عدالته؟

وإن قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، واقبلوا العظة ممن سمعتموها، فعلام قلّدناكم أزمّة أمورنا؟ وحكّمناكم في أموالنا ودمائنا؟ أما علمتم أن فينا من هو أفصح بفنون العظات، وأعرف بوجوه اللغات، منكم؟ فتلحلحوا عنها لهم؟ وإلَّا فأطلقوا عقالها، وخلّوا سبيلها، يبتدر إليها الذين شردتموهم في البلاد، ونقلتموهم في كل واد. أم لئن بقيت في أيديكم لانقضاء المدة وبلوغ الغاية، فإن لكل قائم يوماً لا يعدوه، وكتاباً بعده يتلوه، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون[٤٠].

٤- نظرية السمع والطاعة:

تقول الحقيقة: **(عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ الطَّاعَةُ، فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ).**

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **(السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ؛ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ)**[٤١].

---

[٣٨]- البداية والنهاية: (٤٩٩/١١-٥٠٠).

[٣٩]- يعني خدم.

[٤٠]- نصيحة الملوك للماوردي: (ص٦٠-٦١)، تحقيق: الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

[٤١]- اللؤلؤ والمرجان: (رقم: ١٢٠٥).

وعن عبادة بن الصامت، قَالَ: دَعَانَا النَّبِيّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا، أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وعُسرِنَا ويُسرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، (**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**)[٤٢].

وعن حذيفة، عنِ النَّبِي ﷺ، قَالَ: (**يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ**). قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: (**تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**)[٤٣].

وعنه أيضاً، قال: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : (**عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ الطَّاعَةُ، فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ**)[٤٤].

يستنبط مؤيدوا هذه النظرية من هذه الأحاديث جملة من القواعد، منها:

١. طاعة ولاة الأمر من طاعة الله - عز وجل -. يقول **أبو جعفر الطحاوي**[٤٥] (ت: ٣٢١هـ/٩٣٣م)، في عقيدته: "ولا نرى الخروج على أئمتنا، وولاة أمورنا، وإنْ جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله - عز وجل - فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة"[٤٦].

٢. الصبر على الطاعة، تكفير للسيئات. وفي ذلك يقول **ابن أبي العز الحنفي**[٤٧] (ت: ٧٩٢هـ/١٣٩٠م)، في شرح العقيدة الطحاوية: "وأما لزوم طاعتهم وإنْ جاروا، فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على

---

[٤٢]- اللؤلؤ والمرجان: (رقم: ١٢٠٧).

[٤٣]- صحيح مسلم: (١٤٧٦/٣؛ رقم: ١٨٤٧). قال الدارقطني: وهذا عندي مرسل، أبو سلام لم يسمع من حذيفة، ولا من نظرائه الذين نزلوا العراق. الإلزامات والتتبع: (رقم: ٥٣).

[٤٤]- سنن ابن ماجه: (٩٥٦/٢؛ رقم: ٢٨٦٤)؛ سنن النسائي الكبرى: (١٩٢/٧؛ رقم: ٧٧٨١)، وفيه: (**عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ** ...)، حكم الألباني: صحيح.

[٤٥]- أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي، أبو جعفر: فقيه، انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر. فقيه مجتهد، محدث، حافظ، مؤرخ. من تصانيفه: أحكام القرآن، المختصر في الفقه، الاختلاف بين الفقهاء، المحاضر والسجلات والتاريخ الكبير، مشكل الآثار، معاني الآثار، النوادر الفقهية، مناقب أبي حنيفة، وغيرها من المصنفات. تاج التراجم: (١٠٠/١؛ رقم: ٢١)؛ أعلام الزركلي: (٢٠٦/١)؛ معجم المؤلفين: (٢٧/٢).

[٤٦]- شرح العقيدة الطحاوية (المتن): (ص٢٥١)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وكالة الطباعة والترجمة في الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

[٤٧]- ابن أبي العزّ علي بن علي بن محمد بن أبي العز، الحنفي الدمشقيّ: فقيه. كان قاضي القضاة بدمشق، ثم بالديار المصرية، ثم بدمشق. الدرر الكامنة: (١٠٣/٤؛ رقم: ١٨٨)؛ أعلام الزركلي: (٣١٣/٤).

جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلَّا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة وإصلاح العمل"[٤٨].

٣. السمع والطاعة، سداً للذريعة. يقول **ابن القيم**: "نهيه ﷺ عن قتال الأمراء، والخروج على الأئمة - وإنْ ظلموا أو جاروا، ما أقاموا الصلاة - سداً لذريعة الفساد العظيم، والشر الكثير، بقتالهم، كما هو الواقع؛ فإنه حصل بسبب قتالهم، والخروج عليهم، أضعاف أضعاف ما هم عليه"[٤٩].

٤. الحفاظ على مصالح العباد والبلاد. "إن المتغلب على الحكم، إما أن يكون مستجمعاً للصفات، مرضياً عنه، بعد تغلبه، فهذا تعتبر إمامته شرعية، إذا بايعه المسلمون، فالعبرة بالرضا، فإذا رضي المسلمون عنه، زال الاغتصاب.

إما إذا كان المتغلب غير مستجمع للصفات، أو مستجمعاً، ولكن غير مرضي عنه، سواء عقدت له البيعة بالإكراه أو لم تعقد، فإنه يعتبر غير شرعي، ووجوده منكر يجب تغييره، حسب الاستطاعة... لأنها معصية لا تستوجب الخروج عليه، وينكر عليه باللسان، أو بأي طريق سلمي آخر، حتى يرجع إلى الحق، فإن لم يرجع، فعلى المسلمين السمع والطاعة تجنباً لإراقة الدماء، وحرصاً على مصالح المسلمين"[٥٠].

وبعد هذا، والذي عليه الأكثر من العلماء، أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه، لأن في منازعته والخروج عليه؛ استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء، وشن الغارات على المسلمين، والفساد في الأرض[٥١].

وقال **ابن القيم** في هذا الصدد:

"إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة، وإنْ أدخلت فيها بالتأويل؛ فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه... وقد شرع النبي لأمته إيجاب إنكار المنكر، ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه، وأبغض إلى الله ورسوله، فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه، ويمقت أهله. وهذا كالإنكار على الملوك والولاة

---

[٤٨]- شرح العقيدة الطحاوية: (ص٢٥٢).
[٤٩]- أعلام الموقعين: (١٢٦/٣).
[٥٠]- نظرية الخروج: (ص١٠٤).
[٥١]- تفسير القرطبي: (١٠٩/٢).

بالخروج عليهم؛ فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر. "وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ فقال: (**لَا، مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ**)[٥٢]. وقال: (من **رأى من أميره ما يكرهه، فليصبر، ولا ينزعن يداً من طاعته**)[٥٣]. ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن، الكبار والصغار، رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر؛ فطلَبَ إزالته، فتولد منه ما هو أكبر منه؛ فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله (مكة)، وصارت دار إسلام، عزم على تغيير البيت وردّه على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك - مع قدرته عليه - خشية وقوع ما هو أعظم منه؛ من عدم احتمال قريش لذلك، لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهد بكفر. ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد؛ لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم"[٥٤].

مواقف مؤيدة للنظرية:

١. معارضة خلع يزيد، من قبل فضلاء الصحابة:

اعترض بعض علماء وفقهاء المدينة على خلع يزيد بن معاوية، والخروج عليه، ولم يؤيدوا من قام بالخروج، وقاموا بنصح إخوانهم، واعتزلوا الفتنة. وكان أغلب هذا الرأي من أهل العلم والفقه في الدين، فكان منهم:

- عبد الله بن عمر ﷺ:

في مقدمة الذين اعتزلوا الفتنة الصحابي الجليل، الإمام القدوة، عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ، فقد اشتهر عنه إنكاره على الذين رفضوا البيعة ليزيد، وسعوا في خلعه. فعندما أراد عبد الله بن مطيع[٥٥] الفرار من المدينة، تهرباً من البيعة ليزيد، وسمع ذلك

٥٢- مسند الإمام أحمد: (٣٢١/١٧؛ رقم: ١١٢٢٣)، صحيح لغيره، وهذا إسناده ضعيف.

٥٣- عن ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ: (**مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**). اللؤلؤ والمرجان: (رقم: ١٢١٢) سيأتي شرحه.

٥٤- أعلام الموقعين: (١١/٣، ١٢).

٥٥- عبد الله بن مطيع (ت: ٧٣هـ/٦٩٢م): عبد الله بن مطيع بن الأسود الكعبي القرشي العدوي: من رجال قريش، جلداً وشجاعة. ولد في حياة النبي ﷺ، وكان على قريش يوم الحرة، فلما انهزم أصحابه توارى في المدينة، ثم سكن مكة. واستعمله ابن الزبير على الكوفة، فأخرجه المختار ابن أبي عبيد منها، فعاد إلى مكة، فلم يزل فيها إلى أن قتل مع ابن الزبير في حصار الحجاج له. وأرسل رأسه إلى الشام مع رأسي ابن الزبير وصفوان. قيل مر الحسين بن علي على ابن مطيع وهو ببئره، فنزل حسين عن راحلته، فاحتمله ابن مطيع احتمالاً، حتى وضعه على سريره، ثم قال: بأبي وأمي أمسك علينا نفسك. فو الله لئن قتلوك، ليتخذنا هؤلاء القوم عبيداً. طبقات ابن سعد: (١٠٩/٥؛ رقم: ٦٨٤)؛ الاستيعاب: (٩٩٤/٣؛ رقم: ١٦٦١)؛ أسد الغابة: (٣٩٠/٣؛ رقم :٣١٩٠)؛ أعلام الزركلي: (١٣٩/٤)؛

عبد الله بن عمر، خرج إليه، حتى جاءه، فقال له: أين تريد يا ابن عم؟ فقال: لا أعطيهم طاعة أبداً. فقال له: أين تريد يا ابن عم؟ لا تفعل، فإني أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**)[٥٦]. وعندما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر حشمه، وولده، فقال: إني سمعت النبي ﷺ يقول: (**يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ**)، وَإِنَّا قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُلَ عَلَى بَيْعِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنِّي لاَ أَعْلَمُ غَدْرًا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُبَايَعَ رَجُلٌ عَلَى بَيْعِ اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُنْصَبُ لَهُ القِتَالُ، وَإِنِّي لاَ أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْكُمْ خَلَعَهُ، وَلاَ بَايَعَ فِي هَذَا الأَمْرِ، إِلَّا كَانَتِ الفَيْصَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ[٥٧].

فقد عارض ابن عمر من خرج من أهل المدينة، لسببين:

الأول: نقضهم البيعة. وهو يرى أنهم أعطوا البيعة عن رضى واختيار، ولم يفعلوا مثل الحسين ﷺ، حيث كان موقفه واضحاً منذ البداية، ولم يعط البيعة، وذلك عند ابن عمر خيانة وغدر، ويتضح ذلك في قوله لعبد الله بن مطيع: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**)[٥٨].

الثاني: هو تعظيم حرمة دماء المسلمين، وحرمة الاقتتال بينهم. وتزداد هذه الحرمة في الأماكن المقدسة؛ كمكة، والمدينة[٥٩].

- محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية):

لم ير ابن الحنفية[٦٠] خروج أهل المدينة على يزيد، ولم يستجب لدعوتهم إياه بالخروج معهم، بل جادلهم في نفي التهم التي أشاعوها عن يزيد. ولما رجع وفد أهل المدينة من

---

[٥٦]- عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مُطِيعٍ حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَرَّةِ مَا كَانَ، زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: اطْرَحُوا لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وِسَادَةً، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ آتِكَ لأَجْلِسَ، أَتَيْتُكَ لأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (**مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**). صحيح مسلم: (٣/١٤٧٨؛ رقم: ١٨٥١).

[٥٧]- صحيح البخاري: (٩/٥٧؛ رقم: ٧١١١).

[٥٨]- سبق تخريجه.

[٥٩]- الدولة الأموية للصلابي: (١/٥٢٥-٥٢٦).

[٦٠]- ابن الحَنَفِية (٢١ - ٨١هـ / ٦٤٢ - ٧٠٠م): محمد الأكبر بن علي بن أبي طالب، أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام. وهو أخو الحسن والحسين، غير أن أمهما فاطمة الزهراء، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية، يقال كانت أمه من سبي اليمامة، فصارت إلى علي بن أبي طالب. ينسب إليها تمييزاً له عنهما. وكان يقول: الحسن والحسين أفضل مني، وأنا أعلم منهما. كان واسع العلم، ورعاً، أسود اللون. وأخبار قوته وشجاعته كثيرة. وكان المختار الثقفي يدعو الناس إلى إمامته، ويزعم أنه المهدي. وكانت الكيسانية (من فرق الإسلام) تزعم أنه لم يمت، وأنه مقيم برضوى. مولده ووفاته في المدينة. وقيل: خرج إلى الطائف هارباً من ابن الزبير، لأنه امتنع عن بيعته،

يزيد، مشى عبد الله بن مطيع، وأصحابه، إلى محمد بن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد، فأبى عليهم.

فقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب.

فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته، وأقمت عنده، فرأيته مواظباً على الصلاة، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه، ملازماً للسنة.

قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعاً لك.

فقال: وما الذي خاف مني أو رجا، حتى يظهر لي الخشوع؟ فأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟[٦١] فلئن كان أطلعكم على ذلك، إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم، فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا.

قالوا: إنه عندنا لحق، وإن لم يكن رأيناه.

فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: {إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلحَقِّ وَهُم يَعلَمُونَ}[الزخرف: ٨٦]، ولست من أمركم في شيء.

قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك، فنحن نوليك أمرنا.

قال: ما أستحل القتال على ما تريدون عليه، تابعاً ولا متبوعاً.

قالوا: فقد قاتلت مع أبيك.

قال: جيئوني بمثل أبي، أقاتل على ما قاتل عليه.

فقالوا: فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا.

قال: لو أمرتهما، قاتلت.

فمات هناك. طبقات ابن سعد: (٦٧/٥؛ رقم: ٦٨٠)؛ سير أعلام النبلاء: (٥٥/٥؛ رقم: ٤٠٤)؛ أعلام الزركلي: (٢٧٠/٦).

[٦١]- قال **ابن تيمية**: "يزيد بن معاوية ولد في خلافة عثمان بن عفان، ولم يدرك النبي ﷺ، ولا كان من الصحابة، باتفاق العلماء؛ ولا كان من المشهورين بالدين والصلاح، وكان من شبان المسلمين؛ ولا كان كافراً، ولا زنديقاً؛ وتولى بعد أبيه، على كراهة من بعض المسلمين، ورضا من بعضهم، وكان فيه شجاعة وكرم، ولم يكن مظهراً للفواحش، كما يحكي عنه خصومه". ويتابع ابن تيمية رأيه فيه، من ناحية قتل الحسين، وموقعة الحرة، فيقول: "ولما قدم أهلهم على يزيد بن معاوية أكرمهم، وسيرهم إلى المدينة. وروي عنه أنه لعن ابن زياد على قتله. وقال: كنت أرضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين، لكنه مع هذا لم يظهر منه إنكار قتله، والانتصار له، والأخذ بثأره: كان هو الواجب عليه، فصار أهل الحق يلومونه على تركه للواجب، مضافاً إلى أمور أخرى. وأما خصومه، فيزيدون عليه من الفرية أشياء". مجموع الفتاوى: (٤١٠/٣، ٤١١).

وقال **ابن كثير**: "يزيد بن معاوية أكثر ما نقم عليه في عمله شرب الخمر، وإتيان بعض الفواحش. فأما قتل الحسين، فإنه لم يأمر بذلك، ولم يسؤه. قال: لو كنت أنا لم أفعل معه ما فعله ابن مرجانة. يعني عبيد الله بن زياد. وقال للرسل الذين جاءوا برأسه: قد كان يكفيكم من الطاعة دون هذا. ولم يعطهم شيئاً". البداية والنهاية: (٢٥٠/١١، ٢٥١).

قالوا: فقم معنا مقاماً تحض الناس فيه على القتال.

قال: سبحان الله آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه. إذاً، ما نصحت لله في عباده.

قالوا: إذاً نكرهك.

قال: إذاً آمر الناس بتقوى الله، ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق.

ولما رأى محمد بن الحنفية الأمور تسير في الاتجاه الذي لا يريده، وبدا يظهر له سوء عاقبة تصرفات المخالفين له من أهل المدينة، حينما ترامى إلى الأسماع قدوم جيش أهل الشام إلى المدينة، لذلك قرر ترك المدينة، والتوجه إلى مكة[٦٢].

وقال لأصحابه الذين تمنوا زوال ملك بني أمية: "اتَّقُوا هَذه الْفتَنَ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَشْرِفُ إِلَيْهَا أَحَدٌ إِلَّا اسْتَبَقْتُهُ. أَلَا إِنَّ هَؤُلَاء الْقَوْمَ لَهُمْ أَجَلٌ وَمُدَّةٌ، لَوْ أَجْمَعَ مَنْ فِي الْأَرْض أَنْ يُزِيلُوا مُلْكَهُمْ، لَمْ يَقْدرُوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذي يَأْذَنُ فيه، أَتَسْتَطِيعُونَ أَنْ تُزِيلُوا هَذه الْجِبَالَ"[٦٣].

- أهل بيت النبوة:

لزم أهل بيت النبوة الطاعة، ولم يخرجوا مع أهل المدينة ضد يزيد. فعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لم يخرج مع أهل المدينة، ولزم الطاعة ليزيد. وهو الذي قال فيه الزهري: "كان أفضل أهل بيته، وأحسنهم طاعة. وقال عنه: لم أدرك من آل البيت أفضل من علي بن الحسين"[٦٤]. وكذلك ابن عباس، وهو فقيه الأمة وحبرها وعالمها، لم ينقل عنه تأييداً لأهل المدينة، بل كان معتزلاً في الطائف، كما أنه لم يذكر عنه أنه نزع بيعة يزيد بن معاوية. فهؤلاء أفضل آل بيت النبوة في زمانهم، ومع ذلك لم يخرجوا مع أهل المدينة، ومسوغات الخروج على يزيد عندهم هي أكثر من غيرهم[٦٥].

- النعمان بن بشير الأنصاري:

وممن عاب على أهل المدينة خروجهم، وعارضهم، الصحابي الجليل النعمان بن بشير الأنصاري[٦٦]، وقد كان إبان خروج أهل المدينة في الشام، فاستغل يزيد فرصة وجوده،

---

[٦٢]- البداية والنهاية: (١١/ ٦٥٣)، للمزيد ينظر: الدولة الأموية للصلابي: (٥٢٦/١-٥٢٧).

[٦٣]- مصنف ابن أبي شيبة: (٢٠٢/٦؛ رقم: ٣٠٦٦٨؛ ٤٧٢/٧؛ رقم: ٣٧٣٢٤).

[٦٤]- مختصر تاريخ دمشق: (٢٣٤/١٧).

[٦٥]- الدولة الأموية للصلابي: (٥٢٧/١). ينظر: د. محمد بن عبد الهادي الشيباني، مواقف المعارضة في عهد يزيد بن معاوية: (ص٥١٢)، دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض، ط٢، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

[٦٦]- النّعمان بن بَشير (٢ - ٦٥هـ / ٦٢٣ - ٦٨٤م): النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، أبو عبد الله: أمير، خَطِيب، شاعر، من أجلاء الصحابة. من أهل المدينة. له (١٢٤) حديثاً. وجهته نائلة (زوجة عثمان) بقميص عثمان، إلى معاوية، فنزل الشام. وشهد (صفين) مع معاوية. وولي القضاء بدمشق، بعد فضالة بن عبيد سنة (٥٣ هـ/٦٧٣م)، وولي اليمن لمعاوية، ثم استعمله على الكوفة، تسعة أشهر، وعزله، وولاه حمص.

فبعثه إلى أهل المدينة، لعله يفلح في صدهم عن الخروج، ويعيدهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة. فاستجاب النعمان لذلك، وقدم المدينة، فجمع عامة الناس، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة، وخوّفهم الفتنة، وقال لهم: إنه لا طاقة لكم بأهل الشام. فقال له عبد الله بن مطيع: ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا، وفساد ما أصلح الله من أمرنا. فقال النعمان: أما والله لكأني بك لو قد نزلت تلك التي تدعو إليها، وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودارت رحى الموت بين الفريقين، قد هربت على بغلتك تضرب جبينها إلى مكة، وقد خلفت هؤلاء المساكين (الأنصار) يقتلون في سككهم، ومساجدهم، وعلى أبواب دورهم. فعصاه الناس، فانصرف، وكان والله كما قال[٦٧].

- عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

كان بالشام عندما عزم يزيد أن يبعث جيشاً إلى المدينة، فحاول عبد الله بن جعفر[٦٨] أن يتدخل في الأمر، ليجنب أهل المدينة شر القتال، فكلم يزيد، وطلب منه الرفق بأهل المدينة، ورقّقه عليهم، وقال: إنما تقتتل بهم نفسك. وقد تجاوب معه يزيد، حين قال: فإني أبعث أول جيش، وآمرهم أن يمروا بالمدينة إلى ابن الزبير، فإنه قد نصب لنا الحرب، ويجعلونها طريقاً، ولا يقاتلهم، فإن أقر أهل المدينة بالسمع والطاعة تركهم. وقد وجد عبد الله بن جعفر مدخلاً لكف القتال والأذى عن أهل المدينة، فكتب على الفور إلى زعماء أهل المدينة يخبرهم بذلك، ويقول: استقبلوا ما سلف، واغنموا السلامة والأمن، ولا تعرضوا لجنده، ودعوهم يمضون عنكم. وكان ردهم عليه: لا يدخلها علينا أبداً[٦٩].

وا ستمر فيها إلى أن مات يزيد بن معاوية، فبايع النعمان لابن الزبير. وتمرد أهل حمص، فخرج هارباً، فاتبعه خالد الكلاعي فقتله. وهو أول مولود ولد في الأنصار بعد الهجرة. قال ابن حزم: افتتح (مروان) دولته بقتله، وسيق إليه رأسه من حمص. وقيل: قتل يوم مرج راهط. قال سماك بن حرب: كان من أخطب من سمعت. له ديوان شعر - ط ، وهو الّذي تنسب إليه (معرة النعمان)؛ بلد أبي العلاء المعري: كانت تعرف بالمعرة، ومر بها النعمان صاحب الترجمة، فمات له ولد، فدفنه فيها، فنسبت إليه، وكانت له ذرية في المدينة وبغداد. أعلام الزركلي: (٣٦/٨).

[٦٧]- الدولة الأموية للصلابي: (٥٢٨/١)، ينظر: تاريخ الطبري: (٣٥١/٣).

[٦٨]- عَبد الله بن جَعْفَر (١ - ٨٠هـ / ٦٢٢ - ٧٠٠م): عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي: صحابي. ولد بأرض الحبشة، لما هاجر أبواه إليها. وهو أول من ولد بها من المسلمين. أمه أسماء بنت عميس. وأتى البصرة والكوفة والشام. وكان كريماً يسمى بحر الجودِ وقطب السخاء، وكان لا يعطي شيئاً، إلَّا فرقه من ساعته. وللشعراء فيه مدائح. وكان أحد الأمراء في جيش علي يوم (صفين)، ومات بالمدينة. أسد الغابة: (٨٨٠/٣؛ رقم: ١٤٨٨)؛ إكمال تهذيب الكمال: (٢٧٨/٧؛ رقم: ٢٨٥١)؛ تهذيب التهذيب: (١٧٠/٥؛ رقم: ٢٩٤)؛ أعلام الزركلي: (٧٥/٤).

[٦٩]- طبقات ابن سعد: (١١٠/٥-١١١).

- تأييد عصري:

قالوا: "إن من عقيدة أهل السنة والجماعة، وأصولهم، السمع والطاعة للأئمة، ما داموا بأمور الدين قائمين، وعن بيضته وحوزته محامين ومدافعين، وعلى الثغور مرابطين، وللمسلمين موالين، ولحرماتهم محافظين، ولأهل البدع والعدوان قامعين، وللكفار والمنافقين معادين. ولنا الظاهر من تصرفاتهم، ونكل إلى الله سرائرهم. كما يرون أن الجهاد معهم ماض، والصلاة خلفهم صحيحة، وكذلك بقية العبادات[٧٠]. ويعتقدون أن الدعاء والنصيحة لهم من الإسلام، وأن الغدر والنكث لهم من الخذلان، وأن طاعتهم طاعة لله ورسوله، ومعصيتهم معصية لله ورسوله، وأن الخارج عليهم يعتبر شاقاً لعصا المسلمين، مخالفاً لأثر المصطفى ﷺ، ولذلك حكم عليه - إن مات على ذلك - بالميتة الجاهلية، وعلى المسلمين مدافعته، والأخذ على يده نصرة لإمامهم، وحفظاً لدينهم، وحقناً لدمائهم، وصيانة لأعراضهم وأموالهم. ويعتقدون أن من تغلّب بالسيف، وصار له شوكة وقوة، وسمّي أميراً، وقاد الناس وساسهم بكتاب الله وسنة رسوله، وجبت طاعته، والانضمام تحت أمرته، وإعطاؤه صفقة اليد، وثمرة القلب، وبذل النصيحة له، والصدع بالحق له وعليه، فإن صدر من الأئمة ما يشين سلوكهم وعقيدتهم؛ من كفر بواح، أو عدم إقامة للصلاة، أو ترك الدعاء إليها، أو بدعة عقدية مكفرة؛ كالرفض ونحوها، ففي هذه الحالة يجب على الأمة خلعهم، وعدم السمع والطاعة لهم.

ويتلخص مذهب أهل السنة والجماعة نحو الأئمة في الأمور الآتية:

أولاً: السمع والطاعة لهم، فيما هو طاعة لله سبحانه ولرسوله ﷺ.

ثانياً: النصح لهم.

ثالثاً: الوفاء بالبيعة لهم؛ الأول فالأول.

رابعاً: إعطاؤهم حقهم، وإن منعوا حق غيرهم.

خامساً: إقامة الصلاة خلفهم.

سادساً: الجهاد والغزو معهم.

سابعاً: قول الحق، والصدع به، معهم، دون خوف ولا وجل.

ثامناً: الصبر على جورهم وظلمهم.

تاسعاً: عدم منازعتهم أمرهم، أو الغدر بهم.

عاشراً: عدم الطاعة لهم فيما هو معصية.

---

[٧٠]- ماذا إن كانوا لا يصلون ولا يصومون ولا يؤدون زكاة أموالهم، ويسرقون وينهبون ويجوعون الناس، ويأتون المنكرات، ويمارسون الظلم جهاراً نهاراً، ويقننون القوانين، ويضعون الدساتير لإفساد المجتمع، ويوالون الكفار؟!

الحادي عشـر: عدم تصديقهم بكذبهم.
الثاني عشـر: عدم إعانتهم على ظلمهم.
الثالث عشـر: عدم الإنكار عليهم بالسيف، أو الخروج عليهم، إلَّا أن يكون كفراً بواحاً"[٧١] ❐

[٧١] - مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية: (العدد ٣٦، ص٤٨١-٤٨٣)، من الانترنت.

الصراع المسيحي - الإسلامي في الهند

من خلال كتابي

ميزان الحق.. وإظهار الحق

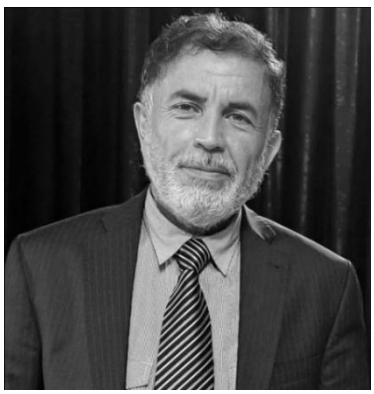

أ.د. فرست مرعي

✍ كانت مستعمرة الهند جزءاً من شبه القارة الهندية التي كانت خاضعة لسلطة القوى الاستعمارية الأوروبية خلال عصر الاكتشاف، جرت ممارسة القوة الأوروبية عن طريق الغزو والتجارة على حد سواء، وخاصة في التوابل. أدى البحث عن ثروة وازدهار الهند إلى استعمار الأمريكيتين من قبل (كريستوفر كولومبوس)، في عام ١٤٩٢م. وبعد بضع سنوات فقط، قرب نهاية القرن الخامس عشر، أصبح البحار البرتغالي (فاسكو دا غاما) أول أوروبي يعيد الروابط التجارية المباشرة مع الهند منذ العصر ـ الروماني، من خلال كونه أول من وصل إليها من خلال تطويق أفريقيا في حوالي (١٤٩٧- ١٤٩٩م)، بعد وصوله إلى (كاليكوت) - والتي كانت في ذلك الوقت واحدة من الموانئ التجارية الرئيسية في العالم الشرقي - حاصلاً على إذن للتجارة في المدينة من الزعيم الهندي (ساموتهيري راجا).

وكان القادمون الهولنديون مع قاعدتهم الرئيسية في جزيرة (سيلان)، الذين توقف توسعهم في الهند بعد هزيمتهم في معركة (كولاشيل)، خلال حرب (ترافانكور) الهولندية، من قبل (مملكة ترافانكور).

جلبت المنافسات التجارية بين القوى الأوروبية البحرية، قوى أوروبية أخرى إلى الهند. ففي أوائل القرن السابع عشر أنشأت كل من الجمهورية الهولندية وإنكلترا وفرنسا والدانمارك والنرويج مراكز تجارية في الهند، ومع تفكك الإمبراطورية المغولية في أوائل القرن الثامن عشر، ثم مع ضعف إمبراطورية ماراثا، بعد معركة بانيبات الثالثة، كانت العديد من الولايات الهندية الضعيفة، وغير المستقرة نسبياً، التي ظهرت من قبل الحكام الهنود التابعين، مكشوفةً بشكل متزايد للتلاعب بها من قبل الأوروبيين.

في أواخر القرن الثامن عشر، ناضلت بريطانيا العظمى، وفرنسا، من أجل الهيمنة جزئياً؛ من خلال الحكام الهنود بالوكالة، وأيضاً عن طريق التدخل العسكري المباشر، حيث كان من المفترض أن تقوم بتهميش النفوذ الفرنسي، بهزيمة الحاكم الهندي القوي (تيبو سلطان)، في عام ١٧٩٩م، وأعقب ذلك توسع سريع في القوة البريطانية من خلال الجزء الأكبر من شبه القارة الهندية. وفي أوائل القرن التاسع عشر، وبحلول منتصف القرن، كان البريطانيون قد اكتسبوا بالفعل سيطرة مباشرة، أو غير مباشرة، على جميع أنحاء الهند تقريباً.. وكانت الهند البريطانية - التي تتألف من الرئاسات والمقاطعات البريطانية ذات الحكم المباشر- تضم الأجزاء الأكثر اكتظاظاً بالسكان، والأجزاء الثمينة من الإمبراطورية البريطانية، وبالتالي أصبحت تعرف باسم (جوهرة التاج البريطاني).

بدأ الاستعمار البريطاني المباشر في شبه الجزيرة الهندية في عام ١٨٥٧م، بعد فشل الثورة التي قادها المسلمون ضد الاستعمار البريطاني، المتمثل بشركة الهند الشرقية.. ولم تحكم معظم الأراضي التي وقعت في منطقة الهند البريطانية بواسطة الإمبراطورية البريطانية بشكل مباشر، بل كانت ولايات أميرية مستقلة اسمياً، حكمت بواسطة الماهاراجا والراجا والثاكور والنواب الذين وقعوا معاهدات مع بريطانيا بشأن سيادتهم، وعرف هذا النظام بالحلف الإضافي.

كانت (مستعمرة عدن) جزءاً من الهند البريطانية أيضاً، منذ عام ١٨٣٩م، هذا بالإضافة إلى (ميانمار)(عرفت سابقاً باسم بورما)، منذ عام ١٨٨٦م.. وقد استقلت كلتا المستعمرتين من الإمبراطورية البريطانية في عام ١٩٣٧م.. فيما حكمت أرض الصومال البريطانية بين عامي ١٨٨٤ – ١٨٩٨م، وسنغافورة بين عامي ١٨١٩ – ١٨٦٧م، كجزء من الهند. وبالرغم

من أن (سريلانكا) تقع في شبه الجزيرة الهندية، إلا أنها حكمت مباشرة من لندن، بخلاف الهند البريطانية.

وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت في مقدمة الدول الأوروبية التي حققت وحدتها القومية في العصور الحديثة – قبل الكشوف الجغرافية –، إلا أنها لم تشارك في الكشوف الجغرافية، وما لحقها من عمليات استعمارية، إلا في وقت متأخر من نشاط البرتغال وإسبانيا، وكذلك الهولنديين، بل والفرنسيين أيضاً. ولذلك جاء وصول بريطانيا إلى آسيا، بعد أن وطأت أقدام كل من البرتغاليين والهولنديين، أرضها، وبعد أن أخذت الإمبراطورية التجارية التي أقامها البرتغاليون هناك تتهاوى وتتراجع أمام الوجود الهولندي بالمياه الآسيوية. ولهذا تقابلت إنكلترا في المياه الآسيوية وجهاً لوجه مع قوة أوروبية، كان لها دور هام في التأثير على توجهات بريطانيا بآسيا – وخصوصاً بالهند – قرابة قرن من الزمان. وبمجرد أن أصاب الوهن الوجود الهولندي بالمياه الآسيوية، أخذت بريطانيا تزداد قوة وتأثيراً على الفعاليات الآسيوية، حتى أضحت القوة الأوروبية الوحيدة التي ورثت معظم دور هولندا التجاري.

وجدير بالذكر أن هزيمة (الأرمادا) الإسبانية، التي حاولت غزو بريطانيا في سنة ١٥٨٨م- بسبب أعمال القرصنة التي كانت ترتكب من جانب البحارة الإنكليز تجاه السفن الإسبانية، التي كانت تأتي محملة بالسبائك من أملاكها بالعالم الجديد – أمام القوات البريطانية في (بحر المانش)، أعطى إنكلترا إحساساً بقدرتها البحرية، ومن ثم أخذت تشارك الدول الأوربية الصراع البحري والتجاري. فبدأت السفن الإنكليزية، خلال القرن السادس عشر، في الدخول إلى البحر الأبيض المتوسط للبحث عن السلع الشرقية والاتجار فيها. وعندما أوشك هذا القرن على الانتهاء، لم تعد تجارة البحر المتوسط تفي بحاجة السوق الإنكليزية من السلع الشرقية، ولذلك أيقن الإنكليز أنه ليست هناك وسيلة للوصول إلى ثروة الشرق إلا بمزاحمة البرتغاليين مباشرة في الأسواق الشرقية؛ ولهذا بدأت السفن الإنكليزية تهجر تدريجياً طريق البحر الأبيض المتوسط، وتتحول إلى الطريق البحري الطويل، الذي استخدمه البرتغاليون في الوصول إلى الهند.

التنصير في الهند:

في عام ١٣٢١م وصل الراهب الفرنسي الدومينيكاني (جوردانس كتالاني) إلى (مانغلور)، وأنشأ محطة تنصيرية هناك، وقد تحول على يده عدد من السكان المحليين إلى المسيحية. وينحدر كاثوليك مانغلور أساسًا من المستوطنين الغوانيين الكاثوليك، الذين هاجروا إلى

جنوب (كانارا) من (غوا)، وهي ولاية تقع شمال كانارا، بين الأعوام ١٥٦٠-١٧٦٣م، خلال فترة محاكم التفتيش والحروب البرتغالية مع (العادل شاهية)، وإمبراطورية (ماراثا). وبعد الهجرة إلى مانغلور اعتمد المسيحيون الثقافة المانغلورية المحلية، لكنها أبقت على كثير من العادات والتقاليد الغوانية.

كان كل من (جون لوري) و(ويليام ريد) من أوائل المنصرين الذين ذهبوا إلى المناطق الواقعة فيما يعرف الآن بالبنجاب الهندية، في عام ١٨٣٤م. وبما أن الكنيسة الأنكليكانية هي الكنيسة الرسمية في إنكلترا، فقد "كان لها تأثير على الهند، مع وصول البريطانيين".

واستناداً إلى عقيدة الإرسالية الكبرى، قال (جوزيف وايت)، وهو أستاذ اللغة العربية في (جامعة أكسفورد): "تم التبشير، أمام الجامعة في عام ١٧٨٤م، على واجب الترويج للرسالة العالمية التقدمية للمسيحية بين رعايا (ماهوتانا) و(جينتو) في الهند". وفي عام ١٨٨٩م أعرب رئيس وزراء بريطانيا العظمى (روبرت سيسل) عن مشاعر مشابهة، حيث قال: "ليس من واجبنا فقط، ولكن من مصلحتنا تشجيع نشر المسيحية إلى أقصى حد ممكن، على امتداد طول وعرض الهند".

أدى تعاظم شأن جيش الهند البريطاني، إلى وصول العديد من القساوسة الأنكليكان إلى الهند. وبعد تأسيس الجمعية التبشيرية التابعة لكنيسة إنكلترا، في عام ١٨١٤م، شيدت (أبرشية كلكتا) لكنيسة الهند وبورما وسيلان، وتم بناء (كاتدرائية القديس بولس)، في عام ١٨٤٧م. وبحلول عام ١٩٣٠م، كان لدى كنيسة الهند وبورما وسيلان أربعة عشر أبرشية، عبر الهند البريطانية.

وفي بداية القرن الثامن عشر، بدأ المبشرون البروتستانت العمل في جميع أنحاء الهند، مما أدى إلى إنشاء مجتمعات بروتستانتية مختلفة في جميع أنحاء شبه القارة الهندية. أولى المعاقل التبشيرية كانت في (أندرا برديش)، في شمال غرب الهند؛ حيث الغالبية الإسلامية، من قبل (جمعية لندن التبشيرية)، والتي أنشأت أول بعثة بروتستانتية في مدينة (فيساخاباتنام)، عام ١٨٠٥م. وفي وقت لاحق، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، تحول العديد من أبناء الطبقة العليا البنغاليين إلى المسيحية، خلال عصر النهضة البنغالية، تحت الحكم البريطاني.

ويعتبر البنغاليون المسيحيون أقلية نموذجية، نظراً لمساهمتهم الهامة في المجتمع والثقافة البنغالية، في القرنين الماضيين. كذلك يعتبر المجتمع المسيحي البنغالي من بين أكثر المجتمعات تقدماً في (البنغال)، ويملكون معدل الإلمام بالقراءة والكتابة الأعلى في الولاية.

كما يملك المسيحيون البنغاليون أفضل وضع اجتماعي واقتصادي، مقارنةً بالجماعات الدينية الأخرى في الولاية.

جاء المبشرون من الطوائف المسيحية الأخرى إلى الهند البريطانية كذلك؛ منهم المبشرون اللوثريون، على سبيل المثال، والذين وصلوا إلى (كلكتا) في عام ١٨٣٦م. وبحلول عام ١٨٨٠م كان هناك أكثر من ٣١٢٠٠ مسيحي لوثري، منتشرون في ١٠٥٢ قرية. وبدأ (الميثوديون) في الوصول إلى الهند في عام ١٧٨٣م، وأقاموا بعثات، مع التركيز على (التعليم، والصحة والنظافة، والكرازة- التبشير). وفي عام ١٧٩٠م، بدأ مبشرون من (جمعية لندن التبشيرية)، و(الجمعية التبشيرية المعمدانية)، بالقيام بالأعمال التبشيرية في الهند البريطانية. وفي منطقة (نيور) كان مستشفى جمعية لندن التبشيرية رائداً في تحسين نظام الصحة العامة لعلاج الأمراض، حتى قبل إجراء المحاولات المنظمة من قبل رئاسة (مدراس) الاستعمارية، مما أدى إلى خفض معدل الوفيات بشكل كبير.

ومن عام ١٨٨١ إلى عام ١٨٩١م، ازداد عدد السكان المسيحيين في البنجاب المتحدة آنذاك. وبرز المبشر البنجابي (سادهو سوندار سينغ) (١٨٨٩ - ١٩٢٩م)، وهو من مواليد (لودیانا)، تحول من الديانة السيخية إلى المسيحية، وقام بالتبشير في أنحاء الهند. وينحدر الكثير من المسيحيين البنجابيين الحاليين، من المتحولين إلى المسيحية خلال الحكم البريطاني.

في البداية، كانت التحولات إلى المسيحية قادمة من "المجتمعات العليا في البنجاب، ومن العائلات المتميزة والمرموقة"، بما في ذلك العائلات الهندوسية (من الطبقة العليا)، وكذلك الأسر المسلمة، والسيخية، التي تحولت إلى المسيحية لاحقاً. ومع ذلك تعود أصول العديد من المسيحيين البنجابيين الحاليين الآخرين إلى (الشوراس)، حيث تحول الشوراس إلى حد كبير إلى المسيحية في شمال الهند خلال الحكم البريطاني. كما كان الغالبية العظمى من المتحولين من مجتمعات السيخ في البنجاب، وبدرجة أقل من الشوراس الهندوس؛ قد دخلوا المسيحية تحت تأثير ضباط الجيش البريطاني المتحمسين، والمبشرين المسيحيين.

بعد عام ١٨٥٧م، أصبح إنشاء المدارس والمستشفيات من قبل المبشرين المسيحيين البريطانيين "سمة محورية للعمل التبشيري، والمسارات الرئيسية للتحويل الديني". وتعتبر كلية (كنيسة المسيح)، التي بنيت في عام ١٨٦٦م، وكلية (سانت ستيفن)، والتي بنيت في عام ١٨٨١م، مثالين على المؤسسات التعليمية البارزة التابعة للكنيسة، والتي تأسست خلال فترة حقبة الهند البريطانية. وداخل المؤسسات التعليمية التي أنشأت خلال فترة الحكم البر يطاني، كانت النصوص المسيحية، وخاصةً الكتاب المقدس، جزءاً من المناهج الدراسية. وخلال فترة الحكم البريطاني طور المبشرون المسيحيون أنظمة الكتابة للغات

الهندية، التي لم يكن لها في السابق أنظمة، كما وعمل المنصرون المسيحيون في الهند على زيادة معرفة القراءة والكتابة، وشاركوا في النشاط الاجتماعي، مثل مكافحة الدعارة، ومناصرة حق النساء الأرامل في الزواج مرة أخرى، ومحاولة إيقاف الزواج المبكر للنساء. وأصبحت إرسالية (زنانة)[1]، بين النساء البريطانيات، طريقة شائعة لكسب المتحولين إلى المسيحية.

وعلى أية حال، فقد انتشرت المسيحية في أجزاء أخرى من الهند، في ظل الأنظمة الاستعمارية البرتغالية والهولندية والدانماركية والفرنسية، والأهم من ذلك البريطانية، من أوائل القرن السابع عشر حتى وقت استقلال الهند في عام ١٩٤٧م. وتأثرت الثقافة المسيحية، في هذه الأراضي الاستعمارية، بالدين وثقافة حكامهم. وبعد استقلال الهند تبوأ عدد من المسيحيين مناصب حساسة؛ منها (سونيا غاندي)، رئيسة حزب (المؤتمر الوطني الهندي)، وغيرها. وهناك نخبة مسيحية تمتع بمراكز رفيعة في الحكومة المركزية، والجيش، والشرطة، والتربية، والتعليم، والجامعات، والأعمال الحرة، وغيرها. وتملك الكنائس الهندية العديد من المؤسسات، التي تقدم خدمات للمجتمع الهندي، من ضمنها: مدارس، ومستشفيات، وجامعات، وكليات، ودور أيتام ومشردين، وغيرها.

[1]- زنانة: انت بعثات زينانا عبارة عن برامج توعية تم إنشاؤها في الهند البريطانية بهدف تحويل النساء إلى المسيحية. منذ منتصف القرن التاسع عشر، أرسلوا مبشرين إناث إلى منازل النساء الهنديات، بما في ذلك المناطق الخاصة بالمنازل - المعروفة باسم الزنانة - التي لا يُسمح للزوار الذكور برؤيتها. توسعت هذه الإرساليات تدريجياً من العمل الإنجيلي البحت إلى تقديم الخدمات الطبية والتعليمية. لا تزال المستشفيات والمدارس التي أنشأتها هذه البعثات نشطة، مما يجعل بعثات الزنانة جزءًا مهمًا من تاريخ المسيحية. وتم فصل النساء في الهند في هذا الوقت بموجب نظام البردا، حيث تم حصرهن في أماكن مخصصة للنساء تُعرف باسم الزنانة، والتي كان يُمنع دخول الرجال غير المرتبطين بها. تألفت بعثات الزنانة من مبشّرات يمكنهن زيارة النساء الهنديات في منازلهن بهدف تحويلهن إلى المسيحية. وقد افتتحت جمعية التبشير المعمدان إحدى بعثاتها في الهند في منتصف القرن ١٩. بناءً على اقتراح قدّمه توماس سميث في عام ١٨٤٠م، وبدأت المهمّة في عام ١٨٥٤م، تحت إشراف جون فورديس. تُعرف هانا كاثرين مولينز بأنها واحدة من أكثر عمال الزنانة كفاءة في الهند، وفازت بلقب "رسول الزنانات". وفي عام ١٨٥٦ م، أنشأت السيدة مولينز مدرسة صغيرة في بهاوانيبور تضم ثلاثة وعشرين طالبًا تتراوح أعمارهم بين ثمانية وعشرين عاماً. ثم تأسست مدرسة كلكتا للمعلمين في العام نفسه، لتدريب النساء الأصليات على عمل الزنانة. https://stringfixer.com/ar/Zenana_missions .

المُنَّصر كارل غوتليب فاندر:

ولد (فاندر) عام ١٨٠٣م، في (يبـيلجن/ ساكسـونيا - ألمانيـا)؛ حيـث كـان والـداه عضـوين قياديين في جماعة الورع المحلية. وفي الثانية عشرة من عمره دخل فاندر المدرسة اللاتينيـة، وفي سن السادسة عشرة التحق بأكاديمية مورافيا في (شتوتغارت)، وتأثر في طفولته بالقراءة عن مهمة جامعة بازل[٢] في التبشـير، وانتهـى بـه الأمـر إلى أن يصـبح مبشـراً. وكانـت تلـك الحركة ترى في نفسها المجتمع الروحي، فهي طائفة في المجتمع المسيحي، تكرست جهودها لتوحيد المسيحيين الورعين؛ سواء أكانوا لوثريين أو مورافيين، للالتزام بمهمة التبشير الملائكي. وكانت الفكرة المسيطرة آنذاك للورع، هي الحاجة إلى التوبة الفردية، والتجديد، بـدءاً مـن وعي المرء بخطيئة نفسه، وبتلك العملية - فقط - من الاكتشاف الروحـي يمكـن أن يـؤدي ذلك إلى الخلاص.

كان الكتاب المقدس هـو المصـدر الوحيـد للسـلطة، وشـكلت دراسـته اللـوح المركـزي في المناهج الدراسية في كلية التدريب في (بازل) التي تأسست عام ١٨١٥م. كانت خارج حدود الطلاب في كلية التبشير، حيث سـبقتها فـترة لغـة العصـمة اللفظيـة، المؤسسـة - في القـرن التاسع عشر -، ولكنها كانت نظرة التقاة للكتـاب المقـدس - في أنـه معصـوم ودليـل وحـي للتعليم المسيحي والحياة والعمل - ولم يكن لمجادلة الفلاسفة واللاهـوتيين ضـد مـا يرونـه؛ لأن الايمان الروحي أهم من العقل والمنطق.

عرض (فاندر) نفسه على المجتمع في سن السابعة عشرة من العمر، ودخـل (كليـة بـازل) عام ١٨٢٠م، وهذا إلى جانب دراسـة الكتـاب المقـدس، مـع التركيـز عـلى اللغـات الأصـلية، وتعلم اللغة العربية والقرآن، لأن المبشرين الأوائـل الـذين يعملـون في المنـاطق الإسـلامية، حددوا مهمة التبشير بأنها أولى الأولويات.

كان فاندر في عام ١٧٧٩ - ١٨٣٨م يأخـذ محـاضرات حـول تعلـم القـرآن واللغـة العربيـة خمس ساعات في الأسبوع، كذلك تلقى الطلاب في بـازل دراسـات في تعلـم كيفيـة التجـارة اليدوية بمهارة، وأصبح الاستقلال المالي سـمة مميـزة لكثـير مـن الطوائـف المسـيحية، التـي ترعاهم بازل. وغادر فاندر بازل مستحوذاً بعض المعارف الإسلامية – والتي تقوم في الأصـل

[٢]- جامعة بازل: أسست عام ١٤٦٠م وتعد من أقدم الجامعات في سويسرا، وفي عام ١٨٩٧م ترأس هيرتزل اليهودي النمساوي أول مؤتمر صهيوني في مدينة بازل، وكان من أهم قراراته وضع برنامج الحركة الصهيونية للاستيلاء على فلسطين، ووضع أسس المنظمة الصهيونية العالمية. الموسوعة العربية العالمية السعودية.

على القرآن – واختلف عن معاصريه في أنها – ربما – كانت أكثر دقة ممن اعتمد فقط على المصادر الأوروبية.

التبشير في أرمينيا:

في عام ١٨٢٥م، وبعد استكمال (فاندر) لمساره، ارتسم في أوامر اللوثرية ومعتقداتها، والمتمركزة في (شوشة) - عاصمة إقليم كاراباخ/ في أرمينيا الروسية - حيث تركزت بعض المراكز هناك لإصلاح الكنيسة الأرثوذكسية الأرمينية، والتي يعتقد بفسادها، وبالتالي تخليص ثلث السكان المحليين الذين كانوا من مسيحيي الأرمن.

على أن (فا ندر) تحول انتباهه سريعاً إلى المسلمين، الذين يشكلون ثلثي عدد السكان المحليين، وأعرب عن اعتقاده بأنه إذا قرأ المسلمون العهد الجديد باللغة الفارسية - وهي اللغة التي يفضلونها- فإنهم سيعترفون - تلقائياً – بالحقيقة، وينبذون الإسلام كما ينبذ المرء خطيئته. ولإتقان اللغة الفارسية، قام فاندر بعدة رحلات إلى إيران، وقضى عاماً في بغداد.

بدأ (فاندر) في كتابة أعمال (اعتذار المسيحي)، وقال إنه يعتقد أن إقناع المسلمين بالتفوق المسيحي لا يوصف! وقال إنه يدرك جيداً أن هذا النوع من الاعتذار، سواء أكان من جانب الإسلام إلى المسيحية، أو من المسيحيين إلى المسلمين، كان له تاريخ طويل، ولكنه رأى أن كتبه ستشكل آفاقاً جديدة، من حيث الدقة العلمية، ربما أكبر من حصر اللغة والثقافة في مجرد كلمات أو مصطلحات عند القراء المسلمين، كما ذكر أنه نجح في هذا المسار، وهو يعتقد أن عدداً غير قليل من القراء المسلمين تداولوا كتابه، ومنهم من ارتد عن دينه كذلك.

تعرف فاندر على آراء (هنري مارتين) (١٧٨١ – ١٨١٢م) المثيرة للجدل، على الرغم من أن أي تأثير يظل مدرجاً في التفاصيل، كما ظهرت المخطوطة الألمانية لكتابه (ميزان الحق)، لأول مرة، عام ١٨٢٩ م. وخصص (فاندر) جزءاً كبيراً من عمله - في وقت لاحق - لتنقيح وترجمة كتابه الميزان، بالإضافة إلى كتابين تاليين، وهما: مفتاح الأسرار، وطريق الحياة إلى لغات أخرى. وعلق (W. A رايس)؛ بقوله: كان فاندر يبلغ الأربعين من العمر ، حين أجاد في عمله بشكل مثير للجدل.

في عام ١٨٣١م ظهر (ميزان الحق) بالأرمينية، وفي عام ١٨٣٥م ظهر بالفارسية. وفي عام ١٨٣٣ م تلقى (فاندر) إذناً من بعثة (بازل) للحصول على إجازة - لبعض الوقت - لغرض الزواج، وطبقاً - ربما - لتقاليد المجتمع، اتفقت رغبته مع عادات وتقاليد المجتمع - آنذاك

- في الزواج من روسية، وعدم الزواج من أجنبية. فتم السماح له - بادئ الأمر - بالذهاب إلى روسيا.

ومن جهته، قام (فاندر) بعمل تبشيري في كاراباخ والأراضي المجاورة، ما بين سنتي ١٨٢٥ و١٨٣٦م. ومن بين العديد من الإرساليات التبشيرية، ركز بعض المبشرين على إصلاح الكنيسة الأرثوذكسية الأرمينية، التي اعتقدوا أنها فاسدة ومفلسة - ثلث السكان المحليين من المسيحيين الأرمن - ، حيث كانت هذه المقاطعة المنشأة حديثًا قد هاجر إليها الأرمن من بلاد فارس (إيران الحالية).

ركز (فاندر)، نيابة عن بعثة بازل، على التبشير وإيصال الإنجيل إلى المسلمين المحليين - كان حوالي ثلثي السكان المحليين من المسلمين-. وكان (فاندر) يعتقد أنه إذا قرأ المسلمون العهد الجديد مترجمًا إلى اللغة الفارسية، لغتهم المفضلة، فسوف يتخلون تلقائيًا عن الإسلام، ويعترفون بتفوقه وحقيقته؛ لهذا قام فاندر بالعديد من الرحلات إلى إيران، وقضى أيضًا عامًا في بغداد في العراق، لإتقان اللغة الفارسية؛ من عام ١٨٢٥ إلى ١٨٢٩م. بعدها انتقل إلى القوقاز.

وفي عام ١٨٣٥م حظرت روسيا جميع العمليات التبشيرية للبروتستانت في (شوشة)، عاصمة مقاطعة كاراباخ في القوقاز، باستثناء عمليات الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية؛ وبالتالي أجبر (فاندر) على مغادرة (شوشة)، ثم عاد إليها عام ١٨٣٦م، بعد أن ذهب إلى استنبول عام ١٨٣٥م، لكنه غادر إلى كلكتا بالهند عام ١٨٣٧م.

عمل فاندر في إقليم أغرة بشمال الهند (١٨٤١-١٨٥٥م):

مع انفتاح البرلمان البريطاني على الأنشطة التبشيرية البروتستانتية في عام ١٨١٣م في الهند، بدأ العديد من المبشرين العمل في الهند، التي كانت تحت سيطرة شركة الهند الشرقية. ففي عام ١٨١٤م تم تكريس أول أسقف إنكليكاني سرًا في (كلكتا)، ومنذ عام ١٨٣٢م سُمح أيضًا للمبشرين غير البريطانيين بالعمل في شبه القارة الهندية. كانت مدينة (أغرة) مشهورة بالتعليم والثقافة الإسلامية، وقد حولتها الحكومة البريطانية إلى مركز إداري لمقاطعة شمال غرب الهند. أصبحت كل من أغرة و لكهنؤ موطنًا للمبشرين الذين شاركوا في حوار بين الأديان مع العلماء المسلمين المحليين، ونشروا كتبًا جدلية ضد العقيدة الإسلامية.

وكانت جمعية التبشير الكنسية قد جندت (فاندر)، وأرسلته إلى (أغرة) لتنصير المسلمين، وأيضًا لمساعدة الزملاء المبشرين الألمان العاملين، الذين تم نفيهم مثل فاندر من آسيا

الوسطى بسبب حظر القيصر الروسي لأي نشاط تبشيري آخر. وصل (فاندر) إلى (كلكتا) في ١ أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٨٣٨م، ولدى وصوله كان لديه انطباع بأن المسلمين في الهند على وشك التحول إلى المسيحية، وبناءً على ذلك قام بترجمة بعض الكتب عن الإسلام والمسيحية - التي سبق أن كتبها خلال السنوات السابقة - إلى الأوردية. كان (ميزان الحق) أحد هذه الكتب التي تم استخدامها كنقطة انطلاق في (أغرة)، وقد تُرجم إلى عدة لغات أخرى في العالم الإسلامي أيضًا. وفي عام ١٨٥٤م، انخرط (فاندر) في مناظرة عامة شهيرة مع كبار العلماء المسلمين في (أغرة).

ولئن كانت عقائد المسلمين سبباً دافعاً للشيخ (رحمت الله)، فإنّ جهود المنصرين خلال ثلاثة قرون - برئاسة (فاندر) - وكتبهم، وهجومهم على الإسلام، في ظرف تسلط فيه الإنكليز على سائر أرجاء الهند، كان السبب المباشر والهام الذي جعل الشيخ يطلب مناظرة مؤلفه؛ بعد صدور كتاب (ميزان الحق). حيث توافرت في الكتاب ومؤلفه الأسباب الدافعة الآتية:

١- إن مؤلف هذا الكتاب هو رئيس المنصرين الذي كان معتداً بنفسه، وكثير الإدلال بكتابه، وقد ملأ الغرور والكبرياء نفسه، وكثر نشاطه، حتى طارت شهرته وذاع صيته، وصارت الأموال تُرسل إليه من مؤسسات عديدة؛ حكومية وأهلية، تقديراً لجهوده ودعماً لموقفه.

٢- تلقّي المنصّرين والقسس لهذا الكتاب بالقبول والتقدير، لشموله جميع الشبه والافتراءات، وكل ما يمكن أن يعترض به المنصرون والمستشرقون على دين الإسلام، بالإضافة لشموله جميع أوجه الرد والدفاع عن العقائد النصرانية، بحيث إنه يعد كتاباً جامعاً في موضوعه؛ لأنه حصيلة جهود قرون طوال في الكيد للإسلام[٣].

٣- اعتماد كل الكتاب والطاعنين في الإسلام على هذا الكتاب بعد صدوره، واعتباره المرجع الرئيسي لهم. وكل الكتب المعادية للإسلام التي جاءت بعده، كانت شرحاً وتطويلاً للكتاب، أو اختصاراً له، فكتاب (الهداية)؛ الواقع في أربعة مجلدات لمؤلف مجهول، ما هو إلا تطويل لـ(ميزان الحق). وكتاب (تذييل مقال في الإسلام)، لمؤلف مجهول ــ سمّى نفسه هاشماً العربي ـ، ما هو إلا اختصار له.

[٣]- المناظرة الكبرى بين العلامة الشيخ رحمة الله والدكتور القسيس فاندر، تحقيق وتعليق: محمد عبدالقادر خليل، (مكة: مطابع الصف، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ص١١١.

يقول الباحث المصري عبد الرحمن الجزيري، بهذا الصدد: "من أجل ذلك نظرت في كتب المبشرين القديمة والحديثة، فوجدت أنها ترجع في معظمها إلى كتابين؛ أحدهما: كتاب (ميزان الحق)... ولعل هذا الكتاب هو الينبوع الذي منه يستقي المبشرون مطاعنهم في الإسلام، وثانيهما كتاب (تذييل مقال في الإسلام)... ولكنه لم يخرج عن مطاعن (ميزان الحق) قيد شعرة، فـ(ميزان الحق) هو عمدتهم الذي يعتمدون عليه في مطاعنهم، وصاحبه هو زعيمهم الأول الذي فتح لهم طريق الطعن على الإسلام والمسلمين بجرأة مدهشة"[٤].

٤- وكتاب (ميزان الحق) نفذت له ثلاث طبعات متتالية في الهند؛ الأولى القديمة في سنتي ١٨٣٣م و ١٨٤٣م بالإنكليزية، والثانية بالفارسية سنة ١٨٤٩م، والثالثة بالأردية سنة ١٨٥٠ م، وتُرجم فيما بعد للتركية والعربية، حيث ظهرت الطبعة العربية الثانية في سنة ١٩٢٣م، التي نقحها وأضاف عليها نتائج الاكتشافات الحديثة المنصّر الإنكليزي (وليام سانت كلير تيسدال)، مؤلف كتاب (مصادر الإسلام)، مما يظهر سرعة انتشاره، ومدى خطورته، ويدل على أن كل منصّر عندما يُفْحم من قبل علماء المسلمين، فإن أخلافه يحاولون بشتى السبل تكملة المشوار عن طريق القول بـ(نتائج الاكتشافات الحديثة).

٥- زعم (فاندر) أن كتابه (ميزان الحق) لا تُمكن معارضته، وأن علماء المسلمين عاجزون عن الرد على ما فيه من حقائق، مستدلاً بأنه تم توزيع الكتاب بطبعاته الثلاث في جميع أرجاء الهند، بحيث لا يشك في وصوله إلى أيدي علماء المسلمين، وقراءتهم ما فيه، ومع ذلك لم يستطع أحد الرد عليه، وما زال يتحداهم أن يردوا إن استطاعوا.

٦- تنسيق أبواب الكتاب، وفصوله، بصورة تـ وهم القارىء أن المقدمات توصل حتماً إلى النتائج المقررة، وأن الكتاب يؤلف وحدة متكاملة للربط الظاهري بين السابق واللاحق. فبعد أن ذكر في الباب الأول عدم نسخ كتب العهدين وعدم تحريفهما، وأن القرآن نفسه يؤيد كونهما كلام الله الذي لا ينسخ ولا يحرف! ذكر في الباب الثاني أهم تعاليم التوراة والإنجيل، وكيفية الإيمان بالمسيح، والفوز بالخلاص، وكيفية انتشار دينه. ثم زعم في الباب الثالث أن خبر رسالة محمد ليس مكتوباً في التوراة، ولا في الإنجيل، وأن أعماله لا تدل على نبوته، وأن بلاغة القرآن ليست دليلاً على كونه كلام الله. ثم ذكر كيفية انتشار دين الإسلام بالسيف والقهر. وعليه، فالقرآن - في نظره - ليس كلام الله، وليس بناسخ لكتب العهدين.

[٤]- عبدالرحمن محمد عوض الجزيري، أدلة اليقين (شبرا: مطبعة الإرشاد،١٣٥٣هـ/١٩٣٤م)، ص٨.

٧- تسمية هذا الكتاب بـ(ميزان الحق)، مما يوهم القارىء أن مؤلفه قد وزن جميع الأمور، ووازن بين العقائد، وبحث في علم مقارنة الأديان بحثاً علمياً نزيهاً، بطرقه الصحيحة، فوجد أن الحق هو ما دوّنه في هذا الكتاب. لذلك، فإن اسم هذا الكتاب وحده يشكل خطورة بالغة على المبتدئين، وأنصاف المتعلمين.

٨- أما بالنسبة للعلماء، فإن هذا الكتاب جدير بهذه التسمية، لأن القارىء المتيقظ يظهر له - بفضل الله ـ أن كل دليل أتى به صاحب ميزان الحق لإبطال الإسلام، وتأييد عقائد النصرانية: كان في الواقع دليلاً على صحة دين الإسلام وزيف ما عداه، فقتل (فاندر) بسيف (جليات)[٥]: "فإذا كان لاسم هذا الكتاب مدلول صادق، فذلك لأنه قد أيد الإسلام من حيث يريد مؤلفه أن يطعن به عليه، وأثبت تحريف التوراة والإنجيل من حيث يريد إثبات سلامتهما من التحريف، وعمل على هدم دينه من أساسه من حيث يريد بناءه"[٦]، فكان يحتج بما هو حجة عليه، يعيب القرآن بما هو أجدر أن يعاب به التوراة والإنجيل المحرفان، ولكن التعصب أعماه.

٩- الهجوم الشديد على دين الإسلام، والقرآن الكريم، والرسول ﷺ، مع عدم تورّعه عن استعمال السب والشتم للمخالفين، وإذا صدرت من المخالف كلمة بسيطة في حقه، أو حق علماء مذهبه، فإنه يجعلها كبيرة، ويشنّع بها على علماء المسلمين، ويستقبح ذلك منهم. وقد كان في ردوده على الشيخ هادي علي ـ مؤلف كتاب (كشف الأستار للرد على مفتاح الأسرار) لفاندر ـ لا يتورع عن نسبته إلى الكفر والعمى والتعصب والتكبر وسوء الفهم. كما قال في حق الشيخ محمد آل حسن ـ مؤلف كتاب (الاستفسار للرد على ميزان الحق) ـ ونسبه إلى الكفر، وعدم المبالاة، وأن فهمه أنقص من فهم الوثني، وأن الإنصاف والإيمان غائبان عن قلبه. كما نسب الدكتور محمد وزير خان إلى الدهريين، بينما غضب غضباً شديداً من نسبة الشيخ (رحمت الله) لفظ الفرار إليه، عندما حاول التهرب من المناظرة. وأما ما نسبه إلى القرآن الكريم، والنبي ﷺ، فيعظم ذكره، وينبو القلم عن تدوينه. ولا نستغرب ذلك منه في حق نبينا ﷺ، وهو ممن ينسبون السكر والزنا والكفر إلى الأنبياء، ويشتمون الله بنسبة الولد إليه، ووصفه بصفات البشر، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

---

[٥]- جليات: المقصود به جالوت زعيم الكنعانيين الذي قتله نبي الله داود - عليه السلام - بسيف، فأصبح مضرباً للمثل كما ورد في القرآن الكريم – سورة البقرة.

[٦]- عبد الرحمن الجزيري، مرجع سابق، ص٩.

١٠- خطورة هذا الكتاب على المسلمين عامة، وفي الهند خاصة، أكثر من خطورة تدريس التوراة والإنجيل في المدارس والكليات. وقد عدّ (م. هوري) زعزعة (فاندر) لعقيدة المسلمين في الهند، بترجمته كتابه (ميزان الحق) إلى اللغتين الفارسية والأردية، أعظمَ من عمل المبشر القس (هنري مارتين)، الذي ترجم الإنجيل للفارسية والأوردية. وقد ذكر إبراهيم خليل أحمد – الدكتور والقسيس المصري الذي أسلم – أخطرَ أربعة كتب للمنصرين، وهي:

أ- ميزان الحق، للدكتور فاندر.

ب- كتاب الهداية؛ ويقع في أربعة أجزاء، وهو هجوم مريع على الإسلام، وعلى القرآن الكريم، وعلى نبي الإسلام، يعتقد أنه للمنصر الأمريكي المشهور (صموئيل زويمر) (١٨٦٧ – ١٩٥٢م).

ج- مقالة في الإسلام، للمستشرق الدكتور (جورج سال) (١٦٩٧- ١٧٣٦م)، وقد نشر من قبل المطبعة الإنكليزية الأميركانية في مصر سنة١٩١٤م. وترجم من قبل شخص مجهول، يدعى هاشم العربي، ويبدو أنه هو مؤلف الكتاب، حسب ما ذكر الجزيري في مقدمة كتابه (أدلة اليقين في الرد على مطاعن المستشرقين)[٧].

د- كتاب مصادر الإسلام، للدكتور (وليام سانت كلير تيسدال)[٨].

---

[٧]- عبدالرحمن الجزيري، أدلة اليقين في الرد على مطاعن المستشرقين (باريس: دار أسمار،٢٠٠٧م)، ص٨.

[٨]- وليام سانت كلير تيسدال: ولد في انكلترا سنة ١٨٥٩ م، أصبح كاهنًا أنكليكانيًا ولغويًا ومؤرخًا، شغل منصب سكرتير البعثة التبشيرية لكنيسة إنكلترا في مدينة أصفهان في بلاد فارس (= ايران الحالية) في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كان تيسدال يجيد العديد من لغات الشعوب الإسلامية، الفارسية والاوردية والعربية، وقضى الكثير من الوقت في البحث عن مصادر الإسلام والقرآن باللغات الأصلية. كما كتب قواعد النحو للفارسية والهندوستانية والبنجابية والغوجاراتية. وبصفته باحثًا مبكرًا في قواعد اللغة الغوجاراتية، حدد ثلاثة أنواع رئيسة من الغوجاراتية: اللهجة "الهندوسية" القياسية، واللهجة "الفارسية" واللهجة "المسلمة"، وقضى الكثير من الوقت في البحث عن مصادر الإسلام والقرآن باللغات الأصلية. ومن الواضح أن تسدال يصور على أنه تصادمي يديم الجدل المسيحي التقليدي المناهض للمسلمين. ويتهم تيسدال النبي محمد باختراع الوحي وفقًا لما يعتقد، وكان تيسدال واحدًا من ثلاثة عشر مؤلفًا تم تجميع مقالاتهم فيما سمي أصول القرآن: مقالات كلاسيكية في كتاب الإسلام المقدس عام ١٩٩٨م، والكتاب من تحرير ابن الوراق، وهو شخص باكستاني تنصر وهاجم الاسلام بضراوة اعتماداً على كتابات المنصرين والمستشرقين. وقد انتقد أستاذ الدراسات الدينية (هربرت بيرج) إدراج عمل تيسدال على أنه "ليس مقالًا علميا ". وخلص بيرج أيضاً إلى أنه "يبدو أن المنصر ابن وراق قد أدرج بعض المقالات ليس على أساس قيمتها العلمية أو وضعها ككلاسيكيات، بل على أساس عدائها

وجعل أولها، وأكثرها خطورة، كتاب (ميزان الحق)[٩].

١١ـ ردة الفعل العنيفة التي حصلت عند المسلمين في الهند إثر صدور هذا الكتاب، لانتشاره السريع، والسكوت عن الرد عليه فترة من الزمن، بحيث خيف على ضعاف النفوس من الردة، لما فيه من مدح العقائد النصرانية، وتأييدها، والنيل من عقائد الإسلام، ونقدها. وقد دب الملل إلى نفوس المسلمين، وثارت ثائرتهم، حمية لدينهم وعقيدتهم، وانتظروا من يعلن جرأته في الرد على افتراءات زعيم المنصرين، التي أحدثت أثراً سيئاً في نفوس المسلمين، حتى تحير كثيرون منهم، وقالوا للشيخ بأنهم إذا سمعوا لـ(فاندر) ظنوا أن النصرانية حق، وإذا سمعوا لعالم مسلم ظنوا أن الإسلام حق، وأنهم يحبون المناظرة العلنية لرفع الإشكال وإزالة الشبهات. بل إن (رام شندر) الهندوسي، الذي كان صديقاً لفاندر، وللشيخ رحمت الله، وكان محباً لفاندر وكتبه، تجرأ أن يطلب من الشيخ رحمت الله زيارة فاندر، لعلّه يهتدي إلى النصرانية"[١٠].

وعلى العموم، فإن المنصرين في الهند قد استطار شرهم، وكثفوا حملاتهم التنصيرية، وقد استفحل أمر (فاندر)، ورأى أن الجو قد خلا له، فازداد جرأة و تحدياً. ورأى الشيخ (رحمت الله) أنه لا سبيل إلى الحد من نشاط هؤلاء القسس ـ وفي مقدمتهم، وعلى رأسهم القس فاندر ـ وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين، ومقاومة (مركب النقص) فيهم، إلا مناظرة (فاندر) في مجمع حافل؛ يحضره المسلمون، وعامة المواطنين، والحكام الأوروبيون، والنصارى، والمتنصّرون.. وكان (فاندر) كثير الإدلال بكتابه (ميزان الحق)، فخوراً به، ويرى أنه ليس من السهل معارضته ونقضه من علماء المسلمين.

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الحاجة ماسة للرد على هذا القسيس، مما حفز الشيخ (رحمت الله) للدعوة إلى مناظرته علناً، حتى يعرّيه، ويفقده كل هذا الأثر في الأوساط الهندية.

للإسلام. ولكن على القارئ أن يدرك أن هذه المجموعة لا تمثل بالكامل الدراسات الكلاسيكية حول القرآن ". توفي تيسدال عام ١٩٢٨م. https://www.turess.com/alfajrnews/13384

[٩]- خليل إبراهيم أحمد، المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي، (القاهرة: دار الوعي العربي، د، م)، ص٨٥.

[١٠]- المناظرة الكبرى بين العلامة الشيخ رحمة الله والدكتور القسيس فاندر، ص؛ رحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي، إظهار الحق، دراسة وتحقيق وتعليق: محمد أحمد محمد عبدالقادر خليل ملكاوي (الرياض: المؤسسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م)، ج١، ص٣٣ – ٣٤.

رحمت الله الكيرانوي العثماني الهندي:

هو محمد رحمت الله بن خليل الله، ويعرف بخليل الرحمن الكيرواني العثماني؛ وينتهي نسبه عند الجد الرابع والثلاثين إلى ذي النورين عثمان بن عفان - رضي الله عنه -. ولد بحي (دربارکلان)، في قرية (كَيرانة)، بمحافظة (مظفر)، من توابع (دلهي) عاصمة الهند، سنة ١٨١٨م. وقد اشتهر أفراد أسرته بالعلم، والطب، والمناصب العالية. أتقن اللغات الإسلامية الثلاث: العربية، والفارسية، والأردية، وقرأ كتب الشريعة واللغة على يد آبائه. وأسس مدرسة شرعية في (كيرانة)، تخرج منها كبار المدرسين والمؤلفين، ومؤسسي المدارس - في أرجاء الهند -، كما أسس مراكز لتدريب الدعاة على مقاومة التنصير.

ولد في عائلة شهيرة، وأسـرة كريمة، اشتهر أفرادها في تلك المقاطعة أمراء ورؤساء وحكاماً وعلماء وأطباء. وكان أول من قدم إلى الهند من آل سيدنا عثمان، هو الشيخ عبد الرحمن الكاذروني، الجد الأعلى للشيخ، حيث كان قاضياً شرعياً للجيوش الإسلامية التي فتحت الهند على يد السلطان محمود الغزنوي، فاستقر الشيخ عبد الرحمن الكاذروني في بلدة (باني بت)، وتوفي فيها، وقبره معروف حتى الآن. وكان الشيخ (رحمت الله) من ذرية هذا المجاهد الغازي- رحمه الله -، ولذا يطلق على الشيخ لقب (العثماني).

نشأ (رحمت الله) في أسرة واسعة الثراء والجاه. حفظ القرآن الكريم في الثانية عشرة من عمره، وتتلمذ في مدينة العلم والحضارة (لكهنؤ)، على يد المفتي سعد الله المرادآبادي. بدأ في حفظ القرآن الكريم، والمبادئ، من الكتب المتداولة في بلدته، على يد كبار أفراد أسرته، المشهورين بالعلم والفضل. ثم شد رحله إلى (دلهي)، عاصمة العلوم والفنون، والتحق بإحدى المدارس الدينية، ونال الحظ الأوفر من أمهات العلوم والكتب. ثم أخذه العلم والمعرفة إلى بلدة (لكنو) - مدينة الثقافة والحضارة - فأخذ عن عدة علماء أفاضل بها، وتخصص في آداب اللغة الفارسية، وعلوم الطب. ولما فرغ من تحصيل العلوم الدينية والرياضية، رجع إلى مسقط رأسه (كيرانه)، وأسس مدرسة، قام بالتدريس فيها مدة وجيزة. لازمه عدد من تلاميذه مدة طويلة، وأصبحوا من العلماء العالين في الهند، منهم: العلامة الشيخ عبد الوهاب، مؤسس أول مدرسة إسلامية بمدينة (مدراس) بالهند، عرفت وسميت بـ(الباقيات الصالحات)، والتي تعتبر اليوم أكبر كلية في مدينة (مدراس) بجنوبي الهند.

اشترك (رحمت الله) في الثورة على الإنجليز عام ١٨٥٧م، ولما فشلت الثورة، وأخمدها الإنكليز بوحشية بالغة، ونصبوا أعواد المشانق للعلماء، وجعلوا مكافأة لمن يدلهم عليه، ولكنه انتصر عليهم في المعركة الدينية، وأسهم في الجهاد ضدهم، وقد اختفى مدة في قرية صغيرة، ولما دخلت الجيوش الإنكليزية في هذه القرية، أخذ المنجل ودخل في مزرعة

وتشاغل بحصاد الحقل، كفلاح صغير مغمور، واستطاع بذلك أن ينجو بنفسه، ويصل إلى (سورت) ميناء الهند المطل على المحيط الهندي وبحر العرب، وخرج خفية وسافر بحراً إلى اليمن، ومنها براً إلى الديار المقدسة مكة المكرمة سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦٢م يعني بعد الثورة بخمس سنوات، وصودرت أملاكه التي كانت كبيرة وواسعة، وبيعت بالمزاد العلني، وكان ذلك في أيام خلافة السلطان العثماني عبد العزيز خان(١٢٤٥-١٢٧٧هـ/١٨٣٠-١٨٧٦م) وإمارة الشريف عبد الله بن محمد بن عبد المعين بن عون(١٢٧٥-١٢٩٤هـ /١٨٨٥ - ١٢٧٧م)على الحجاز. ولما عرفت منزلته في مكة، وبلاؤه في الدفاع عن الإسلام، سمح له بالتدريس في الحرم المكي، وتوثقت بينه وبين عالم مكة الجليل مفتي الشافعية الشيخ أحمد بن زيني دحلان(١٢٣٢ - ١٣٠٤ هـ/١٨١٦ -١٨٨٦م) الصداقة، وهو الذي كان له الفضل في التعريف به عند شريف وعلماء مكة وأعيانها، وسجل اسمه في السجل الرسمي لعلماء الحرم عام ١٨٨٥م.

أسس أول مدرسة في مكة والحجاز، عام ١٨٩١م، وسميت باسم (المدرسة الصولتية)، وبقي الشيخ مديراً ومدرساً فيها إلى وفاته عام ١٨٩١م، ودفن في مقبرة مكة - رحمه الله -.

بعد تأليف إظهار الحق:

هاجر الشيخ (رحمت الله) إلى مكة المكرمة، واشتغل بالتدريس في الحرم الشريف، وبداره، ولم يكن التعليم في أرض الحرم مرتَّباً منظماً، بل كان مقتصراً على حلقات العلماء، بدون تنظيم ولا منهج، ومن غير شك كانت الخلافة العثمانية تبذل أموالاً طائلة لعلماء المسجد الحرام ولطلاب العلم، ولكن لم تكن هناك مدرسة نظامية تعتني بأبناء مكة والمهاجرين من حيث التعليم والتربية، وكان شديد التألم من رداءة حالة التعليم، وضياع أبناء المسلمين، فقام - اعتماداً على الله - بفتح وتأسيس أول مدرسة، في ربيع الأول عام ١٢٨٥هـ/١٨٩١م، على نفقته الخاصة، بمحلة الشامية، بدار أمراء الهند المهاجرين، المعروفة بدار السقيفة، عند مطلع جبل هندي بالشامية، عرفت بالمدرسة الهندية أو مدرسة الشيخ رحمت الله. ونظراً لضيق المكان لم يستطع الشيخ تنظيم المدرسة، كما كان يتمناها ويريدها، إلى أن قدمت إحدى أميرات الهند تؤدِّي فريضة الحج عام ١٢٨٩هـ.. وكانت تنوي بناء رباط في مكة بعد الحج، كما هي عادة أهل الخير في أراضي الحرمين الشريفين، وكانت على علم تام بشهرة الشيخ رحمت الله وجهاده في الهند، فاستشارته في إقامة عمارة للفقراء، فأخبرها الشيخ أن مكة المكرمة ليست بها مدرسة تتكفّل بتعليم أبناء المسلمين، وأخبرها عن مدرسته، فوافقت على إنشاء مدرسة، وفوّضت الأمر إلى الشيخ، وسبحان الله

مسبب الأسباب؛ فقد اشترت الأرض في حي الخندريسة بمحلة الباب، ووضع الشيخ رحمت الله بيده المباركة حجر الأساس لأول مدرسة دينية نظامية تحت ظل البيت العتيق، صباح يوم الأربعاء الموافق ١٥ شعبان عام ١٢٩٠هـ/١٨٩١م.

شهدت هذه البلدة المقدسة ميلاد أول مدرسة ببدء الدراسة بالنظام الحديث فيها، في احتفال كبير حضره جميع علماء وأعيان مكة وطلاب العلم، بفضل هذه المحسنة، وتخليداً لذكرها فقد أطلق الشيخ اسم: الصولتية على المدرسة، نسبة إلى السيدة (صولت النساء)، ولم ينسبها إلى نفسه، فأصبحت هذه المدرسة مركزاً للطلاب من كل حدب، ومنبعاً للعلوم والمعرفة، وهي أول مدرسة نظامية على الإطلاق، وبالاتفاق، في الجزيرة العربية، تأسست على يد ذلك المجاهد العظيم، ولا زالت - والحمد لله - تؤدي رسالتها في مدة قرن ونصف تقريباً من الزمن. وتاريخ المدرسة حافل بالخدمات العظيمة في نشر الدين والعلم، وتخريج أفواج من العلماء، والمدرسين، والقضاة، والمؤلفين، ورجال الدولة، حملوا رسالتها في البلاد وخارجها، ومنهم جلالة الملك الشريف حسين بن علي الهاشمي؛ مؤسس الدولة الهاشمية بالحجاز.

الحالة العامة بالهند، وجهود الشيخ رحمت الله في مقاومة التنصير:

كانت فترة حياة الشيخ من أصعب الفترات التاريخية في الهند؛ من حيث تدهور الإمبراطورية المغولية الإسلامية، التي ظل حكمها نحو أربعمائة سنة على عموم أنحاء الهند. وعندما بدأ نفوذ وتسلط التدخل الأجنبي المستعمر (الإنكليز)، وكانت الفوضى السياسية والحكمية، وانعدام الأمن والاستقرار، وأهم من ذلك كله فقد كانت الأمور بيد الإنجليز يديرونها ويدبرونها كيفما شاؤوا ضد المسلمين، للقضاء على الإمبراطورية التي بقيت اسماً وصورة فقط، وقد كانت الضربة القوية موجهة إلى الإسلام والمسلمين، وكانت جماعات وفرق من المنصرين والمسيحيين تجوب أطراف الهند، تبث الدعاية المسمومة ضد المعتقدات الإسلامية، ونشط القسيسون بعقد الاجتماعات والحلقات والحفلات في الأماكن العامة، والهجوم على المساجد والمدارس، وإلقاء الخطب ضد الدين الإسلامي، ومهاجمة العلماء والعامة سوية، وإجبار المسلمين على قبول الدين المسيحي. ولا ننسى - في مثل هذه الأجواء - مساندة الحكومة الإنكليزية، بكل نفوذها وقوتها، في نشر دعوة النصرانية، وإنزال أنواع العذاب بكل من يقاوم حركتهم، ويتصدى لهم. وفي هذه الظروف الحالكة، كان الشيخ رحمت الله الفرد الوحيد الذي جازف بحياته، وأعلن الجهاد ضد الإنجليز، ودعا رئيس البعثة التنصيرية المسيحية القسيس (فاندر) إلى المناظرة؛ حيث تفرغ

لمقاومة المنصرين، ودرس النصرانية حتى فاق علماءها المتخصصين، ثم بدأ يؤلف كتبه للرد عليهم.

مؤلفاته:

بدأ برسائل صغيرة، أو بالترجمة، فله رسالة مخطوطة في وقت صلاة العصر، ورسالة التنبيهات في إثبات الاحتياج إلى البعثة والحشر، وله مخطوطة في ترجمة كتاب (التحفة الاثني عشرية في الرد على الروافض)، لمؤلفه الشيخ عبد العزيز ولي الله الدهلوي، بالعربية، بالمدرسة الصولتية. أما مؤلفاته في الرد على المنصرين، والدفاع عن عقائد الإسلام، فهي:

إزالة الأوهام: بالفارسية، طبع عام ١٢٦٩م/، وترجم إلى الأردية باسم: دافع الأسقام.

إزالة الشكوك: بالأردية، للإجابة على ٢٩ سؤالاً أوردها المنصرون على علماء الإسلام لإثبات نبوة محمد ﷺ، وإثبات التحريف في كتب العهدين.

الإعجاز العيسوي: ويسمى باسمين آخرين هما (الإعجاز المسيحي، ومصقلة التحريف)، وألف بالأردية ١٢٧٠هـ /١٨٥٣م، وأعيد طبعه في (لاهور) بباكستان عام ١٩٨٨م، ويقع في ٧٧٣ صفحة.

أحسن الأحاديث في إبطال التثليث: بالأردية، عام ١٢٩٢م/.

البروق اللامعة: بالعربية، وهو مفقود.

معدل اعوجاج الميزان: بالأردية، للرد على ميزان الحق، الطبعة الجديدة.

تقليب المطاعن: بالعربية، للرد على كتاب (تحقيق الدين الحق)، وهو مفقود.

معيار التحقيق: للرد على كتاب (تحقيق الإيمان)، وهو مفقود.

المحبوب إلى القلوب: مخطوط بالأردية.

البحث الشريف في إثبات النسخ والتحريف: يحوي نص المناظرة الكبرى بالفارسية.

مناظرة رحمت الله الكيرواني وفاندر:

في نيسان عام ١٨٥٤م جرت المناظرة الدينية بين الشيخ الكيرواني والقسيس فاندر، فانقلب السحر على الساحر، وأثرت المناظرة تأثيراً بالغاً في توسيع رقعة الإسلام، وتجلية صورته المشوهة، وأعقبت نتائج إيجابية كبيرة في صالح المسلمين، وتركت أصداء عالية في أوساط المنصرين، فأشعلت غضبهم، وحركت ساكنهم، حتى تفجرت الثورة الاستقلالية الكبرى في الهند، عام ١٨٥٧م.

أمّا مساعد الشيخ رحمت الله، وشريكه في مناظرته، فهو الحكيم محمد وزير خان الأكبرآبادي، الذي درس الطب في لندن، وتخرج عام ١٨٣٢م، وكان يتقن الإنكليزية واليونانية، واطلع على المسيحية في مصادرها الأصلية، وأحضر معه مكتبة زاخرة عن النصرانية بلغاتها الأصلية. كان له دوره العلمي الدعوي في الهند، هاجر إلى مكة، وتوفي بالمدينة المنورة، ودفن بالبقيع.

كان اللقاء بين الشيخ رحمت الله والدكتور محمد وزير خان حدثاً ميموناً، إذ خلال إحدى سفرات الشيخ لمدينة (أكبر آباد)، قبيل ١٨٥٠م، تعرف على (محمد وزير خان) الذي أمد الشيخ بما حصله من معارف وخبرة بالنصرانية، وأرشده إلى نتائج حركة النقد التاريخي والعقلي للكتاب المقدس في أوروبا، فاتفقا على التآزر من أجل كف شر (فاندر)، وجماعته، باستدراجهم للمناظرة أمام الملأ. وبعد ثلاث سنين من الدراسة، والعمل، أثمرت جهودهما، فألف الشيخ رحمت الله عدة كتب في الرد على المنصرين، ثم نجحت مساعي الشيخ، وصديقه وزير خان، فتناظرا أول الأمر في مسألة تحريف الكتاب المقدس مع القس (كيس)، والقس الإنجليزي (طوماس فالبي فريج)، في منزل هذا الأخير بـ(أكبر آباد)، سنة ١٨٥٤م، فكان التوفيق حليف الشيخ ورفيقه. ثم تناظرا بعد ذلك بأشهر يسيرة، أمام الملأ، مع (فاندر)، ورفيقه (فريج)، في يومين متتالين من شهر أبريل/نيسان عام١٨٥٤م، في مسألتي النسخ والتحريف، وكان النصر حليفهما أيضاً، وافتضحت أباطيل المنصّر (فاندر).

عمل فاندر في الآستانة (=استنبول):

بعد هزيمة (فاندر)، لامه الإنكليز، وعنفوه، لأنه جر الذل والعار على كنيستهم، فنقلوه من مدينة (أكبر آباد)، إلى مدينة (بيشاور)، لسنوات معدودة، فلم يستطع البقاء في الهند، وغادرها عام ١٨٥٧م، فعين ليعمل في (الآستانة)، فما أن اطمأن به المقام بها حتى أصدر سنة ١٨٦٠م نسخة تركية من كتابه (ميزان الحق). أما الشيخ رحمت الله، فقد هاجر إلى مكة، بعدما طالب الإنكليز برأسه، بعد ثورة مسلمي الهند ضدهم سنة ١٨٥٧م.

وفي سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م أصيب السلطان العثماني (عبد العزيز الأول خان) بغم شديد لسماعه آراء (فاندر) عن المناظرة، فكتب رسالة عاجلة إلى شريف مكة (عبد الله بن عون)، للاستفسار من الحجاج الهنود عن قصة المناظرة، والثورة سنة ١٨٥٧م، وإعلام الباب العالي بحقيقة الأمر. فأخبره الشريف بأن الشيخ رحمت الله موجود في (مكة). فطلبه السلطان كضيف خاص، وودعه والي مكة كضيف ملكي. وعند وصوله إلى (الآستانة)(= استنبول)، في رجب سنة ١٢٨٠هـ/ديسمبر لعام ١٨٦٣م، استقبله السلطان عبد العزيز خان في موكب

رسمي، وأنزله بالقصر الهمايوني، وأقام له حفلة كبيرة حضرها الوزراء والعلماء وكبار رجال الدولة، ثم طلب من الشيخ أن يحدثهم عن المناظرة، والثورة، ودور العلماء فيها، والمذابح الوحشية على يد الإنكليز. فحدثهم الشيخ عن كل ذلك، وبين لهم كيف أن القس (فاندر) تغيب بل هرب في اليوم الثالث للمناظرة.

وقد فرّ (فاندر) من استنبول عندما سمع بوصول الشيخ رحمت الله إليها، وإكرام السلطان له، والتجأ إلى بريطانيا، بعد تعليق نشاط جمعية التبشير الكنسية في (استنبول)، وتوفي في ١ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٨٦٥م في (ريتشموند- لندن).

يتبين لنا مما سبق، أن الهند كانت مرتعا خصباً للتنصير، وأن المنصرين كانوا متفائلين بتنصير أهلها في مدة وجيزة، لأن أبوابها مفتوحة لهم، ولأن مسلمي الهند - الذين يزيد عددهم خمسة ملايين على نصارى المستعمرات البريطانية كلها - يرتقبون الخلاص[١١]. وكان المنصرون يعدون الوضع الطبيعي والبدهي هو أن تكون الهند القاعدة الأمامية لتأسيس الأنظمة الخاصة بتنصير المسلمين، ولتدريب المنصرين الذين سينطلقون منها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي، ولذلك انهالت المساعدات المالية عليهم بمبالغ ضخمة.

وتجدر الإشارة إلى أن المستشرق الفرنسي- (الفرد لي شاتليه) (١٨٥٥ – ١٩٢٩م)، المشرف على مجلة (العالم الإسلامي)، من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩٢٦م، علق على هذا الموضوع بقوله: "من الذين ألفوا في هذا الموضوع المستر (م. هوري)، فإنه تكلم عن حالة التبشير في شمالي الهند، وعن انتشار الإسلام، ووسائط نشره، وأشار الى دراويش جمعية (انجمن إسلام- جمعية الإسلام)، وذكر التقدم الفكري والاجتماعي الذي حدث في هذه الجهات، وأن الإسلام عرقل سير هذه الميول. ثم لخص هذا المبشر تاريخ التبشير في الهند، فقال إنه ابتدأ منذ مائة سنة، عندما نال (جيروم كزافيه) اليسوعي إذناً بالتبشير في (لاهور)، ففتح باب الجدال في مسائل التوحيد، والتثليث، وألوهية المسيح، وصحة الكتب المقدسة، فتسبب عن ذلك قيام (أحمد بن زين العابدين) بتأليف كتاب (الأنوار الإلهية في دحض خطأ المسيحية)"[١٢].

إلا أن هذا المبشر البروتستاني، الذي يتكلم في تاريخ التبشير في الهند، لم ترق له الأعمال التي قام بها المبشرون الكاثوليك، وقال إن دفاعهم عن عقيدة عبادة العذراء، والآثار

[١١]- أ. ل. شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، لخصه ونقله إلى اللغة العربية: مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، جدة، منشورات العصر الحديث، ط٢، ١٣٨٧هـ ص٤٩ - ٥٠، وص٨٦.

[١٢]- أ. ل. شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، ص ٨٤- ٨٥.

والصور، وعن الأماكن المقدسة، كان من شأنه إظهار النصرانية بغير مظهرها الحقيقي. ثم جاء المبشر (هنري مارتين)، فوضع أساساً قوياً للتبشير بالإنجيل، وترجمه إلى الفارسية والأوردية.

ثم يتطرق بعد ذلك إلى الحديث عن المنصّر (فاندر): "جاء بعده (فاندر)، فترجم كتابه (ميزان الحق) من الفارسية إلى الأوردية؛ وزاد عليه ترجمة كتاب (طريق الحياة)، و(مفتاح الأسرار)، وبهذا أثار (فاندر)، مجادلات شديدة مع علماء الإسلام، في مدن: (دهلي) و(اكرا) و(لكنو)، وزلزل بذلك إيمان كثير من المسلمين، وإن يكن الذين تنصروا منهم قليل عددهم. وأعان المبشرين في هذه المجادلات، المسلمون المتنصرون مثل السيد مولوي صفدر علي، ومولوي عماد الدين، وسيد عبد الله أثيم، ومنشي محمد حنيف، والدكتور برخدار خان"[١٣].

وبخصوص التنصير في شمال الهند، وعدد المنظمات العاملة هناك، ونتائج التنصير المترتبة على ذلك، أي عدد المسلمين الذين تركوا دينهم وتنصروا، يقول: "في شمال الهند الآن ما لا يقل عن ١٢ جمعية تبشيرية؛ بين إنكليزية وأمريكية وأسترالية، وكلها ترمي إلى غاية واحدة، واجتهدت هذه الجمعيات في تنصير المسلمين، منذ أن وطأت البلاد؛ ويتبين من تقارير هذه الإرساليات أن من المسلمين المتنصرين من وصل إلى درجة المبشر، وقد اختصت هذه الجمعيات المسلمين بكتب يطالعونها، وهي معروضة لهم في مكتبات التبشير. وقد اشتد انتباه المبشرين إلى مكافحة الإسلام في الأيام الأخيرة، فنمت فيهم فكرة الاختصاص بتبشير المسلمين، على أثر كتابات الدكتور (مردوتش)، وبادرت جمعيات متعددة إلى إرسال مبشرين اختصاصيين لهذا الغرض. أما عدد المسلمين المتنصرين، فلا تمكن معرفته بالاعتماد على الإحصائيات، ولكنه تمّ العثور في تقارير سنة ١٩٠٤م على أسماء إسلامية صار أصحابها قسيسين مبشرين، وعددهم حوالي ١٩٤ اسماً. ويرى القارىء أسماء إسلامية في قوائم أعضاء اللجان الدينية في (بيشاور)، وغيرها. وقرأ المولوي عماد الدين[١٤] في (برلمان الأديان)[١٥]، في (شيكاغو)، الذي عقد سنة ١٨٩٣م، أسماء خمسين من المسلمين المتنصرين، الذين امتازوا بإخلاصهم للتنصير[١٦].

---

[١٣]- المرجع نفسه، ص٨٦.

[١٤]- عماد الدين محي الدين: لا تتوفر معلومات عن ولادته وبداية حياته، سوى أنه تنصر بفعل الإرساليات التنصيرية في ٢٩ أبريل/ نيسان عام ١٨٦٦م في مدينة امريتسار على يد القس روبرت كلارك من منظمة CMS، ببساطة من أجل تحقيق الخلاص. وكتب عماد محي الدين قصة حياته في عام

أما بشأن التنصير في مناطق أخرى من الهند، فقد علق عليه بقوله: "أما ثمرة التنصير في أواسط الهند، فهي أضعف بكثير من ثمرته في شمالي الهند، بالرغم من اجتهاد جمعية (تبشير الكنيسة)، التي كانت تعمل في مدن (مدراس) و(حيدر آباد)، وبالرغم من تفاني إرسالية (زنانة) التبشيرية التابعة للكنيسة الإنكليزية. وكل المتنصرين في أواسط الهند عدد قليل في جهتين أو ثلاث، وفوق ذلك فإنه يكثر في هذه الجهات انتقال النصارى إلى الإسلام لأسباب مالية، ومصالح شخصية، وجمعية (انجمن إسلام) تنجح دائماً بما لها من نشاط في حمل عدد كبير من الهندوس والمسيحيين على اعتناق الإسلام، ولم يفت مؤتمر المبشرين الذي عقد في القاهرة سنة ١٩٠٦م[١٧]، البحث في حركة الإصلاح التي دخلت بين مسلمي الهند، ولم تفته الإشارة إلى السير سيد أحمد خان[١٨]، زعيم تلك النهضة، وما تبذله جامعته الإسلامية في (عليكره)[١٩]، ومؤتمر التربية الإسلامية[٢٠].

١٨٦٦م. ترجمت هذه القصة إلى اللغة الإنكليزية من الأوردية، وحتى وفاة عماد الدين في أغسطس/ آب عام ١٩٠٠م. ينظر: منهج دراسة الأديان بين الشيخ رحمت الله الهندي والقس فاندر، ص٦٢.

[١٥]- برلمان الأديان: افتتح برلمان الأديان في ١١ سبتمبر/ أيلول عام ١٨٩٣م في مبنى الكونغرس العالمي المساعد الذي أصبح الآن معهد شيكاغو للفنون، واستمر من ١١ إلى ٢٧ سبتمبر، مما يجعله أول تجمع منظم بين الأديان. وكان الإسلام وحده غائباً عن الاجتماع، وذلك لأنَّ السلطان في إسطنبول كان ينظر إلى هذا المشروع بعين الريبة والشكّ، ويعتقد أنَّ وراءه محاولة تبشير مسيحية، وقد منع الفقهاء والعلماء المسلمين الرسميين من المشاركة. ومع ذلك مثل الإسلام (محمد ألكسندر راسل ويب)، وهو أنكلو أمريكي اعتنق الإسلام والسفير الأمريكي السابق في الفلبين. وكان القس (هنري جيسوب) مخاطباً البرلمان العالمي للأديان أول من ناقش علنًا العقيدة البهائية في الولايات المتحدة (كانت معروفة سابقاً في أوروبا). ومنذ ذلك الحين أصبح البهائيون مشاركين نشطين.
https://ar.qantara.de/content/brlmn-dyny-lmy-lshwwn-ldyn-wldny-mndh-m-1893-brlmn-dyn-llm-y-tywiby-llm-twahdw

[١٦]- أ. ل. شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، ص ٨٧ – ٨٨.

[١٧]- عقد هذا المؤتمر في منزل أحمد عرابي باشا، وزير الحربية المصري الأسبق، الذي سبق وأن تصدى للبريطانيين عندما حاولوا احتلال مصر عام ١٨٨٢م، وبزعامة المنصر الأمريكي المشهور صموئيل زويمر.

[١٨]- السير أحمد خان: ولد السيد أحمد خان بن محمد متقي خان في مدينة دلهي الهندية في (٦ ذو الحجة ١٢٣٢هـ=١٧ من أكتوبر ١٨١٧م)، ونشأ في أسرة شريفة الأصل، فأبوه ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأجداده عملوا في خدمة الدولة المغولية، وتولوا في كنفها مناصب مدنية وعسكرية. وبدأ السيد أحمد خان تعليمه بتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، ثم درس اللغتين الفارسية والعربية، وتعلم الرياضيات ثم تزوج وهو في الثامنة عشرة من عمره. وفي سنة (١٢٥٤هـ=١٨٣٨م) توفي والده، فاضطر إلى العمل بعد أن زادت عليه أعباء الحياة، فالتحق بإحدى

الوظائف الحكومية "نائب كاتب" في النيابة بمدينة (أكرا)، ثم مكنته ثقافته الواسعة من اجتياز اختبار للعمل في سلك المحاماة. وحين اشتعلت ثورة الهند التي قادها المجاهدون المسلمون كان السيد أحمد خان يعمل في بجنور، لكنه لم يشارك في أعمالها ضد الإنجليز، لأنه كان يرى أن المسلمين ليست لديهم القوة الكافية التي تمكنهم من مواجهة الإنجليز.. وهذا الرأي يعارضه فيه الكثيرون، فقيام الحركات التحررية لم يعتمد على اعتدال موازين القوى بينها وبين المحتلين، وإلا لما قامت حركة للمقاومة والتحرير. ولم يقتصر السيد أحمد خان على كف يده عن الاشتراك في الثورة، بل عمل على تهدئة الناس، وحماية المدنيين الإنجليز من بطش الثائرين. وبعد فشل هذه الثورة التي أراق المجاهدون فيها دماء غالية طلبا للحرية والشهادة، واستنقاذا للوطن السليب، صب المحتلون جام غضبهم على المسلمين، وحملوهم مسئولية اشتغال الثورة دون غيرهم، وجردوهم من أدنى حقوقهم الإنسانية. ولم يجد السيد أحمد خان بدا من مد جسور التفاهم والتعاون مع الإنجليز بعد أن تسارعت الطوائف المختلفة للهند في التقرب إلى الإنجليز الذين أحكموا قبضتهم على البلاد، وكان أحمد خان يهدف من سعيه إلى وقف الأضرار التي لحقت بالمسلمين من تعذيب وظلم، وإنهاء حالة العداوة بين الطرفين، وألف في هذا الشأن رسالة باللغة الأردية بعنوان "أسباب الثورة الهندية"، برأ فيها المسلمين من التهم التي نسبت إليهم. وفي الوقت نفسه سعى أحمد خان إلى تقديم تفسير جديد لنظرية الجهاد التي كانت تخشاها بريطانيا بعد أن زلزلت الأرض من تحت أقدامها بفعل حركات المجاهدين، وكان قد ساد في هذه الفترة أن الهند أصبحت دار حرب ووجب الجهاد المسلح على أبنائها المسلمين دفاعا عن دينهم. وقام تفسير أحمد خان للجهاد على أساس أن الجهاد غير مباح إلا في حالة القهر البالغ أو الحيلولة بين المسلمين وأداء شعائرهم الدينية، ولما كان ذلك غير متحقق لأن الإنجليز يكفلون الحرية الدينية، فإن ذلك لا يبرر الجهاد ضدهم.. وقد جرت هذه الفكرة اتهامات كثيرة وجهت إليه. وفي سنة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م) سافر السيد أحمد خان مع ابنه "محمود" إلى لندن لإلحاقه بالجامعة، وفي الوقت نفسه لجمع مادة علمية يستعين بها في الرد على كتاب السير وليم ميور "حياة محمد" الذي شحنه بالافتراءات والأكاذيب على نبي الإسلام. وطالت فترة إقامته في لندن إلى نحو عام ونصف قضاها في زيارة الجامعات والمدارس والمجالس العلمية والمتاحف، ومقابلة كثير من العلماء والمفكرين هناك، ومنهم توماس كارليل، وقد حدثه طويلا عن محمد - صلى الله عليه وسلم -، وربما كان لهذا الحديث أثره المحمود عند توماس، حين كتب فصلا بديعا عن نبي الإسلام في كتابه المعروف "الأبطال". عاد السيد أحمد خان إلى بلاده سنة (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م) وهو عاقد العزم على إصلاح حال المسلمين والنهوض بهم والارتقاء بشأنهم. وضرورة الاستفادة من المدنية الحديثة والإقبال على علومها، وتحقيق مثل هذا الأمر يحتاج إلى صبر في إعداد الناس لتقبله والاستعداد للتغيير، وإزالة تحفظهم إزاء كل جديد؛ لذا أنشأ مجلة بعنوان "تهذيب الأخلاق" سنة (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م) تكون منبرا لإذاعة أفكاره التعليمية والدينية ومحاربة الأمراض الاجتماعية التي انتشرت بين المسلمين. وعلى صفحات هذه المجلة نشر كثيرا من الموضوعات الدينية التي غلب عليها الجنوح والتطرف، وتطرق إلى تفسير القرآن، وذهب إلى أن النظر الصحيح فيه يوجب الاعتماد على روحه أكثر من الاعتماد على حرفيته، وادعى أن الوحي كان بالمعنى دون اللفظ، وأنكر

وقد خطب القسيس (ويتبرتشّت)، في (مـؤتمر القـاهرة)، عـام ١٩٠٦م، بموضـوع (الإسـلام الجديد)، فذكر أن تعاليم أوروبا تقرب المسلمين من الاستجابة للمبشرين، ثم قال:

١- يجب أن ننشئ جسراً فوق الهاوية التي تفصل بين العناصر، ولنتوصل إلى ذلك يجب أن ننتفع من وجود الطلبة المسلمين في إنكلترا.
٢- أن يدرس الإنجيل على حدة، أو على جماعات قليلة العدد.
٣- أن تلقى محاضرات ودروس منظمة، بمراقبة رجال ممتازين، وأن تصـرف العنايـة إلى المناقشات.
٤- توسيع نطاق المطبوعات بالأوردية، مثـل مجلـة (ترقـي)، وأن يـترجم تـاريخ التـوراة للدكتور (بلاكي)، وأن يتذرع لترويج ذلك بالنشر في الجرائد والكتب الإنكليزيـة التـي يأنس بها المسلمون المتعلمون[٢١].

فاندر من وجهة نظر الأكاديميين الأوروبيين:

تقول الدكتورة (كريستين)، أستاذ الدراسات الإسلامية في (جامعـة لوفـان) البروتسـتانتية، في (بلجيكا): "في القرن التاسع عشر أخذت دائرة النقاش بـين المسـلمين والمسـيحيين مكانـاً

نظام تعدد الزوجات والرق ووجود الجن وغيرها من الموضوعات التي كانت سببا في إثارة معارضة العلماء له، وحكموا بتكفيره، وتعرضت حياته للخطر، ونجا بأعجوبة من محاولة اغتيال له. وإن كان السيد أحمد خان قد تعرض لكثير من الهجوم على آرائه التي صدمت مشاعر المسلمين فإن ذلك لا يحرمه من فضل تحريك الحياة الراكدة، وإثارة الوعي والنهوض بالتعليم والمحافظة على الثقافة الإسلامية. وقد توفي في (٢٥ من رجب ١٣٠٦هـ/٢٧ من مارس سنة ١٨٨٩م) ودفن في ساحة مسجد جامعة عليكرة.ينظر: أحمد أمين، زعماء الاصلاح في العصر الحديث،(القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٨م)، ص..

[١٩]- عليكره: أول جامعة إسلامية تقع في أغرة، أتر برديش بالهند. أسّست عام ١٨٧٥م على يد السيد أحمد خان. تشمل الدراسة فيها الآداب والعلوم والهندسة والطبّ. تضمّ كليات الطبّ، العلوم والصناعات، الهندسة والتكنولوجيا، وفيها كلية النساء. في مكتبتها ٤٥٠٠ مخطوط باللغات العربية والفارسية والأردية والبنغالية والإنكليزية، وقد تم فهرستها من قبل محمد ياسين مظهر صديقي (مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م)، وفيها مقر المجمع العلمي العربي الهندي منذ تأسيسه ١٩٧٦م. ينظر: الموسوعة العربية الميسرة، ١٩٦٥م.

[٢٠]- أ. ل. شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، ص ٨٧ – ٨٨.

[٢١]- عبدالرحمن حسن حبنكه الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (دمشق: دار القلم، ١٩٨٧م)، ص٧٠، ويبدو أنه نقل النص كاملاً من كتاب الغارة على العالم الاسلامي للمبشر الفرنسي أ.ل. شاتليه، ص٨٦ – ٩٠ دون الاشارة إليه.

بعيداً عن المراكز التقليدية للتعليم الإسلامي. في (أكرا)، في عام ١٨٥٤م، وربما للمرة الأولى، استخدم علماء الدين الإسلامي البراهين ضد المبشرين المسيحيين بطريقة أحرجت الأوربيين. حيث يصادف القرن التاسع عشر نقطة تحول عندما يتعلق الأمر بعلوم الدفاع عن المسيحية، وضع المسلمين طريقة جديدة تماماً لإثبات أن المسيحية هو الدين الباطل، بمساعدة مصادر أوروبية، أنشأها اللاهوتيين المسيحيون أساساً كتعليقات على الكتاب المقدس".

ويهمنا هنا أن ننقل كلام المؤرخ البريطاني من أصل لبناني، البروفيسور (ألبرت حوراني) (١٩١٥ – ١٩٩٣م) حول المناظرة الكبرى موضوع هذا المقال، عندما كتب: "كانت المناظرة حاسمة، حيث انسحب (فاندر) من الجلسة الثانية، وبدا واضحاً من خلال النتائج، أنه لم يعد هناك بد من الاستمرار؛ حيث تمكن (رحمت الله)، من خلال معارفه العلمية الألمانية بمناهج نقد الإنجيل، فقادته عن طريق زميله الطبيب الهندي المسلم، الذي يتقن الإنكليزية، والذي استخدمها بحرفية، ليتساءل عن سند ومصدر هذا الكتاب (= الكتاب المقدس)❐

رأي العلامة سبحاني حول الشورى ومكانتها في النظام السياسي الإسلامي

- الحلقة ١٤ -

د. عمر عبد العزيز

أولاً: الشورى والمشاورة في اللغة والاصطلاح:

الشورى على وزن فُعْلى، مثل: فُتْيا، وبُشْرى. مصدر من: شار يشور شورا. وأصل الشّوار والشِّوار والشورة، يأتي بمعان، منها: الحسن والجمال والهيئة. "والشّورة هي الموضوع الذي تعسّل منه النحل إذا دجنها"[١]. وأصله من شار العسل، أي: اجتناه، واستخرجه من الوقبة"[٢]. ويقال: فلان حسن الصورة والشورة، أي: حسن الهيئة واللباس. وشرت الدابة: إذا امتحنتها، فعرضت هيئتها في سيرها[٣]. وركب فرساً يشوره، أي: يعرضه[٤]. ويقال كذلك:

١ الفراهيدي، **العين**، ص: ٤٩٩.

٢ الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ص: ٥٣٩. والرازي، **مختار الصحاح**، ص: ٣٥٠.

٣ ابن الجوزي، **زاد المسير**، ص: ٢٣٤.

٤ ابن العربي، **أحكام القرآن**، ١٦٦٨/٣.

شـرت الدابـة أشـورها، لتسـتخرج أخلافهـا[٥]. ويقـال للموضـع الـذي تـركض فيـه الدابـة: مشوار[٦].

وقال الشهيد سـبحاني: "أصـل كلمـة الشـورى مـن الشّـوار، الـذي يسـتعمل للمتـاع الجميـل، وكذلك يعطي معنى الظهور. ويقال: الشور لتسييس الحيوان، وإظهـار اسـتعداده للعمـل. ومنه استعير الشورى والمشاورة، بمعنى أن يجتمع جمع، ويُظهرَ كل واحد منهم رأيـه، لـكي يظهر ـ في الأخير ـ الرأي الأرجح والأصوب والمقبول لدى الجميع"[٧].

قلت: ما دامت اللفظة تتضمن معاني عناصر الجمال والظهور واجتناء العسل، فإنه سُـمّي أمر استخراج الرأي الأصوب مشاورة، فكأن الـذي يشـاور أهـل الـرأي، يجتنـي أطيـب الآراء وأصوبها، أو أرجحها، كالنحل الذي يختار أطيب ما في الزهور.

ومـن هنـا يـأتي الحـديث عـن الشـورى والمشـاورة كاصـطلاحين قـرآنيين. قـال ابـن العـربي: "الشورى فُعْلى من شار يشور شوراً، إذا عرض الأمر على الخيرة، حتى يعلم المـراد منـه"[٨]. وقـال: "المشاورة هي الاجتماع على الأمر ليستشير كل واحد منهم صاحبه، ويستخرج مـا عنـده"[٩].

وقال الخبير بمفردات القرآن، الراغب الأصـفهاني: "التشـاور والمشـاورة والمشـورة: اسـتخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض. والشورى الأمر الذي يُتشاور فيه"[١٠].

ثانياً/ الشورى والمشاورة والتشاور في القرآن الكريم:

وردت كلمة (الشورى) في معرض ذكر أوصاف المؤمنين، وتعدادها، في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}(الشورى/٣٨). فكأن القرآن يبرز أن المؤمنين لا يتم إيمانهم إلا إذا استجابوا لربهم ـ فيما يتعلق بما بينهم وبينه سبحانه، ويقيموا الصلاة ـ كمظهر عملي، ومصداق لهذه الاستجابة ـ ثم يجعلون من أمرهم شورى، فيما يتعلق بما بين أنفسهم، في أمور الإدارة والسياسة.

أما كلمة (المشاورة)، فإنها وردت في سياق إلزام الرسول ﷺ بمشاورة صحبه، ويقاس عليه مشاورة كل رئيس لمن حوله من المستشارين. ففي الحديث عن ملابسات (غزوة

٥ المصدر نفسه، ٢٩٧/١.

٦ القرطبي، **الجامع الأحكام القرآن**، ٢٤٩/٤.

٧ ناصر سبحاني، **نظرة حول المفردات والمفاهيم القرآنية**، ص: ١٣٣.

٨ ابن العربي، **أحكام القرآن**، ٤/ ١٧٧٨.

٩ المصدر نفسه، ١/ ٢٩٧.

١٠ الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص: ٤٧٠.

أحد)، كان الرسول يرغب البقاء في المدينة لمواجهة الأعداء، إلا أن صحبه أشاروا عليه بالخروج، ولم يستجيبوا لرغبته، حرصاً منهم لمواجهة العدو. ثم حدث ما حدث من مخالفة بعض الرماة لأمر الرسول، لما تركوا مواقعهم العسكرية، وكان الرسول ﷺ، برحمة من الله تعالى، ليناً مرناً معهم رغم ما حدث، يقول سبحانه: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ..}(آل عمران/١٥٩). وبهذا يؤكد الله لرسوله، وأمته، أن الضرر الذي لحق بهم بعد المشاورة أهون من ترك المشاورة، لأن في تركها ضررا أعظم، وهو التفرق.

أما كلمة (التشاور) ـ التي هي تفاعل من الشورى ـ فلقد وردت في سياق الحديث عن الأسرة، والعلاقة الزوجية، والرضاعة، فأشار القرآن إلى أن الفصال - إذا كان عن تراض بين الزوجين وتشاور - فلا جناح فيه ولا حرج. قال تعالى: {... فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا..}(البقرة/٢٣٣).

هذه هي الموارد الثلاث في القرآن، التي وردت فيها كلمات (الشورى) و(المشاورة) و(التشاور)، ولم ترد الكلمة ولا مشتقاتها في أي مورد قرآني آخر.

ثالثاً/ الفرق بين الشورى والمشاورة والتشاور:

غير خاف على من له أدنى إلمام باللغة ومشتقات الألفاظ العربية، أن لفظة (الشورى) ـ كما أسلفنا - مصدر ثلاثي على وزن فُعْلى، مثل: فُتْيا، وبُشرى. وأن (المشاورة) مفاعلة منها، ولا يصحّ أن تعطيا معنى واحداً. فكلٌّ من كلمات الشورى والمشاورة والاستشارة والتشاور تختلف معانيها لاختلاف أبنيتها اللفظية. فالتشاور تفاعل يدلّ على اشتراك أكثر من واحد في آن واحد. بينما (المشاورة) مفاعلة فيها دلالة على تقدم أحد القائمين بالفعل على الآخر. ولكن (الاستشارة) استفعال من الشورى، تطلق على عمل يقوم به من يبحث عن استخراج الآراء.

والغريب في هذا، أنني تابعت ما كتبه كبار المفسرين في تفسير الآيات التي وردت فيها كلمات (الشورى) و(شاور) و(تشاور)، فلم أجد أحداً؛ ممن قرأت تعقيباتهم، يشير إلى تلك الفروق اللغوية: فشيخ المفسرين (الطبري)، لم يذكر أي فرق بين الشورى الواردة في (سورة الشورى)، والمشاورة الواردة في (سورة آل عمران)، والتشاور الوارد في (سورة البقرة)، بل فسّر آية (سورة الشورى): وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ (الشورى/٣٨)، بقوله: "إذا

حـزبهم أمـر تشـاوروا بيـنهم"[11]. وكـذلك فعـل القرطبـي،[12] والشـوكاني،[13] والزمخشـري،[14] وابـن الجوزي،[15] وابن العربي،[16] حتى إن الخبير بالمفردات القرآنيـة العلامـة الراغـب الأصـفهاني لا يُستَثنى من ذلك، كما نقلت عنه آنفاً في نهاية الفقرة الأولى من هذا المبحث.

ولكن العلامة سبحاني كان أكثر دقّة وتحقيقاً في تناول الموضوع، واستكشاف خفايا تلـك الألفاظ من المعاني التي تحملها كل كلمة، فقـال بـالحرف: "بـين المشـاورة وبـين الشـورى ـ وهي بمعنى التشاور ـ فرق، فإن التفاعل للدلالـة عـلى اشـتراك اثنـين أو أكـثر في أمـر عـلى سواء، من غير تقدّم بعض على بعض، ولذلك كانت معمولاته فواعل في اللفظ ـ كذلك ـ ولم ينصب مفعولاً، كقولك: تشاور أبوبكر وعمر وزيد. وأما المفاعلة فللدلالـة عـلى كـون أحـد القائمين بالفعل متقدّماً بادئاً، وأن قيـام الآخـر بـذلك إنمـا هـو بعـد التمهيـد مـن المتقـدم البادئ. وإذ تبيّن هذا، فنقـول: إن (التشـاور) إنمـا يكـون عنـدما يكـون المؤمنـون متصـفين بالشـروط المبينة في آيات (سورة الشورى)[17]، كـلّ بمـا في وسـعه، الأمـر الـذي يجعلهـم في المشورة على سواء، كل بحسب استعداده. وأما (المشاورة)، فإنما تكون عنـدما يهـبط بعـض أولي الأمر مثْلَ هبطة أصحاب أحد، فينحطّون عن مكانة العضوية في جمع أولي الأمـر، ثـم يقومـون ليرتفعـوا إلى مـا هبطـوا منـه، فيقـوم أهـل الثبـات والاسـتقامة بإعـادتهم إلى جمعهم"[18].

ولعل القارئ يلاحظ كيف أتقـن سـبحاني في اسـتنباط فهـم جديـد ـ لم ينتبـه إليـه مـن سبقوه من المفسـرين، على ما أعلم ـ وفرق بـيّن بـين لفظتـي الشـورى والمشـاورة، فهـما ـ بهذين المعينين ـ تخ صّان حالتين مختلفتين، يقتضي الإقدام على كل مـنهما ظـرفين مغـايرين، والله أعلم.

---

١١ الطبري، **جامع البيان**، ١٣/ ٣٧.

١٢ ينظر: القرطبي، **الجامع الأحكام القرآن**، ٤/٢٥٠.

١٣ ينظر: الشوكاني، **فتح القدير**، ١٣٣١.

١٤ ينظر: الزمخشري، **الكشاف**، ص: ٩٨١.

١٥ ينظر: ابن الجوزي، **زاد المسير**، ص: ١٣٤.

١٦ ينظر: ابن العربي، **أحكام القرآن**، ٤/ ١٦٦٨.

١٧ يقصد بها الصفات التي وردت في سورة الشورى من الآية (٣٦) إلى (٣٩) وهي: الإيمان، والتوكل، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والغفران عند الغضب، والاستجابة لله، وإقامة الصلاة، والإنفاق، والانتصار، والتشاور.

١٨ ناصر سبحاني، **الولاية والإمامة**، ص: ١٥٤.

رابعاً/ أهمية الشورى والمشاورة، والحكمة فيهما:

١ـ تحدث المفسرون، وشراح الحديث، والفقهاء، عن أهمية الشورى، وكونها قاعدة مهمة من قواعد نظام الحكم الإسلامي، وقيمة من قيمه العليا. ولقد شاور رسول الله ﷺ صحبه بأمر من الله تعالى: وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ (آل عمران/١٥٩)، في أحلك الظروف، أي: "شاورهم في الأمر العام؛ الذي هو سياسة الأمة في الحرب والسلم، والخوف والأمن، وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية. أي: دُمْ على المشاورة، وواظب عليها، كما فعلت قبل الحرب في هذه الواقعة (في غزوة أحد)، وإن أخطأوا الرأي فيها، فإن الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل، فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر"[١٩]. قال الطبري: "وشاورهم في الأمر، فإن القوم إذا شاور بعضهم بعضاً، وأرادوا بذلك وجه الله، عزم لهم على أرشده"[٢٠].

والمراد بالشورى: "تشاورهم في كل أمر يعرض لهم، فلا يستأثر بعضهم على بعض برأي"[٢١]. ولهذا، فقد تشاور الصحابة في أمور كثيرة، وأول ما تشاوروا فيه أمر الخلافة، لأن النبي ﷺ لم ينصّ عليها. ثم تشاوروا في أمر الرّدة، وتشاوروا في أمور أخرى؛ كميراث الجدّة، وحدّ الخمر، وكتابة المصحف، وتوسعة المسجد، وجعل الخاتم، وغير ذلك مما استجّد من الأمور ولم يجدوا فيها نصاً. ولهذا عدّ بعض العلماء الشورى "من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام"، وأفتوا بأنه: "من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا مما لا خلاف فيه"[٢٢]. رغم أن هناك جدلاً بين الفقهاء حول حكم الشورى، وهل هي معلمة غير ملزمة، أو ملزمة ومعلمة معاً.

وفي هذا يقول الشهيد سبحاني، مؤكدا وحاسماً: "إن النظام الحاكم بما أنزل الله الوحيدَ، النظامُ القائم على أساس شورى أولى الأمر. ونحن عالمون أن هناك كثيراً من الناس يحسبون أن نظام الحاكم بما أنزل الله نظامٌ يكون الأمر فيه إلى الخليفة، إن شاء شاور أهل الحل والعقد، وإن شاء لم يشاور. وله إن شاور أن يترك ما أجمع عليه أولئك، إلى ما يراه هو نفسه. وليس هذا أول قارورة كُسرت في الإسلام، فكمِ من حق من ربك ـ جاءت به آيات بينات ـ أخفاه عن البصائر جعلَ الكتاب المبين فداءً لروايات معزوّة ـ بغير حق ـ إلى

١٩ محمد رشيد رضا، **المنار**، ١٩٩/٤.
٢٠ الطبري، **جامع البيان**، ١٥٢/٣.
٢١ الشوكاني، **فتح القدير**، ١٣٣١.
٢٢ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ٢٥٠/٤.

الرسول ﷺ والذين معه، المهتدين الهادين بالكتاب المبين ـ عليه وعليهم الصلوات والبركات ـ أو لعبارات مخطئة أثرت عن فلان من المؤرخين أو فلان. ولعمر الحق! لو لم يكن في كتاب الله تعالى إلا قوله سبحانه: { وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}(الشورى/٣٨)، لكان يجب أن يؤول أو يرد كل ما يكون مضمونه استبداد فرد أو جمع، أقلّ من جمع أولي الأمر، من أولئك، بأمر من أمور الدين"[٢٣].

ثم يؤكد في نهاية حديثه عن هذا الموضوع: أن الخليفة، أو رئيس الدولة، ليس إلا واحداً من جمع أولي الأمر، فأنّى له الاستبداد بالرأي، أو ترك الشورى؟ وردّ ردّاً قاطعاً على من يزعم أن أبا بكر الصديق قد استبدّ برأيه في أمر قتال مانعي الزكاة، وفي بعث جيش أسامة.

٢ـ أما حول طبيعة الأحكام التي يتم التوصل إليها عن طريق التشاور، فيؤكد على أنها ثلاثة أقسام من حيث تلقيها: "قسم يتلقاه كل المخاطبين بأحكام الله، العارفين لسانَ القرآن. وقسم يقوم بتبيينه للناس رسول الله. وقسم يعينه في كل ظرف أهل الاستنباط فيه، كما بينه أول مرة رسول الله ﷺ وأهل الاستنباط من أصحابه (رضوان الله عليهم)".

ثم ذكر طريقة تلقّي ما يأتي من قبل الله ورسوله، فقال: أما بالنسبة للقسم الثالث، فـ:"إن الطريق إلى تلقّيه: التشاور من أهل الإمامة الجمعية[٢٤]، المختوم بالاتفاق والإجماع، فإن ذلك هو المسلك الذي يسّر الله العبادَ لسلوكه، والذي ليس في اختياره مخالفة الحكمة، ولا تحميل الإنسان ما لا طاقة له به، أو دفعه إلى ما لا يُحصى كثرة من الأخطاء، وما يريده الله لعباده من الاختلاف وتفريق الدين ومفارقته"[٢٥].

٣ـ أما حول الحكمة من جعل الشورى صفة لأهل الإيمان، وذكرها مع التوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والغفران، والاستجابة لله، وإقامة الصلاة، والإنفاق[٢٦]. فلقد أكد الشهيد سبحاني على أنه "وإن لم يكن أحد ممن أمرهم شورى بينهم معصوماً ـ يكون التشاور طريقاً موصلاً إلى أعظم قدر مما يمكن البشر من الإصابات، ووسيلة إلى تقليل الأخطاء إلى حد الندور. ولأنه لا طريق إلى الكشف عن هذا القسم من الأحكام أحسن من التشاور، ويكون من يلتزمون التشاور قد أدّوا ما عليهم، يكون تلك الأخطاء النادرة معفوّاً

٢٣ ناصر سبحاني، **أسس التصورات والقيم**، ص: ١١٩-١٢٠.

٢٤ سبق أن بينا وجهة نظر سبحاني، حول الإمامة الجمعية، في مقال سابق.

٢٥ ناصر سبحاني، **الولاية والإمامة**، ص: ١٤٠-١٤١.

٢٦ ينظر آيات سورة الشورى، ٣٦-٣٨.

عنها، مغفورة، معدودة - ما دام لم يظهر ما هو الصواب من أحكام الله -، فتكون كل مستنبطات هذا القسم مقبولة، مثل ما كان الأولان"[٢٧].

٤ ـ ومن الأمور المهمّة التي عالجها الشهيد ناصر ـ في هذا السياق المتصل ـ موضوع الاستنباطات الفردية التي لجأ إليها الفقهاء في ظروف استثنائية، وعلاقتها بالتصنيف الذي حدده في تقسيم الأحكام، فقال: "مما لابدّ من بيانه هنا أنه قد لا يتيسّر التشاور في الأمر ـ كما هو حال المسلمين اليوم، وفيما مضى من بعد عهد الخلافة الراشدة ـ فيضطر المؤمن إلى الانفراد بالاستنباط اضطراراً: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(البقرة/١٧٣). فمن اضطر إلى الاستنباط منفرداً، ولكنه لم يرض بما هو فيه، ولم يطمئن، بل جاهد بماله ونفسه في إبطال الباطل، وإقامة دين الله سبحانه ـ كما كان يفعل الأئمة الأخيار من السلف ـ لم يأثم باستنباطاته المنفردة الاضطرارية، بل كان له أجره بما كان يجتهد"[٢٨].

خامساً/ كيفية تشكيل مجلس الشورى، أو هيئة أولي الأمر:

١ـ شكل الشورى وكيفية ممارستها:

كثر الحديث عن صور مجلس الشورى، أو مجلس الحل والعقد، أو هيئة أولي الأمر، وكيفية تشكيلها وممارستها لمبدأ الشورى. ويبدو من خلال كتب التاريخ والتراث أن استعمال مصطلح (أهل الحل والعقد) وما شابهه، كـ(أهل الاختيار)، وغيره، فكرة دستورية استنبطها فقهاء الأمة من ممارسات عهد الخلافة الراشدة وتطبيقاتهم للشورى. ولكن الفقهاء والمؤرخين لم يجتمعوا على استعمال مصطلح موحّد، فلقد استعمل الماوردي، في (الأحكام السلطانية)، مصطلحي: (أهل الاختيار)، و(أهل الحل والعقد). واستعمل عبد القاهر البغدادي، في (الفرق بين الفرق)، مصطلح (أهل الاجتهاد والعدالة)[٢٩]. وكذلك لم يثبت في تاريخ الدولة الإسلامية شكل محدّد لتشكيل هيئة أولي الأمر، أو مجلس الشورى، ولم يرد ذكر لإطار أو مؤسسة شبيهة بالمؤسسات المعاصرة، تجمع أعضاء من يمثلون تلك الهيئة أو ذلك المجلس. كما لم يرد ذكر لمكان محدّد يجمعهم، غير المسجد، كما هو الحال فيما يسمى بمجالس الأمة، أو قاعة البرلمانات، أو مجالس الشعب.

٢٧ ناصر سبحاني، **أسس التصورات والقيم**، ص: ١١٢.

٢٨ ناصر سبحاني، **الولاية والإمامة**، ص: ١٤٦، و كتابه: **أسس التصورات**، ص: ١١٤.

٢٩ ينظر: عبد القاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص: ٢٧١.

ثم إن تلك الهيئة ـ أياً كانت تسميتها ـ لا تحددها جهة، ولا تعيّنها سلطة عليا، بل هي منبثقة من الأمة، يبرز أعضاؤها بتوّفر شروط محّددة، كما حدث لنخبة المهاجرين والأنصار في صدر الإسلام، لمّا أصبح أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ ابن جبل وأبي عبيدة وأبي بن كعب (رضوان الله عليهم) ـ بطبيعة مواقعهم الاجتماعية ـ أعضاءَ في تلك الهيئة الشورية، التي مارست الشورى منذ عهد الرسول ﷺ، وإلى عهد علي (رضي الله عنه)، بالنسبة لمن بقي منهم.

إذاً، أصل المصطلح، وجوهر مدلوله، يحمل في طياته مرونة نظرية الإسلام في التعامل مع قضايا الحكم والسياسة والدولة، كي تلبي متطلبات كل عصر وكل بيئة، وتسدّ احتياجات الحياة المتغيرة، دون تقييد بقالب معين، أو إطار محّدد، أو كيفية ثابتة، قد لا تنسجم مع الواقع.

وبهذا لا تعيق المصطلحات عملية تطوير المؤسسات وتكييفها مع متغيرات الزمان، حيث لم يرد في نص قطعي الثبوت والدلالة أي ذكر لمصطلح (أهل الحل والعقد)، أو غير ذلك. فتلك الاستعمالات من إفرازات الظروف الاجتماعية والسياسية والحضارية للقرنين الثاني والثالث الهجريين، لا ينبغي أن تُنتحل كبديهيات فكرية، أو ثوابت دينية، يمنع الحديث عنها، وعن تغييرها، تحت ذريعة مخالفة التراث، وزعم الحفاظ على الأصالة، والحث على الاتباع. وأهل الشورى، أو أهل الحل والعقد، ليسوا فئة معينة، فالعلماء لم يتفقوا على تعيينهم، فمنهم من قال: هم رؤساء الأجناد، أي: قادة الجيش والعسكر، وقيل: هم زعماء القبائل، وقيل: هم العلماء والمجتهدون. والأرجح أنهم هم أهل القرار والحكمة والحسم والصلاحية من كل أولئك. قال في ذلك محمد رشيد رضا: "أهل الحل والعقد هم سراة الأمة، وزعماؤها، ورؤساؤها، الذين تثق بهم في العلوم والأعمال والمصالح التي بها قيام حياتها"[٣٠].

٢ـ رأي العلامة سبحاني في كيفية الشورى:

وللشهيد سبحاني رأي محدد فيما يتعلق بكيفية تشكيل مجلس الشورى، أو هيئة أولي الأمر، وصلاحياتهم. فأولو الأمر عنده هم: "جميع العلماء بمختلف شؤون الحياة، الذين هم يحققون كون أمر الذين آمنوا شورى بينهم"[٣١]، و"من لم يرض بكون أمر المؤمنين شورى بينهم، بل

٣٠ محمد رشيد رضا، **المنار**، ٢٤/١.

٣١ ناصر سبحاني، **أسس التصورات والقيم**، ص: ١١٥.

طغى واستبد بالأمر، لم يكن على هدى المؤمنين، فكيف يكون من أولي الأمر من المؤمنين"[٣٢].

ثم يذكر مكانة أولي الأمر، ومهامّهم، وكيفية تشكيلتهم، قائلاً: "لكون التكاليف والواجبات كثيرة ومختلفة، والاستعدادات الموهبة إنما قسمت بين العباد بحسب الواجبات، يكون واجب استنباط الأحكام المذكورة موكولاً، في كل عصر من جماعة المؤمنين، إلى طائفة منهم، لا إلى جميعهم. ثم إن أمر استنباط أحكام الشؤون المتطورة متوقف ـ بعد علم اللغة العربية، وعلم أسرار التشريع الرباني ـ على الخبرة بتلك الشؤون. وتلك الشؤون من الكثرة والتفرع بحيث لا تتأتّى الخبرة لكل فرد ـ في الغالب ـ إلا ببعض أنواعها، فتكون جماعة أولي الأمر، في كل عصر، منقسمة إلى أصناف، كل منها أهل الخبرة ببعض أنواع شؤونه"[٣٣].

وبهذا يعدّ الشهيد سبحاني من أوائل من أشار إلى ما يسمّى باللجان التخصّصية في مجلس الشورى. ولقد عَزّز رأيه بدليل قرآني واضح انتبه إليه، بينما أغفله الآخرون أثناء الحديث عن الشورى وأولي الأمر، وكيفية وظائفهم. فقال:" قال تعالى في بعض أعضاء المجتمع الإسلامي من المنافقين: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا}(النساء/٨٣). فبيّن بقوله: {لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ}، أن المستنبطين لحكم الأمر المردود إلى جماعة أولي الأمر من المؤمنين، قد يكونون فئة من تلك الجماعة. وإذا كان كذلك، فلا تتوقف عضوية المرء في جماعة أولي الأمر، على أن يكون مقتدراً على استنباط كل حكم من الأحكام الاجتهادية، وإنما يجب أن تكون جماعة أولي الأمر مقتدرة بجملتها على استنباط كل تلك الأحكام، بأن تكون متكونة من أصناف، كل منها أهل استنباط أحكام بعض الأنواع. وهذا يقتضي أن يُرَدّ كل أمر إلى أهل استنباط حكمه أولاً، ليستنبطوا حكمه، ثم يُعْرَضُ على جمع أولي الأمر ليجمعوا عليه، ثم يبلغون المؤمنين"[٣٤].

٣٢ المصدر نفسه، ص: ١١٨.

٣٣ ناصر سبحاني، **الولاية والإمامة**، ص: ١٤٧.

٣٤ المصدر نفسه، ص: ١٤٧-١٤٨.

سادساً/ شروط ومواصفات هيئة أولي الأمر:

١ـ تحدث الفقهاء عن شـروط من سمّوهم بأهل الحل والعقد. والحد الأدنى الذي اتفقـوا عليـه من الشـروط، هي التي ذكرها الماوردي، وهي: "العدالة الجامعة لشـروطها، والعلـم الـذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتـبرة فيهـا. والـرأي والحكمـة المؤديـان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح، وبتدبير المصالح أقوم وأعـرف"[٣٥]. ولكـن العلامـة سـبحاني يستنبط مـن آيـات سـورتي (الشـورى، وآل عمـران)، اللتـين ورد في سـياقهما الحـديث عـن الشورى والمشاورة، أهم الشـروط الـلازم توافرهـا في جمـع أولي الأمـر، فيقـول: "أول مـا لا تتحقق العضوية في جمع أولي الأمر مـن المـؤمنين إلا بتحققـه، ولا يثبـت وجـوب رعايـة كـل واحد من أهل الاستعداد لحقوق الآخرين في هذا المجـال إلا بثبوتـه، ولا يتـأتّى صـيرورته ذا حـق يجب عليهم رعايته إلا بالاتصاف به: وصف الإيمان، كما لا يخفى. وبعد ذلـك الوصـف، الشـروط التي قد ذكرتها آية الشورى والآيات المكتنفة لها، التي من أعظمها: الاسـتجابة للـرب، وإقامـة الصلاة، والإنفاق مما رزق الله"[٣٦]. وينهي كلامه بأن من هـبط مـن المتبـوّئين لمكانـة هيئـة أولي الأمر من تلك المكانة، بنقص شـرط من تلك الشـروط والمواصفات، سُلب عنه ما كـان له من حـق العضـوية، إلا إذا نهـض وارتفـع إلى تلـك المكانـة، بـالاعتراف بالـذنب والتوبـة الصادقة.

٢ـ الفرق بين هيئة أولي الأمر (مجلس الشورى)، وهيئة الخبراء، أو (مجلس النواب):

يتبين من تحقيقات الشهيد سبحاني، ودراساته، في موضوع نظام الحكم الإسلامي، وكيفية تشكيل المجالس النيابية وهيئات الحكم، أنه يؤمن بضـرورة وجود مجلسـين، يسـمى الأول منهما بـ(مجلس الشورى)، وهو مجلس أولي الأمر، بالأوصـاف التـي ذكرهـا، ومجلـس آخـر يسـميه (مجلـس الخـبراء)، أو مجلـس النـواب، وهـو الـذي يشـابه (البرلمانـات) في وقتنـا الحاضـر. ولأعضائه، وكيفية تشكيله، وشـروطه، مواصفات خاصة. يقول في ذلـك: "لأن أمـر الاستنباط متوقف ـ بعد علم العربية، وعلم أسرار التشـريع الربـاني ـ عـلى الخـبرة بشـؤون الحياة المتطورة ـ كما بينا ـ لا بدّ من وجود مجلـس آخـر يجمـع خـبراء بمختلـف الشـؤون المتطورة، يعينون أولي الأمر على الاطلاع على الواقع من تلك الشـؤون. ولا يشـترط لـدخول هذا المجلس إلا الخبرة بالشؤون المتطورة... فلذلك يدخله غير المسـلمين؛ مـن أهـل الذمـة،

٣٥ الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص: ٦.

٣٦ ناصر سبحاني، **الولاية والإمامة**، ص: ١٥٣.

كالمسلمين"[٣٧]. ثم يذكر الشهيد طبيعة وظائف المجلسين، فمجلس أولي الأمر واجبهم: الكشف عن أحكام الله، بينما واجب الخبراء: اطّلاع أولي الأمر على الشؤون المتطورة من حياة الأمة، باعتبارهم نواب الأمة. ولهذا لا يدخل أحد مجلس الأمة، إلا أن يُنتخب من قبل الناس.

٣ـ ثم إن سبحاني يرى أن بلوغ مكانة هيئة أولي الأمر ليس بحاجة إلى انتخاب من المؤمنين، أو وصية من إمام آخر، بل هو حصيلة اقتحام عقبة ابتلائية، واتصاف بخصال مؤهلة، وذلك أمر كسبي قد دُعي إليه كل مؤمن.. ولذا لا يجوز تحديد العضوية في مجلس الشورى بعدد معين، ولا حصرها في زمان محدَّد، لأن ثبوت العضوية، وانتفاءها، تابعان لوجود الشروط وعدمها.. بينما لا يدخل المجلس الثاني (مجلس الخبراء)، أو (مجلس النواب)، إلا من ينتخب. ولهذا يسوغ في العضوية فيها التحديد بعدد فيه الكفاية، أو بزمان معين لمدة العضوية، أو ما إلى ذلك[٣٨]. ❐

٣٧ ناصر سبحاني، المصدر نفسه، ص: ١٦٠.

٣٨ ينظر للتفاصيل: المصدر السابق، الصفحات: ١٥٦-١٦٠.

الحج

أسـرار ومعان

هفال عارف برواري

✍ لا شك أن الحج من أركان الإسلام، وهو دعامة من دعامات الإيمان، مـن أداه فـاهماً حق الربوبية، عارفاً مقام العبودية، وأخلص لله النيـة، فأقبـل عليـه تائبـاً مـن ذنبـه، شـاكرا لأنعمه، وجلاً من خشيته، طامعاً في رحمته، رجع من ذنوبه كيـوم ولدتـه أمـه. ولمـا كانـت أعمال الحج تؤدى مع عناء ومشقة، وفيها يفارق الحاج وطنه وولدانه، ويعطل أعماله؛ من زراعة أو تجارة، فقد فرض الله تعالى الحج مرة واحـدة عـلى الفـرد المسـلم البـالغ، ذكـراً أو أنثى، متى استطاع أن يؤديه. قال تعـالى: {وَلِلَّهِ عَـلَى النَّـاسِ حِـجُّ الْبَيْـتِ مَـنِ اسْـتَطَاعَ إِلَيْـهِ سَبِيلاً، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ}(آل عمران:٩٧). وَقال - علَيه الصلاة والسـلام -: (الحج مرة واحدة، فمن زادَ فهو تطوع).

والمتمعن في الحج يجده مظهراً من مظاهر عز الإسـلام، وتوحيـد الكلمـة بـين المسـلمين، وإنه لشـرف أن يجهد الإنسان نفسه، ويبذل ماله لخالقه ورازقه، لهذا الـركن العظـيم {ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعـون و اديـاً إلا كتـب لهـم ليجـزيهم الله أحسـن مـا كانوا يعملون}(التوبة).

وفي عبادة الحج إظهار العبودية، وشكر نعمة الله على عبده. وإظهار العبودية يقتضي من العبد ترك الرفاهية، والتجرد من الزينة، ليعود العبد الى الخضوع والذلة، كما يبدو ذلك في حالة الإحرام، وغيره من العبادات البدنية. وشكر الله على نعمه يتمثل في العبادات المالية؛ كأداء الزكاة، والحج، الذي يجمع بين العبادة البدنية والمالية.

ومع ذلك، فإن الحج لم يفرضه الله إلا على من توافر لديه المال الكافي، وصحة البدن، ومن ثم كان في أداء الحج شكر لله على النعمتين. وفي ذلك تحقيق لدعاء إبراهيم - عليه السلام - في أن يجعل الله قلوب الناس تحن وتهوي إليه: {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون}.

ومما لا شك فيه أن الحج ابتلاء في النفس، فإن المفروض في الحاج أن يتعرض لأجواء مختلفة لا يألفها، وأن يتناول أطعمة لم يتعودها، كما أنه يهجر أحباءه وأوطانه، من أجل زيارة بيت الله الحرام، مهما بعد هذا البيت عن وطنه. ولا يخفى أن في مفارقة المحبين، وما هو مرتبط بهم من رغبات الدنيا، على اختلاف أنواعها، مشقة وعسر، مع ما في السفر من المشقة على النفس، لأن السفر مهما تيسر فهو قطعة من العذاب. وإذا صبر العبد على الابتلاء في المال والنفس، كان داخلاً في قوله تعالى: {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}، وإذا أحسن أداء حجته، نال من الثواب ما وعد على لسان خير البشر: من حج، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه. والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.. ناهيك بتعارف المسلمين، وتبادل المنافع بينهم.. والتعارف سبب من أسباب المحبة.. ومن هنا شرع الله صلاة الجماعة، والعيدين، وأعظم من ذلك كله الوقوف بـ(عرفة)، الذي يعتبر بمثابة مؤتمر إسلامي يجتمع فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها كل عام، واجتماعهم بعد ذلك في (منى)، ليتدارسوا أحوالهم، ويقرروا مصائرهم، ويوحدوا كلمتهم.

العشر من ذي الحجة، والأسرار وراء عظم أجرها:

روى البخاري في صحيحه، من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: (ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام -يعني الأيام العشر- قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء) رواه الطبراني. وفي رواية أخرى: (ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إلى الله العمل فيهن من أيام العشر، فأكثروا فيهن من التسبيح والتحميد

والتهليل والتكبير)، (أي: أكثروا فيهن من قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلـه إلا الله، والله أكبر) .

وكأن الله - سبحانه وتعالى - يريد أن تنتهي السنة في شهر ذي الحجة بـذكر الله والتعبئـة الإيمانية، التي تعيننا على دخول السنة الجديـدة في محـرم - الـذي يمثـل أول أشـهر السـنة الهجرية - ونحن ممتلؤون بطاقة وحيوية وهمّة تعيننا على العطاء أكـثر فـأكثر، وقـد غُفـر لنا ما تقدم من ذنوب.

وكيف لا يكون فضل هذه الأيام العشـر، وقـد تجمعـت فيهـا أمهـات العبـادات، وهـي: (الصلاة والصيام والصدقة والحج).. لذلك نرى أمثال (سعيد بـن جبـير) يجتهـد في العبـادة اجتهاداً، حتى ما يكاد يقدر عليه!

لذلك فليس كل من عجز عن حج البيت الحرام، محروم!

فمن عجز عن حج البيت، لسبب أو لآخر، أو لأن البيت منه بعيد، فلا يستطيع الوصول، فليقصد رب البيت! فإنه أقرب إلينا من حبل الوريد..! فيا حسـرة على مَن انقطع عـن رب البيت..

فالإعجاز المكاني ضيق (الكعبة، وما حولها).. ولكـن الإعجـاز الزمـاني تمتلكـه أنـت في أي مكان! فآدم كان يمتلك جنتين: جنة ٌمكانية ضيقة، وجنة زمانية؛ يتقـرب فيهـا إلى الله - عـز وجل - في أي مكان، ألا وهي قلبه..!

فأنت تتعرف إلى الله بالسير إليه، وبالتعرف تسير إليه..!

ولهذا كان الحج في آخر السنة.. فسبحان من جَمّل الختام.

لذلك هناك قاعدتان تقولان:

١- ليست العبرة بكمال البدايات، بل بإتمام النهايات.

٢- ليس كل تقصير يمنع التشمير، فمن تحرك تحَرّض، ومن تحرّض تحرك.

لذلك يجب أن تكون لك في آخر السنة (نَفاسة ومنافسة)!!

(نَفاسة ذاتية): أي هي إذكاء العمل الصالح، وتتمثل بـ :

١- غسل سوآته (تطهير داخلي).

٢- تجديد أشواقه (معدنك من الداخل).

٣- رفع عواطفه.

لذلك، فأنت تتدرب على سنة جديدة، فعليك:

١- أن يكون عملك عملاً (نوعياً).. ولهذا ذكرت أحاديث كثيرة تبين أن الحـج مـن أفضـل العبادات.

٢- لا تدخل السنة مثلما كنت! فإن كنت مع المتميزين، فكن الأميز..؟

و(منافسة)، كما أخبرنا القرآن الكريم في الحث على المنافسة:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}(الإسراء).

التشويق الإلهي للحجّ:

١- قال تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}(سورة الحج).

٢- وقال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}(سورة آل عمران/ ٩٦- ٩٧).

٣- {إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}(سورة إبراهيم/ ٣٥).

٤- {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}(سورة إبراهيم/ ٣٧).

التشويق النبويّ المُحمّدي:

١- إنه من أفضل الأعمال إلى الله:

فإن النبي ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: "إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم الحج المبرور" (رواه مسلم).

٢- إنه أفضل الجهاد:

عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: "لكن أفضل الجهاد: حج مبرور" (متفق عليه).

٣- الحج جهاد المرأة:

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قلت يا رسول الله! ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور" قالت عائشة: فلا أدَعُ الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ "(متفق عليه).

٤- إنه يمحق الذنوب:

روى البخاري في (صحيحه)، وعند مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (من حج لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه)، وفي رواية له أيضًا: (من حج هذا البيت فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه).

٥- مغفرة الذنوب، وعدم الفقر:

قال الرسول ﷺ: (تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد). (رواه أحمد، والترمذي، والنسائي).

٦- إنهم وفود الله - عز وجل -، ودعاؤهم مستجاب:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "الحجّاج والعمّار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم" (رواه النسائي).

٧- ثوابه الجنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ" (رواه الشيخان).

٨- ومن خرج من بيته يريد الحج ثم مات، أجرى الله عليه أجر الحج إلى يوم القيامة:

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: "من خرج حاجاً، فمات، كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة. ومن خرج معتمراً فمات، كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة. ومن خرج غازياً فمات، كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة" (رواه أبو يعلى).

ويبعث من مات في الحج ملبياً:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ وَاقِفٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَرَفَةَ، إِذْ وَقَعَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَوَقَصَتْهُ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: "اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْهِ اللَّذَيْنِ أَحْرَمَ فِيهِمَا، وَلاَ تُحَنِّطُوهُ، وَلاَ تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا". (رواه البخاري ومسلم).

٩- الإنفاق فيه عظيم:

عن بريدة - رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ قال: "النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله، بسبعمائة ضعف". (رواه أحمد، والبيهقي، وصححه السيوطي)

١٠- الحاج في ذمة الله وحفظه:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "ثلاثة في ضمان الله - عز وجل: رجل خرج إلى مسجد من مساجد الله، ورجل خرج غازياً في سبيل الله، ورجل خرج حاجاً". (رواه أبو نعيم، وصححه الألباني).

تأملات في سورة الحج:

عند تأمل هذه السورة لا نجد سورة باسم ركن من أركان الإسلام سوى ركن الحج! وعندما نتمعن في هذه السورة نرى أنها تركز على أربع نقاط متسلسلة في فقرات السورة، وهي كما يلي:

١- يوم القيامة.

٢- البعث والنشور.

٣- الجهاد في سبيل الله .

٤- العبودية الشديدة والخضوع الشديد لله.

يقول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}.

{يا أيُّها النَّاسُ إن كنتم في ريبٍ منَ البعث فإنَّا خَلقْناكم من تُرابٍ ثمَّ من نُطفة ثمَّ من عَلَقةٍ ثمَّ من مُضغةٍ مُخَلَّقةٍ وغيرِ مُخلَّقةٍ لِنُبيِّن لكم ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاءُ إلى أجلٍ مسمّى...}.

فيوم عرفة تشبيه صغير ليوم القيامة، والمزدلفة تشبيه صغير للبعث من القبور؛ عند المبيت فيها، والقيام من النوم، لإتمام أعمال الحج، وكأنه البعث لإتمام الحشر والحساب!

ثم ينتقل بنا القرآن إلى قصة إبراهيم - عليه السلام -، وكيف طهر هذا البيت، ليؤمر بالأذان بأداء مناسك الحج فيه بعد الإتمام، ليؤكد على وحدة الأصل البشري؛ فجميعهم من آدم، عبيد لله. ودلالة إتمام العبودية هي.. الحج إلى بيت الله على الأرض، وعندما يخضعون تمام الخضوع له سبحانه وتعالى.. لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: {وأذّن في الناس بالحجِ}. والمتأمل في كل آيات القرآن يجد أن كل أمر من الله – عز وجل – لعبادته، يبدأ بقوله: {يا أيها الذين آمنوا}، لأنهم هم المعنيون بالعبادة، وهم الذين يؤمنون به.. أما لبيان حقيقة ما، فإن الله يعمّ في القرآن كل عباده بقوله: {يا أيها الناس}.. إلا في الحج، فهي دعوة لكل الناس، أي بمعنى آخر هي دعوة من الله – عز وجل – للإيمان به، ولأن الحج هو العبادة الوحيدة التي يتفرد بها دين الإسلام عن سائر الأديان، فلكل دين صلاة وصيام وذكر إلا الحج، فهي عبادة ينفرد بها الإسلام وحده! وهذا سر نداء الله – عز وجل – للناس أجمع بالحج!!

ثم تبدأ الفقرة (٣)، وهي تدريب الأمة على الجهاد والكفاح في سبيل الله، بعد أن تجاوزوا الجهاد النفسي والروحي والبدني والمالي في الحج، وتدربوا تدريباً (عملياً)، في سبيل الوصول لإتمام هذا الركن العظيم!

{أذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير}

ثم تأتي الفقرة (٤)، والتي تشير - بعد كل هذه المراحل - إلى العبودية والخضوع الشديد لله تعالى، فقال عز من قائل:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}.

وليس ثمة كناية أبلغ وأوضح من هذه الآية التي تصور أن كل شيء؛ من سماوات وأرض، وما فيها من دابة، يعبدون الله، ويسجدون له - سبحانه وتعالى-. يتبين لك هذا المشهد، وهذه الصورة، في (عرفة)، فإنك تستشعر وكأن السماوات والأرض ساجدة لله!

ومن أعظم مشاهد العبودية هي السجود لله تعالى، فأول آية نزلت فيها آية السجدة هي في آخر (سورة العلق)، قوله تعالى: {واسجد واقترب}، إشارة إلى الرسول ﷺ وأمره بالسجود وحده، وفي آخر (سورة الحج/ آية ٧٧) تشير إلى سجود الأمة كلها!

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

مواقيت الحج:

إن كل عبادة لها مكان أو زمان محدد، فالصلاة – مثلاً - لها زمان، ولكن ليس لها مكان محدد. وكذلك صوم رمضان. وحتى العمرة، فهي عبادة محددة بالمكان، أما الزمان فتجوز في أي وقت.. ما عدا عبادة الحج، التي لا تتم إلا باجتماع الزمان والمكان، في أعظم أيام الله، وفي أقدس أماكن الله، في بيت الله الحرام، وفي المسجد الحرام، وفي البلد الحرام، فيجتمع فيها شرف المكان مع شرف الزمان (الشهر الحرام).

المواقيت الزمانية:

وهي شهر شوال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة، أي الأيام العشر من بداية ذي الحجة. وهي أشهر الحج التي ورد ذكرها في قوله تعالى:

{الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج}.

فالحج أشهر معلومة، أي إن الحجّ يجب في أوقات محدّدة من كل عام، فمن فرض على نفسه الحج في ذاك الوقت، فقد دخل مباشرة في الفرض الذي أمره الله، وعليه من تلك

الساعة ألّا يرفث ولا يفسق، وكل هذا قبل المباشرة في المناسك. أما في الحج، فلا جدال، لأنه تدرّب على عدم الرفث والفسوق!

المواقيت المكانية:

وهي خمس مناطق، بتوقيت النبي ﷺ. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: وقَّتَ رسول الله ﷺ لأهل المدينة (ذا الحُليفة)، ولأهل الشام (الجُحفة)، ولأهل نجد (قَرنُ المنازل)، ولأهل اليمن (يَلَمْلَم)، فهُنّ لهُنّ، ولمن أتى عليهن من غير أهلهن، لمن كان يريد الحج والعمرة، فمن كان دونهن فَمُهَلُّهُ من أهله، وكذاك حتى أهل مكة يُهلّون منها.

وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ وَقَّتَ لأهل العراق (ذات عرق)، ولم يبلغ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هذا الحديث، فحدد لأهل العراق (ذات عرق)، وهذا من اجتهاداته الكثيرة التي وافق فيها السنة.

والواجب على من مرّ على هذه المواقيت أن يُحرم منها، ويحرم عليه أن يتجاوزها بدون إحرام، إذا كان قاصداً مكة يريد حجاً أو عمرة، سواء كان مروره عن طريق البر، أو البحر، أو الجو.. والمشروع لمن توجه إلى مكة عن طريق الجو، بقصد الحج أو العمرة، أن يتأهب قبل الركوب في الطائرة، وذلك بالغسل، ولبس الإزار والرداء للرجل، ولباس النساء إحرام لهن، على أن يوافق الشرع.. ولكن لا ينوي الدخول في الإحرام، ولا يلبي، إلا إذا حاذى الميقات، أو دنا منه؛ لأن النبي ﷺ لم يحرم إلا من الميقات، فإذا دنا من الميقات عقد النيّة ولبى بما يريد من حج أو عمرة.

وأما من كان مسكنه دون هذه المواقيت؛ كسكان: جدة، وبحرة، والشرائع، وغيرها، فمسكنه هو ميقاته، فيحرم منه بما أراد من حج أو عمرة. أما أهل مكة فيحرمون بالحج وحده من مكة، أما العمرة فيخرجون الى مكان الحلّ.

ومن أراد الإحرام بعمرة أو حج، فتجاوز الميقات غير محرم، فإنه يرجع ويحرم من الميقات، فإن لم يرجع، فعليه دم؛ لقول ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: من نسي من نسكه شيئاً، أو تركه، فليهرق دماً.

أما من توجه إلى مكة ولم يرد حجاً ولا عمرة، وإنما أراد التجارة، أو القيام بعمل من الأعمال، له أو لغيره، أو زيارة لأقربائه، أو غيرهم، ونحو ذلك، فليس عليه إحرام، إلا أن يرغب في ذلك؛ لقول النبي ﷺ حينما وقّت المواقيت: هن لهن، ولمن أتى عليهن من غير أهلهن، لمن كان يريد الحج والعمرة. فمفهومه أن من مر على المواقيت، ولم يرد حجّاً ولا عمرة، فلا إحرام عليه. ويدل على ذلك أيضاً، أن النبي ﷺ لما دخل (مكة)، عام الفتح، لم

يدخلها محرماً، بل دخلها، وعلى رأسه المغفر، لكونه لم يرد حينئذ حجاً ولا عمرة، وإنما أراد فتحها، وإزالة ما فيها من الشرك.

لذلك تكون المواقيت المكانية، كما هو مبين:

١- ذو الحُليفة (أبيار علي، حالياً)، ميقات أهل المدينة (٤٥٠كم).

٢- الجُحفة (رابغ، حالياً)، ميقات أهل الشام ومصر والمغرب وتركيا (١٨٣كم).

٣- يَلَمْلَم (السعدية، حالياً)، ميقات أهل اليمن والهند (٩٢ كم).

٤- قَرن المنازل (السيل الكبير)، ميقات أهل نجد (٧٥كم).

٥- ذات عرق (الضريبة، حالياً)، ميقات أهل العراق (٩٤كم).

٦- مكة، ميقات أهلها، ومن يقيم فيها، ويسكنها.

المعنى الإجمالي:

يتبين فيما ذكر أن هذه المواقيت قد وضعها الرسول ﷺ بوحيٍ من الله - عز وجل -، في السنة الفعلية العملية، لكي يستشعر الحاج التعظيم والتكريم والتقديس والإجلال لهذا البيت، وأنه دخل الحرم المكاني والزماني لله تعالى، فلا يجوز له الدخول إلا بأن ينخلع من كل زخارف الدنيا؛ الظاهرة والباطنة، وبذلك يستشعر هيبة الله في وجدانه وكيانه، وتعظيم هذا البيت وتقديسه، إذ جعل له هذا الحمى، الذي لا يتجاوزه من قصده بنسك، إلا وجاء معظّماً، مكرّماً، خاشعاً، خاضعاً، بهذه الهيئة الخاصة، لا يحل لمن أراد نسكاً تجاوزها بدون إحرام.

المعاني العميقة في مناسك الحج

أولاً- النية لأداء فريضة الحج:

إن الحج يعتبر إحياء (للملة الإبراهيمية) الحنيفة، في كل عام. والملة هي العقيدة. والحنيفة؛ أي البعيدة والمبرئة من الشرك.. أي الوحدانية لله(للعلم كلمة (التوحيد) كلمة خاطئة لغوياً، لأنها توحي بوجود إله حق من بين عدة آلهة!! وهذا خطأ، حيث لا إله إلا الله، والكلمة الصحيحة هي الوحدانية).

وكما نعلم أن كل عمل لكي يكون مقبولاً، يجب أن تسبقه نية. لذلك، فاستحضار النية قبل الإقدام على الحج هو من أهم الأمور، وكما أخبرنا الرسول ﷺ: (إنَّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكل أمريءٍ ما نوى)، فكيف وهذا العمل قد فُرض مرّة واحدة فقط في العمر كله؟

ويعتبر الحج من أركان الإسلام الخمسة، بل هو الركن الأعظم، لأنه تجتمع فيه الأركان الأربعة الباقية، بل تشمل كل المعالم المتعقلة بعقيدة المسلم:

١- فشهادة الوحدانية، الذي هو الركن الأول في الإسلام (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، تقولها مرة واحدة لكي تدخل الإسلام، بينما في الحج تعلن معاني التوحيد (لا إله إلا الله) مراراً وتكراراً، عند التلبية (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، لبيك).. أما (محمد رسول الله)، فتتمثل في الحج بالفعل والعمل بما أمرنا رسول ﷺ ، بأن نقتدي به في كل خطوة من خطوات الحج، حيث قال عليه الصلاة والسلام: (خذوا عني مناسككم)؛ سنة عملية فعلية.

٢- أما الركن الثاني (الصلاة).. فالصلاة هي التذلل لله، والانقطاع إليه، وكذلك الإحرام فهو من أكبر مشاهد التذلل لله تعالى. كما أنه - سبحانه وتعالى - أمرنا بأن نجعل من مقام إبراهيم مصلى؛ نُصَلّي فيه صلاة نسافر بأشواقنا وكياننا، لكي نصل إلى مقامات إبراهيم، ومواقفه، في كل مناسك الحج. فكلمة مصلّى توحي إلى الوجهة والمكانة التي كان إبراهيم يعمل على تثبيتها، وليس أن نجعل من المقام مكان صلاة، نتصارع في ذاك الموقع خلف المقام عليه، مع أنه قد تغيّر مكانه مع مرور الزمن.!

٣- أما الركن الثالث (الزكاة)، فإن الإنفاق في سبيل الوصول إلى الحج، وكذلك إهداء الهدي، وإطعام الكفّارات، هي تزكية تربوية بالمال!

٤- أما الركن الرابع (الصيام)، فالصيام تهذيب نفسي، والحج أكبر محفل لتهذيب النفس؛ بالذهاب والإياب، وتحمّل المشقّات، مع الحرص على السلوك الطيب مع الحجاج، {فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج}. وكذلك عند عدم استطاعته إهداء الهدي، وذبحها، فعليه الصيام، قال الله تعالى: {فمن لم يجد، فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم}..

وكما قلت، فإنها تشمل أيضاً كل المعالم المتعلقة بعقيدة المسلم؛ من ولاء وبراء، وسمع وطاعة، وعبادة الذكر والتسبيح والدعاء.. لذلك يعتبر الحج نموذجاً مختصراً لكل معالم الإسلام، وما يتضمنه من معان عظيمة، تتجلى بأبهى صورة في الركن الأعظم في الإسلام (الحج).

فلنستحضر النية الصادقة مع الله في هذه الرحلة العظيمة، التي لن تتكرر - غالباً - إلا مرة واحدة في عمرنا القصير!

ملابس الإحرام:

قبل البدء بإحرام جسدك، أذكرك بإحرام قلبك! لكي تستشعر إحرام جسدك..

يعتبر الإحرام ركناً من أركان الحج والعمرة، الذي هو نية الدخول في النسك. ومن أعماله: التجرد من لبس المخيط والمُحيط، والذي هو للرجل عبارة عن قطعتين من القماش؛ هما إزار ورداء أبيضان طاهران، يغطيان جسمه العاري. أما المرأة، فتلبس ما تشاء من اللباس الساتر، دون أن تتقيد بلون وشكل محدد. ولا يجوز تجاوز المواقيت المكانية المحددة، إلا وقد أدّيتَ هذا الركن.

- والإحرام يوحي إليك بعظمة الموقف، كيف وأنت تتجاوز حدود حرم بيت الله المعظم بهذا اللباس، ولا يجوز لك أن تخطوَ خطوة واحدة نحو بيته على الأرض، إلا وقد لبست لباس الخضوع والخشوع تجاهه سبحانه وتعالى، فيزيدك خضوعاً وخشوعاً ومهابةً.

- وهو يشعرك بأنه كالكفن الملفوف حول الميت، وكأنك من الأموات، أي أنك بحكم الميت، فهذا اللبس يُرتّب عليك ضوابط وواجبات تذكرك بأنك كالميت؛ فلا تنزع شعرة من شعرات جسدك، أي أنك تصل إلى مرتبة من التقوى من الله في عدم نزع شعرة واحدة! وكذلك أظافرك! فكيف بالذنوب، وأنت تحاسب على شعرة؟!

- وكذلك يفرض عليك عدم استخدام شهوتك الجسدية، كأنك خرجت من نوازعك الشهوانية، فأنت بذلك تتجرد إلى الله - سبحانه - في أرضه المحرمة والمباركة، ليكون ذلك منتهى التسليم لله، وتزيد من أشواق القلب نحوه، حيث لا نوازع جسدية، ولا شهوانية، ولا شكلية، تكون عائقاً أمام هذه الأشواق المتدفقة إلى باريها - سبحانه وتعالى -.

- وهذه الملابس تزيل كل العوائق والمظاهر والزخارف البشرية بين الناس، فلا فرق بين فقير أو غني، كبير أو صغير، أبيَض أو أسود، حاكم أو محكوم، جاهل أو عالم، الكل متساوون في المظهر، فيكون ذلك سبباً في الانطلاقة الإيمانية نحوه - سبحانه تعالى - بدون ضغوط أو عوائق نفسية.

- وتلك الملابس تذكرنا بالاجتماع البشري المبرم حتماً في المستقبل، وفي أرض فلاة مستوية في المحشر، والكل عارٍ، ولا أحد ينظر إلى أحد؛ لهول الموقف، وأول ما تبدأ به قبل الحساب هو الإكساء، وستر العورة، وكل حسب درجته..

كل هذه المشاعر تجتمع في ذهن المحرم، فيزداد انطلاقة وتقوى وخضوعاً وخشوعاً وتذللاً لله - سبحانه -، في موقف اجتمع فيه شرف الزمان (أيام الحج)، وشرف المكان (بيت الله الحرام)، وشرف البدن (المُحْرِم).

التلبية:

أعظم شعار، وأعظم نشيد، هو شعار الوحدانية (التلبية)، والتلبية معناها (الاستجابة)، أي هو شعار تلبية لنداء الله إلى عبيده! الذين اختارهم الله لزيارته!

●إذاً، هو دلالة على قَبولك أن تكون مُزاره، فأنت من الذين أحبّهم الله!

لذلك يتلقى العبد الاستجابة والقَبول بالتلبية منادياً بأعلى صوته، دلالة على فَرحه بهذا القبول، وهذه الاستضافة الربانية له، فينشد شعار الوحدانية الخالد: (لبيك اللهم لبيك).. أي بلى يا رب، لبينا زيارتك.. (لبيك لا شريك لك لبيك).. لبينا، يا مَنْ لا شريك له.. (إنَّ الحمد والنعمة لك، والملك).. فكل نعمة منك، والملك لك، فلك الحمد والمنَّة.

(لا شريك لك).. لذلك نؤكد - مرةً أخرى - أن لا شريك لك.. إنه لواء الوحدانية، نرفعه ونعلنه أمام الملأ..

●ويعتبر هذا الشعار تعبيراً عن قصة التحدي بين الله - عز وجل - وبين الشيطان! عندما ذكر الله – سحانه - تحدي الشيطان في قوله: {ولا تجد أكثرهم شاكرين}!! فقولك: (إن الحمد والنعمة لك، والملك)، هو إعلان عن شكرك لله، وعصيانك لمرام الشيطان.. وقال تعالى: {إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان}، فأنت بإعلانك عن هذا الشعار العظيم، تثبت أنك من جند الله، وعباده المطيعين، وأن الشيطان قد كذب، وأنه ليس له عليك سلطان!

● وهو فصل لقضية كونية زمنية أبدية، وحكمة واجبة، وهو زلزالٌ للكون! لقضية الصراع الأزلي بين جند الله، وجند الشيطان..

وكما أخبرنا - عز وجل - في كتابه الحكيم، حكاية عن الشيطان: {...لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثر شاكرين}.

ولهذا يقول الله - عز وجل - في كتابه الحكيم، ويحثنا على تلبية دعوته، بقوله سبحانه: {استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم..}، والحج أجلى صورة للاستجابة، فلا غرابة أنه لم يُرَ الشيطان أصغر ولا أذل ولا أحقر ولا أخزى من يوم عرفة! لرؤية كثرة الرحمات التي تنزل على عباد الله؛ حجاج بيت الله، وغفرانه لهم جميعاً!

فلا عجب من عظمة وأجر وثواب من يكثر من هذه التلبية، في الأحاديث النبوية: قال ﷺ أنه قال:

١- (خير الحج العجّ والثجّ)، رواه الترمذي، وحسنه الألباني.. أي: تعج بالنداء للشعار الخالد، والناصع، شعار الأنبياء كلهم، وترددده مراراً. أما الثج، فيعني كثرة ذبح الهدي..

٢- (من أضحى يوماً محرماً، ملبياً، حتى غربت الشمس، غربت بذنوبه، كما ولدته أمه). رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجة.
٣- (أتاني جبريل وقال : مُر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية، فإنها شعار الحج). رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجة.
٤- (ما أهَلَّ مُهِلّ، إلا آبت الشمس بذنوبه).
٥- (ما أهَلَّ مُهِلّ، ولا كبّرَ مُكَبِّر، قطّ، إلا بُشِّر، قالوا: يا رسول الله (بالجنة)، قال ﷺ: نعم). رواه الطبراني.
٦- (ما من مسلمٍ يلبِّي إلَّا لبّى من عن يمينه أو عن شماله؛ من حجرٍ أو شجرٍ أو مدرٍ، حتَّى تَنقطعَ الأرضُ من هاهنا وَهاهنا). رواه الترمذي، وابن ماجة، والبيهقي.

الاضطباع:

وهي تدخل في أعمال الإحرام، وتعني قيام المحرم بكشف كتفه الأيمن، أثناء طواف القدوم فقط (وهي سُنَّة).. لماذا؟

إنه تعبير عن قوة المسلمين، وله معنى تاريخي، عندما أراد رسول الله ﷺ أن يقوم بعمرة مع صحابته، في السنة السادسة للهجرة، ولكن قريش منعتهم، فجرت مفاوضات، انتهت بصلح لمدة ١٠ سنوات، سمي بـ(صلح الحديبية)، على أن يعود الرسول والمسلمون هذا العام، ويقوموا بالعمرة في السنة القادمة. فلما أراد الرسول ﷺ القيام بعمرة القضاء، عام ٧ هجرية، رُوِّجت دعاية من قبل المشركين أن محمداً وأصحابه في شدة وعسر، وزين الشيطان ذلك في نفوسهم، حتى هَمّوا بالانقضاض عليهم. وعلم رسول الله ﷺ بذلك فقال: (رَحِمَ الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة)، فكشف الصحابة عن أكتافهم، لكي ترى قريش أنه ليس بهم أذى، وأمر الرسول بـ(الرَّمَل)، وهي عبارة عن هرولة خفيفة، مع هز الأعضاء، في الأشواط الثلاثة في طواف القدوم فقط. وتعتبر سُنة.

فرأت قريش بأم عينها مظاهر القوة، فذهبت وساوسهم من نفوسهم، وبقى الاضطباع والرَمَل سُنّة ترمز إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون دائماً، من القوة!! والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.. فالحج لم يهمل استشعار الحاج بالهمة والقوة في أول شعيرة يعملها!

ثانياً- الطواف:

يعتبر الطواف ركناً من أركان العمرة عند القدوم، وهو ركن من أركان الحج، يسمى بطواف الإفاضة، والذي يكون بعد يوم عرفة، وهو عبارة عن القيام بالطواف حول الكعبة المشرفة بسبعة أشواط، عكس عقارب الساعة.

وهو يعتبر من العبادات التي ترمز إلى رمزية الكون القائم على الحركة والدوران حول مركزه، وبانتظام.

● وكأن الله - عز وجل - يعلمنا في هذا المنسك، أن نتعلم الانسجام والانتظام والتضامن مع نغمات لحن الكون الرائع، والقائم كله - من أكبر وحداته، إلى أصغر وأدق جزء فيه - على الدوران حول مركزه، ليبلغ الانسجام مع الكون غاية الجمال والكمال.. والغريب أن كل دوران في هذا الكون يكون بعكس عقارب الساعة، وكذلك الطواف. ومن الجوانب العلمية في الحج، هو اكتشاف أهمية (الدوران الموجب)، الذي هو (عكس عقارب الساعة)، فمنذ /١٤٠٠/ عام والمسلمون يدورون حول الكعبة (عكس) عقارب الساعة، وهو قانون الدوران العام في الكون، والسادة المولوية يدورون عكس عقارب الساعة، دون أن يصيبهم الدوار.. لذلك يعرف علماء الرياضيات، والفلك، وغيرهم، أن الدوران (الموجب) هو عكس عقارب الساعة!

١- ففي الذرة، وجدوا أن الالكترونات تدور حول النواة، في حركة لولبية، وبعكس اتجاه عقارب الساعة!

٢- وفي داخل الخلية، يدور البروتوبلازم حركة دورانية عكس عقرب الساعة.

٣- والدم يتحرك وينتقل إلى القلب في الدورة الدموية الكبرى، عكس عقرب الساعة.

٤- والبيضة تخرج من المبيض إلى قناة الرحم، بحركة دورانية حول محورها، عكس عقرب الساعة، والحيوانات المنوية تحيط بها، وتدور حولها، عكس عقرب الساعة، والأرض تدور حول محورها، وحول مركزها (الشمس)، عكس عقرب الساعة.

٥- والقمر تدور حول محورها، وحول الأرض، عكس عقرب الساعة.

٦- والمجموعات الشمسية تدور حول مركز المجرة، عكس عقرب الساعة.

٧- والمجرات تدور حول مركزها، وهو التجمع المجري، عكس عقرب الساعة.

٨- والتجمع المجري يدور حول مركز الكون، الذي لا يعلمه إلا الله، عكس عقرب الساعة.

● وكأن الله يعلمنا أنَّ لكلِ وجهَة ومركزاً وقبلةً، يتوجه وينجذب إليها، ويدور حول فلكها. كما أخبرنا ربنا في كتابه العزيز: {لِكُلٍ وِجهةٌ هو موليها}، فها قد آن الأوان أن ندور

حول مركز توجهنا في حياتنا، وقبلتنا، التي نقوم بالتوجه إليها، بكل كياننا ووجداننا، خمس مرات في اليوم الواحد، ونتذكر قوله تعالى {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ...}، ويعلمنا الله في هذا المنسك أنَّ الأصل في الحياة هو التحرك، وأنَّ الحركة هي من سنن الكون، وكل جزيئة من جزيئات الكون في حركة مستمرة دون توقف، فالتوقف ليس من سنن الكون، بل إنَّ التوقف هو التأخر بعينه، كما قال الله تعالى في كتابه: {لِمَن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر}، لذلك نرى أن الحج يبدأ بالطواف (طواف القدوم)، وينتهي بالطواف (طواف الوداع)، وبينهما طواف النافلة! لذلك فالطواف يعتبر طوافَ أصل الوجود!

- وكذلك يعلمنا الطواف أنَّ الحركة المنتظمة هي أصل الحياة والوجود، وأنَّ الحركة العشوائية هي نغمة نشاز في لحن الكون، وهي شذوذ عابر؛ كالنيازك التي تفلت من فلكها المنتظم، فتكون النتيجة الانهيار والفناء.. لأن الحياة كلها قائمة على الانتظام، كما بينه سبحانه وتعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ}. {وكُلٌّ في فَلَكٍ يسبحون}، فكل شيء له فلكه، وكل شيء في حركة منتظمة، فبالانتظام تدور الأمور، وبالتخبط تزول الأحوال، لأنها ليست من سنن الكون!

ويعلمنا الطواف أنَّ الخير هو الحركة نحو الانسجام الكوني، والديمومة على ذلك، والشر هو الحركة نحو التباين والفوضى، المؤدي إلى التبعثر.. لذلك لا يمكن للشر أن يدوم، لأنه مناقض للفطرة وقانون الوجود.. ولا يمكننا أن نترك الشذوذ يدوم، أو أن يتزايد!

لذلك لا تستغرب أن ديننا جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز فروض الشريعة الإسلامية.. لذا، فنحن بالطواف نتعلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر! المؤدي إلى الانسجام الكوني وديمومة الحياة! وتستشعر بهذا الطواف أنَّك جزء من هذا الكون الفسيح، الذي يتحرك كل شيء في فلكه، وأنت كذلك جزء من هذا الكون، وترتبط مشاعرك بعظم فلكك الذي يدور حوله كل من في السموات والأرض.

لذلك رويتَ أحاديث عن عظمة هذا المنسك، وأجره عند الله.

قال رسول الله ﷺ:

١- (من طاف بهذا البيت أسبوعاً (أي سبعة أشواط)، كان كعتق رقبة)، رواه الترمذي والنسائي.

أتريد أن تعرف قدر عتق رقبة!

يقول الله - عز وجل -: {فلا أقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة.. فك رقبة}.. أي أن اقتحامك وخلاصك من العقبة، هو في عتق رقبة! يقول الرسول ﷺ: (من أعتق رقبة، أُعْتِقَ بكل عضو منه عن النار)!

٢- (استكثروا من الطواف في هذا البيت، فأنه من أجَلِّ ما تجدونه في صُحُفكم يوم القيامة، وأغبطِ عمل تجدونه).

٣- (استمتعوا بهذا البيت، فأنه هُدِم مرتين، ويُرفع في الثالثة). رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه.

مقام إبراهيم:

من السنن المؤكدة بعد الطواف، ومن المستحب صلاة ركعتين خلف المقام، ولكن المقام هو مقام مكانة، وليس مكاناً خلف الحجر المعلوم، فالصلاة تكون في أي مكان، لكن العبرة بما قام به الخليل في هذا المقام، وهو بناء بيت الله الحرام؛ الوجهة والقبلة، وهذا مراد الله في قوله تعالى: {واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلى}.

ومن أجل ذلك جعل لإبراهيم مقاماً عند بيته العظيم ومكانة، والمقام: هو حَجَر موجود بالقرب من الكعبة المشرفة، محفور فيها قدما إبراهيم - عليه السلام - تشريفاً وتكريماً له من قبل الله - عز وجل - لما قام به من عمل جليل عظيم، وهو بناء بيت الله الحرام في الأرض، ليصبح قبلة للمسلمين عامة، وملتقى عالمياً لهم في كل عام، يُعظمون الله تعالى ويوحدونه..

● فالمقام يذكرك بالحديث المروي عن ابن عباس، عندما قال إبراهيم - عليه السلام -: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمرٍ، قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً.

● يذكر الحديث المروي عن ابن عباس أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: (لما فرغ إبراهيم -عليه السلام- من بناء البيت، أمره الله – عز وجل - أن ينادي في الحج، فقام على المقام (ويقال أنه أذَّنَ على جبل أبي قبيس)، فقال: يا أيها الناس، إنَّ ربكم قد بنى بيتاً، فحجوا، وأجيبوا الله - عز وجل -، فأجابوه في أصلاب الرجال وأرحام النساء: أجبنا، أجبنا، اللهم لبيك... قال: فكُلْ من حجّ اليوم، فهو ممَن أجاب إبراهيم على قدر ما لَبّى)!

نعم.. ولهذا أعطي إبراهيم ذلك المقَام، حتى أنَّ العرب في الجاهلية يعرفون ذلك القدر الإلهي لإبراهيم، وكان (أبو طالب) ينشد -من خلال قصيدته اللامية الطويلة -:

وموطئ إبراهيم في الصخرِ رطْبةٌ على قدميه حافياً غير ناعلِ

الأصل أنَّ كل مشاعر الحج هي مقامات إبراهيم، فكل منسك من مناسك الحج يرمز إلى عطائه وكفاحه وعبادته لربه، وتسليمه التام لأوامر الله سبحانه وتعالى.

إذاً العبادة عند المقام هي ركعتين استشعار:

١- تستشعر وحدانية الله، وتنبذ كل الأفكار الهدامة. لذلك كان من السنة أن تقرأ بعد الفاتحة، في الركعة الأولى: (سورة الكافرون).. دلالة على نبذ الكفر والشرك، والتبرؤ منها! وفي الركعة الثانية: (سورة الإخلاص).. دلالة على إخلاصك لله بالوحدانية الخالصة له سبحانه، والتجرد إليه فقط!

٢- وتستشعر بإبراهيم - عليه السلام - وهو الذي دعا لنا فيه!! ودعا ببعثة النبي محمد ﷺ عندما قال: {ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتابة والحكمة ويُزكيهم}.

٣- وتستشعر تقصيرنا بجنب الله، وهو الذي مَنَّ علينا، فنزيد في شكره - سبحانه -: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ}(آل عمران: ١٦٤).

ومنها نتعلم عِظَمَ أجر الصلاة خلف المقام، كما روي عنه ﷺ:

● فعن ابن عمر – رضي الله عنه – أنه قال - في حديث طويل -: قال رسول الله ﷺ: (...وأما صلاتك خلف المقام، فإنها تعدل عتق رقبة من ولد إسماعيل..). فالآية تقول: {فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة ..}! أيّ رقبة.. فما بالك بأن الرقبة التي تعتق هي من ولد إسماعيل - عليه السلام -!

وكذلك ذكر الله تعالى في قرآنه العظيم عن المقام، فقال الله تعالى: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}(سورة البقرة/١٢٥). {فيه آياتٌ بينات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً}..

الحجر الأسود:

بعد الانتهاء من الصلاة، بعد الطواف، من السنة أن تُقَبل الحجر الأسود، إن أمكن. وهو يعتبر رمزاً أهداه الله لنا، ليأتيه كل البشر من أقاصي الأرض، لمسحه واستقباله وتقبيله!

وقد ثبت علمياً أنه ليس من أحجار الأرض، في القصة المشهورة للعالم البريطاني (ريتشارد ديبرتون)، التابع للجمعية البريطانية لجامعة (كمبرج)، والمبعوث من قبل المستشرقين، لإثبات أنه من أحجار البازلت الموجودة ما بين مكة والمدينة! ولكن ثبت أنه ليس من أحجار الأرض، فأسلم حينها. وله كتاب مفصل في جزئين. وكان ذلك عام ١٨٥٦م.

- وروي أن الحجر الأسود يرجع عهده إلى إبراهيم - عليه السلام -، فعندما كان يبني، وابنه إسماعيل يناوله الحجارة، وصل إلى موضع الحجر الأسود، فقال إبراهيم - عليه السلام - لابنه إسماعيل: أبغني حجراً، أضعه ها هنا، يكون للناس عَلَماً، يبتدئون منه الطواف. فذهب إسماعيل يطلب حجراً، ورجع وقد جاء جبريل - عليه السلام- بالحجر الأسود. فقال إسماعيل: يا أبي من أين لك هذا؟ قال: جاءني به مَن لم يكلني إلى حجرك، جاء به جبريل - عليه السلام -، وهو حينئذ يتلألأ من شدة البياض، فأضاء نوراً شرقاً وغرباً..

- وقال - صلى الله عليه وسلم -: (إنَّ مسح الحجر الأسود، والركن اليماني، يحطان الخطايا حطاً). رواه أحمد، وصححه الألباني.

- لذلك كان رسول الله ﷺ، كما روي عن الحاكم، وصححه الألباني، أن النبي ﷺ قَبّلَ الحجر الأسود، وبكى طويلاً، ورآه عمر، فبكى لبكائه، وقال له: يا عُمر، هنا تُسكب العبرات..

- فنرى من يتحرج عن تقبيله.. ويقولون - كما ثبت عن عمر – رضي الله عنه –، في البخاري ومسلم - عندما قال وهو يقبله: (والله، إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يُقَبِلُكَ ما قَبّلتك).. وهذا خطأ في الفهم، لأنه هو الذي كان يُدمى أنفه جراء محاولته لتقبيله الحجر، وقد نصحه النبي أن لا يُزاحم على الرِكن، لأنه يؤذي الضعيف!.. إنَّ عمر – رضي الله عنه – يتكلم ليُعلم الأُمة أنه يفعلها اقتداءً بالنبي، وليس تقديساً، حتى لا يخطئ الفهم أحد.. نعم، نحن نُقبله تشريفاً وتقديراً، لأنه قد قَبلَهُ سيد الأولين والآخرين، وهو مُلتقى شفاه الأنبياء قبله! ولأنه عبد لله، ورمز المحاكاة بين البشر ومبعوث الله تعالى.. وكما قلنا، فنحن لا نقدسه، بل نحبه، ما دام تحت سلطان الله، فهناك علاقة قوية بيننا وبين مخلوقات الله..

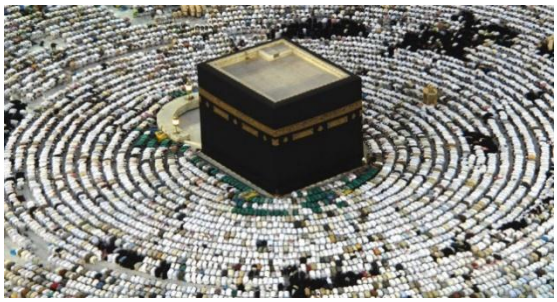

- يقول الرسول ﷺ عن جبل (أحد): (هذا جبل يحبنا ونحبه).

- وفي رواية أخرى : (اثبت أُحُد، فعليك رسول، وصدّيق، وشهيدان)، وذلك عندما اهتز الجبل، لشدة حبه لهم!

- وكما في الحديث الذي يروى على أن كل مَدَر، وكل وَبَـر، وكـل شـجر، إلا ويشـهد عـلى المؤذن الذي يؤذن للصلاة.

- وقصة الكافرين في القرآن، عندما قال الله فيهم: {فما بكـت علـيهم السـماء والأرض...}، أي أنها تبكي على الإنسان الصالح، والمسبح، وإذا مات تفتقد إلى تسبيحه وذكره!

- وكما أخبرنا القرآن عن عرض الأمانة، عنـدما قـال: {إنـا عرضـنا الأمانـة عـلى السـماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً}.

نعم هناك علاقة قوية بيننا وبين مخلوقات الله؛ من الجمادات، وغيرها، من حولنا.. فنحن نحب كل مخلوق لله، نحبه كعبد ومخلوق لله. أما النظر إليه كإله، أو تجاوز الحب إلى التقديس، فلا، ونحن نرفضه.

- والطريقة الصحيحة لكيفية مسحه وتقبيله، إن أمكن، تتمثل في إحدى الطرق التالية:

مسحه باليد، أو تقبيله، أو السجود عليه، ثلاث مرات، أو البكاء عليه، أو مسحه، ومسح الوجه به.

بئر زمزم:

ومن السُنة أيضاً أن تقوم بعد الطواف بشـرب ماء زمزم، هذا المـاء المبـارك، الـذي يعتـبر معجزة ربانية إلى يوم الدين.

فمكة أرض غير ذي زرع، وهي توصف جيولوجياً بـأن صـخورُها صـماء، أي لا يوجـد مـا يبرر وجود الماء فيها. لذلك، فإنها كانت أرضاً غير صالحة للعيش؛ فلا نبت ولا زرع ولا مـاء، ولا ما يستفاد منه حتى كمرعى! ولكن شاءت الأقـدار الإلهيـة أن توجـد الحيـاة فيهـا مـن العدم، فكان (بئر زمزم)، ينبع في أرض لا ماء فيها، لتصبح فيما بعد أرضـاً تهتـز منهـا أركـان عروش الحضارات، وملتقى لملايين الحجاج، ينتعشون بشـرب هذا المـاء المبـارك، الـذي بلـغ عمرهُ أكثر من ٥ آلاف سنة! وما زال بنفس الكفاءة والصلاحية للشـرب، بل كأصلح وأصفى وأنفع ماء على وجه الأرض، تروي أجيالاً وأجيالاً! إنها هَمزةُ جبريل، وسُقيا إسماعيل - عليه السلام-!

نعم.. إن بئر زمزم يـذكرنا بقصـة أُمّنـا هـاجر، ومدرسـة التضـحية.. فقـد جـرى لهـا المـاء باليقيــن، وقَلَّلَتْــها بضعف اليقيــن! كيف..؟

■ فبيقينها قالـت لإبـراهيم - عليـه السـلام - عنـدما تركهـا وحيـدة في هـذه الأرض غـير الصالحة للعيش، لمّا عَلمت أنَّ الله أمر إبراهيم بـذلك، فقالـت قَـولَ المـرأة المتيقنـة بربهـا: (اذهب، فلن يضيعنا الله)!

وسَعَت مجتهدةً لطلب الماء، وكادت أن تهلك؛ هي وابنها إسماعيل.. ولما انفجر الماء؛ بضربة من جبريل - عليه السلام - تحت قدمي إسماعيل، خافت، وقالت: (زم زم)، أي تجمعي، مخافة أن تضيع! (قلة اليقين).. ولذلك قال رسول الله ﷺ: (رَحِمَ الله أُم إسماعيل، لو تركت زمزم، لكانت زمزم عيناً مَعيناً، ولاستفاد منها كما يستفاد مَن النيل والفرات)!

نعم.. إنَّ زمزم تذكرنا بـ(هاجر).. قصة اليقين بالله، والتوكل عليه!

● وتذكرنا هذه القصة بالتحرك والسعي، مع التوكل، في حياتنا.. فباليقين ساهمت في إحياء قوم، وانقاذهم، بعد انهيار (سد مأرب) في اليمن، وتشتت القبائل بين الأمصار.. وجعلت قبيلة (جُرْهُم) يشاهدون، عند مرورهم بالقرب من الوادي، تحليق طيور؛ تشير إلى وجود ماء عذب، لم يكن موجوداً فيها! وليشاهدوا وجود ماء بأسفل الوادي، عليه امرأة مع وليدها! فجعلهم يُلحّون على المرأة الضعيفة، التي تملك ذلك الينبوع، البقاء للعيش بالقرب منه، مع قدرتهم عليها، لكنها شيم القبائل.. وخاصة مع رؤيتهم المعجزة الإلهية في تلك البقعة، التي سيكون لها فيما بعد شأن عظيم.. ناهيك عن شجاعة المرأة في مساومة القوم؛ في إعطائهم الماء مقابل أجر، ورعاية ابنها لكي يتعلم الفروسية والفصاحة العربية!

● وتُذَكّرنا بالتقديرات الربانية، وأن كل تغيير كوني هو بيد الله تعالى، وبيده تصريف الأمور، وتدبيرها.. فإبراهيم -عليه السلام- أطاع الله تعالى في أمره بنقل زوجته وابنه إلى واد غير ذي زرع، ولكن تقديرات الله جعلت ذلك الحدث يتزامن مع انهيار سد مأرب، لكي تنتقل إلى هذا الوادي قبيلة (جُرهم) الأصيلة.. وفي الوقت نفسه، تنفجر بئر زمزم، لكي تكون لهذا الوادي حياة، ويكون له شأن عظيم فيما بعد، ويكون قبلة التوحيد في الأرض، وبزوغ الوحي الخالد للبشرية.. ونتأمل دعاء إبراهيم - عليه السلام - كما اخبرنا الله تعالى، عند ترك عائلته هناك، وخروجه من (مكة) قائلاً: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ من ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}.

● ونتأمل كيف استجاب الله لدعائه..

اذهب إلى ذاك المكان، لترى كيف تهوي القلوب إليه، وكيف انفجرت ينابيع الثمرات على أهله؟!

● ويذكرنا هذا الوادي بقصة حب الأم، وحنانها تجاه ولدها، وأبوه ليس هناك، وكذلك الصبر والمصابرة على تربيته.

لذلك نرى من الأحاديث الواردة في فضله وبركته:

- فعن ابن عباس – رضي الله عنه – أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم؛ فيه طعام الطعم، وشفاء من السقم).

- وعن جابر بن عبد الله أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ماء زمزم لما شرب له). رواه الإمام أحمد، وابن ماجة، وصححه الحافظ ابن حجر.

- وقصة أبي ذر الغفاري، وبقائه في (مكة) ٣٠ يوماً لا يأكل ولا يشرب إلا ماء زمزم، حتى سمن، فقال له رسول الله ﷺ: (إنها ماء مباركة، إنها طعام طعم).

- وأفضل دعاء ابن عباس، عندما كان يشربها يقول : اللهم إني أسألك علماً نافعاً، وقلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً، وعملاً متقبلاً، وشفاء من كل داء.

الصفا والمروة:

يعتبر السعي بين الصفا والمروة من أركان الحج، والعمرة أيضاً.. ولهذا قال الله تعالى: {إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يَطَّوَفَ بهما ومَنْ تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم}.

● فهي من شعائر الله، أي تشعرك بما أعطاه الله لأُمّنا (هاجر)، وكيف سَعَتْ ذهاباً وإياباً، وكيف كان يقينها وتوكلها على الله، وكيف أنها مع التوكل تحركت وسعت واجتهدت، فجاءها الرزق في مكان لم يكن في الحسبان، فلم يأتها في مكان السعي، دلالة على أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب!

لذلك أتاها الرزق باليقين، وليس بالسعي! وليس معنى ذلك أن نترك السعي، ونتواكل على الله، بل التوكل الحق هو السعي والاجتهاد، مع اليقين والتوكل؛ فالرزق مضمون، ولكن استلام الرزق يحتاج إلى سعي!!

وهذ مُراد شعيرة الصفا والمروة، ومن أجل ذلك سمّي عند العلماء بركن السعي.

● وهذه الشعيرة تُشعرك كيف كانت أمّنا هاجر، وهي وحيدة في هذا الوادي، وكيف كان شعورها وهي ترى وليدها وهي في أسفل الوادي، فكانت تهرول في بطن الوادي، بعاطفة الأم الخائفة على وليدها..

لذلك نحن نهرول ما بين العلمين الأخضرين، اقتداءً بأمنا هاجر، مع العلم أن الهرولة جائزة للرجال دون النساء! وهي التي علمتنا ذلك!..

ونستشعر كم تعبت وجهدت؛ في البدن والتفكير، وكم مشت؟! وكانت مشيتها على الأرض الجرداء والأحجار، وليس مثلما نراه الآن.. وكم سعت في الليل والنهار، وفي مكان موحش.. وحيدة؟ كم أنت عظيمة يا هاجر!

ولهذا من عظمة هذا الدين أنه أعطى للمرأة هذه المكانة العظيمة، بأن جعلها رمزاً للسعي والتوكل واليقين، وجعل الله عملها وفعلها ركناً من أركان الحج الأعظم، لا يكتمل حج أحد إلا بأن يحذو حذوها، إلى يوم القيامة!

● وفيها تشعر بإبراهيم - عليه السلام -، وكيف كان يقينه بالله، وهو يُؤمر بإلقاء ولده الوحيد، مع زوجته، في الصحراء، وفي واد لا عيش فيه، وهو لا يدري العلَّة من هذا الأمر الرباني؟! وهنا تتبين مهمة الأنبياء الصعبة والشاقة، ومدى ابتلائهم من قِبَل الله تعالى، لنتعلم منهم اليقين!

ويا ترى كيف كانت ردَّة فعل زوجته، عندما صاحت وقالت: يا إبراهيم، لمن تتركنا؟!، ثم قولتها: (آلله أمرك؟)، فهزّ برأسه (أي: نعم)، فقالت، بكل يقين: (إذاً، لن يضيعنا الله)..

● إنها دورة تدريبية، لكي نتعلم اليقين والتوكل والسعي.

ولذلك علَّم الله - تعالى - اليقين للمسلمين، وكان ذلك بعد فتح مكة..

بأن نزلت الآية: {إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا}.. وقد اهتز المسلمون بهذه الآية، كيف واقتصاد مكة كلها يعتمد على الحج؟!.. ولكن الله أكمل الآية وقال: {وإن خفتم عَيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء}، أي ليس بالسعي، بل بالمشيئة.. وقد تكون في غير مكانها، كما في بئر زمزم!! فليس الرزق مقروناً بالمشركين، وسيجعل الله مخرجاً، وقد فتح الله عليهم بركات الأرض والسماء بعد فتح مكة.

وأعطاهم درساً بأن جعل الصفا والمروة من شعائر الله، لأنها كانت من شعائر المشركين، فقد كان أكبر أصنامهم (هُبل ومناة واللات) على الجبلين، فعندما ذهبوا إلى عمرة القضاء (في ٧ هجرية) قبل الفتح، تحرجوا من السعي بين الجبلين، وبهما هذه الأصنام، وترددوا في السعي! فنزل قوله تعالى: {فلا جُناح عليه أن يطَّوّف بهما، ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم}، فتبين لهم أن شعائر الله لا تتبدل بكفر الكافرين، أو عمل المشركين.

ذكريات:

عند أداء هذه الشعيرة، وسعيك بين الصفا والمروة، تنظر إلى جبل الصفا فتتذكر:

● بدايات دعوة الرسول ﷺ ، وكيف أنها بدأت ببناء قواعدها العقدية عند جبل الصفا، في بيت (الأرقم بن الأرقم)، أيام الدعوة السرية، التي استمرت ثلاث سنوات، ولم يعلم أي مشرك أن اجتماعاتهم كانت في بيته، لكونه:

١- صغير السن (١٧ عام). ٢- كون بيته بعيداً عن أنظار أهل مكة. ٣- لأن الأرقم بن الأرقم كان من بني مخزوم، الذين حملوا لواء المنافسة والعداوة مع بني هاشم. فلم ينتبه أحد، أو يخلد إلى تفكيره، أن بيته كان مركزاً لتبليغ الدعوة الإسلامية في أول أيامها.

● موقف النبي، عندما صعد الجبل، وجهر بالدعوة لأول مرة! وذلك عندما نزلت الآية {فاصدع بما تُؤمر}، و{وأنذر عشيرتك الأقربين}، وكيف صدع بالأمر، وأنذرهم.. إنه شعور يوحي إلينا مدى التزام الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله، ومدى تقصيرنا تجاه مهمة الدعوة إلى الله، وتبليغ قول الحق، وسلوك طريق الحق المبين، وتقصيرنا نحو أُسرتنا وعشيرتنا ومجتمعنا لهدايتهم إلى المنهج الرباني القويم..

● موقف النبي ﷺ بعد فتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، فأول ما قام به هو الطواف حول الكعبة، وتحطيم الأصنام؛ رمز الوثنية والشرك، ثم التوجه إلى جبل الصفا؛ مركز الإعلام حينها! واستقباله الكعبة، وتحميده لله وتوحيده، وهو يقول:- (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده).

ودعا.. ولهذا كان من السنّة أن تستقبل الكعبة على الصفا والمروة، وأن تدعو الله، والدعاء مستجاب بإذن الله..

إنه شعور بالفتح المبين، والنصر من عند الله، لجند التوحيد، والكتيبة المؤمنة بالله، والمنتهجة بنهجه: {إن تنصروا الله ينصركم...}{وكان حقاً علينا نصر المؤمنين}..

ولهذا كان أجر هذا المنسك، كما روي عن ابن حجر العسقلاني، في مختصر كتاب الترغيب والترهيب/ باب الحج.. في حديث طويل، عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه –، أن رسول الله ﷺ قال: (... وأما طوافك بالصفا والمروة، كعتق سبعين رقبة..)! سبحان الله، إن عتق رقبة واحدة تكفيك لنجاتك من النار، فكيف بسبعين.. هنيئاً لك أخي الحاج.. ولكن استشعر معاني هذه الشعيرة!

المُلْتَـــزَم:

وهو مكان من الكعبة المشرفة، يقع بين باب الكعبة وبين الحجر الأسود، وقد سُمي بهذا الاسم لأن الناس يعتنقونه، ويضمونه إلى صدورهم.. ويقال إن سبب التسمية: أنه كان حقاً على الله أن يستجيب عنده الدعوات.. وقد وردت أحاديث نبوية عنه:

قال رسول الله ﷺ:

١- (الملتزم موضع يستجاب فيه الدعاء، وما دعا عبدٌ الله تعالى إلا استجاب له)..

٢- روى ابن عباس: (ما بين الركن والباب يُدعى الملتزم، لا يلزم ما بينهما أحد يسأل الله عز وجل شيئاً إلا أعطاه إياه). رواه البيهقي موقوفاً، وفيه ضعف)..

لذلك كان ابن عباس يقول: (ما دعوت الله في هذا الموضع، إلا استجاب الله دعائي)!

ولمعرفة كيفية الدعاء:

هو ما ورد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، قال: (طفتُ مع عبدالله، فلما جئنا دُبُر الكعبة، قلت: ألا تتعوذ؟ قال: نعوذ بالله من النار، ثم مضى حتى استلم الحجر، وأقام بين الركن والباب، فوضع صدره ووجهه وذراعَيه وكفيه هكذا، وبسطهما بسطاً)، ثم قال: (هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعله). رواه أبو داود، وابن ماجه، وصححه الألباني.

لذلك فكيفية الدعاء هو : وضع الصدر والجسم، والخدّ الأيمن، وبسط الأذرع على الملتزم، والدعاء.

ومن الملاحظ أنه عندما تلاصق جسدك بالبيت عند الملتزم، فأنت تتجاوز (الشاذروان)، الذي هو البناء المائل حول الكعبة. ومن المعلوم أن هذا البناء هو الإطار الخارجي للكعبة، وهو ليس من الكعبة، فعند تجاوزك هذا الإطار المائل، فأنت تدخل بكامل جسدك إلى داخل الكعبة.. لأنه بمجرد تجاوزك (الشاذروان)، فالمسافة القصيرة تعتبر من الكعبة التي لم تُبنَ، أي أنت موجود داخل الكعبة! فتشعر بإحساس عظيم وأنت تدعو الله، وبهذه الصورة؛ ملتصقاً بكامل جسدك، رافعاً أذرعك، باسطاً كفيك، واضعاً خدك على الكعبة، تستشعر بمذلتك أمام الله.. وهناك تسكب العبرات..!

ولذلك كان الحسن البصري، عندما يذهب إلى الحج، ويتجه نحو الملتزم، يقول لتلامذته ومُريديه: (تَنَحّوْ عنّي، حتى أقرَّ لربي بذنبي)!

وكان الصحابة يفعلون ذلك قبله.. لذلك قال الرسول ﷺ، لمن لم يستطع البكاء: (ابكوا.. فإن لم تجدوا بُكاءً، فتباكَوا).. وكل من استلمه بصدق، ودعا عنده، إلا تقبل الله دعوته.. إنها مجرّبة! .. جرّبها، لتعلم ذلك!

الحِجْر (أو ما يسمى بحجْر إسماعيل):

وهو البناء المستدير على شكل نصف دائرة بجانب الكعبة، والذي يقع في الجزء الشمالي من الكعبة، ويحاذ أحد طرفيه الركن الشمالي (الركن العراقي)، والآخر يحاذ الركن الغربي (الركن الشامي). وسُمي بالحِجْر: لتحجره عن الناس.

عندما عجزت قريش عن بناء الكعبة كاملة، لمّا تشققت جدرانها، نتيجة للانجرافات المائية - حيث إن موقعها في أسفل الوادي - وأرادوا إعادة بنائها من القواعد، فلم تكف أموال قريش، فتعهّدوا أن يُجْمعوا أموال البناء بالطرق المشروعة، ولم تكن من أموال النهب، أو السلب، أو حتى الربا! فتُركت مسافة ٣ أمتار من الكعبة بدون بناء، وقاموا ببناء جدار على ارتفاع ١،٣م، وبشكل نصف دائري، يحيط بطرفي الكعبة الشمالي والغربي، لذلك فليس كل القوس يعتبر داخل الكعبة، بل ٣ أمتار من جدار الكعبة الموازي للقوس فقط.

حيث روي عن عائشة - رضي الله عنها - عندما سألت النبي ﷺ عن الجدار: أمِنَ البيت هو؟ قال ﷺ: (نعم). قالت: فما لهم لم يدخلوهُ في البيت؟ قال لها رسول الله ﷺ: إنَّ قومك قَصُرت بهم النفقة؟...) (رواه البخاري).

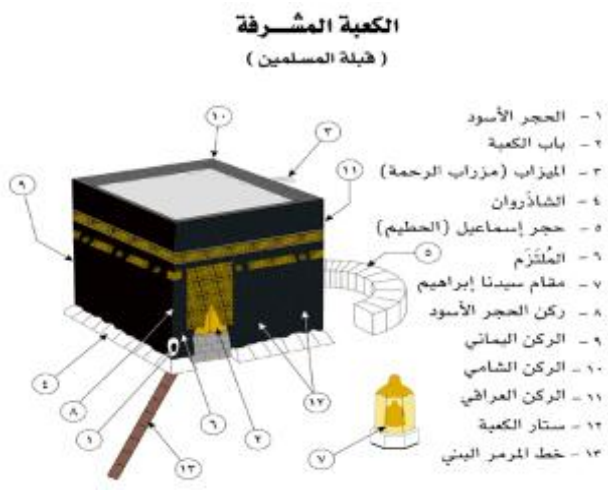

وعن عائشة (رض) عنها أنها قالت: (كنتُ أحبُّ أن أدخل البيت فأُصَلي فيه، فأخذ رسول الله ﷺ بيدي وأدخلني الحِجْر، فقال: (صلِّ فيه، إن أَرَدْت دخول البيت، فإنما هو قطعةَ

من البيت)! (حديث حسن).

سبحان الله.. وهذا من لطف الله علينا، ورحمته بنا، أن جعل لنا مكاناً يستطيع عامة المسلمين أن يغتنموا فرصة الصلاة داخل الكعبة في الحِجْر – ولكن على أن لا يزيد عن ٣ أمتار – من جدار الكعبة!

أما عن تسميته بحجْر إسماعيل، فيقال لأن إسماعيل قد اتخذ فيه أريكة ليستظل تحتها.. وقيل: لأنه مَكان قبر إسماعيل، وأمه هاجر.. ولكن الأصح أنها تسمية خاطئة، لأن الحجْر أصلاً قد تم إنشاءه في عهد قريش، ولم يكن موجوداً في عهد إسماعيل، بل كانت الكَعبة كاملة في حياة إسماعيل.. فالتسمية هي عامة، وليست شرعية، والله أعلم..

- ويُقال: إن (الحطيم) هو نفسه الحجْر، وهو الأصح، والله أعلم، وسمي بذلك:

- لأنه جزء من الكعبة، وقد كان محطَوماً، لعدم القدرة على البناء.- لأنهم في الجاهلية كانوا يلقون ملابسهم داخله، والتي بها ارتكبوا الذنوب، وكانوا يتركونها داخله حتى تتحطم..

- ويقال: إنه الملتزم.
- ويقال: إنه ما بين ركن الحجر الأسود ومقام إبراهيم، والذي يعتبر من أطهر البقاع على وجه الأرض!

ملاحظة حول الحجْر:

١- لا يجوز الطوافَ من خلاله، لأنه جزء من الكعبة، فلا يجوز الطواف داخل الكعبة.

٢- لا يجوز صلاة الفرض داخله، ولكن تجوز صلاة النافلة فيه.

لنبدأ بأول أيام الحج، وهو اليوم الثامن من ذي الحِجَّة :

أولاً/ يوم التروية:

وهو يعتبر أول أيام الحج المبارك، وهو سُنَّة مؤكدة، وفيه يجتمع حشود الحجاج كلهم في اليوم الثامن من ذي الحجة في (منى). وقد سُمي بيوم التروية:

١- لإرواء الناس عن مفاهيم الحج، أي تروية مناسك للحجاج، للتهيؤ لليوم العظيم.

٢- أو لإرواء الناس من الماء، حيث كان يفعل ذلك قديماً.

وسبب تجمعهم في منى، لأنهم كانوا متفرقين، فحجاج بيت الله المتوافدين إلى الحج من كل فَجّ عميق من الدنيا، يجتمعون في منى، لكي يستعدوا ويتهيئوا لمواجهة اليوم العظيم غداً، يوم العتق العظيم، يوم عرفة.

وقد كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك مع المسلمين، بأن يجتمعوا في مكان ما، عندما كانوا يخرجون للجهاد، حيث كانوا يخرجون من المدينة، ويحددون مكاناً، ليجتمع كل المسلمين هناك، حتى يتهيؤوا للجهاد في سبيل الله. لذلك فهو تشبيـــه للتهيؤ للجهاد في سبيل الله!

لذلك، فالمغزى والمعنـــى من هذا المنسك في منى، هو:

١- أن يجتمع الحجاج المتفرقون كلهم في مكان واحد (منى).

٢- تأهبـهم واستعدادهم لليـوم العظيم (يـوم عرفـة).

٣- هو استرخاء فكـري وروحـــي وجســـدي، لـكي يسـتعدوا للأيـــام القادمـة. ولهـذا لم تخصص عبادة فيه، وحتى الصلاة تكون قصـراً، من دون جمع، وبدون نـــوافل..

٤- وهو إرواء لتعاليم مناســك الحج، وتذكيــرهم بيـوم عرفـة، والأيـام المقبلـة، وأهميـة الموقف..

ثانياً/ يوم عرفة:

هو ثاني مناسك الحج، ويعتبر من أهم مناسك الحج، وهـو الركــن الأعظـم للحــج، كـما أخبرنا رسول الله ﷺ: (الحج عرفة). متفق عليه. فبدونه لا يتم الحـج مطلقـاً.. ففـي هـذا المنسـك العظيم يبدأ حجاج بيـت الله، المجتمعـون في منـــــى، بـالزحف نحـو عرفـات، في اليوم التاسع من ذي الحجة، مع أنَّ هذا المكان ليس من أصـل الحـــرم، فهـو أرض الحـلّ! وكذلك جبل الرحمة في عرفات.

وقد سُمّي عرفات:

١- لأن جبريل - عليه السلام - طاف بإبراهيم - عليه السلام -، ليريه مناسك الحج، فكـان يقول له: أعَرِفْت، أعَرِفْت؟ فيقول له إبراهيم: عَرِفْت، عَرِفْت..

٢- وقيل: لأن الناس يعترفون هناك بذنوبهم/ ويسألون الله الغفران..

٣- وقيل: لتَعَرّف العباد إلى الله تعالى بالعبادات والأدعية والخضوع له.

٤- وقيل: لأن آدم - عليه السلام - لما هبط إلى الأرض، هو وزوجته حـواء، تعارفـا والتقيـا في هذا المكان..

وهناك معان كثيرة أخرى..

ولكن السؤال هنا.. لماذا أعطى الله سبحانه وتعالى هذا القدر لهذا اليوم؟

لأنّه:

- يوم الميثـاق الأزلـي، ميثـاق الذّر، بين الله وعبده..

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله - صلى الله عليـه وسـلم -: (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بِـنَعْمان - يعنـي عرفـة -، وأخـرج مـن صـلبه كـل ذريـة ذرأهـا،

فنثرهم بين يديه كالذّر، ثم كلّمهم قبلاً، قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَني آدَمَ من ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا من قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}(الأعراف: ١٧٢، ١٧٣)(رواه أحمد، وصححه الألباني).

وقد يقول قائل: كيف، ونحن في صُلب آدم؟!

١- فالآية تدل على أن الله قد ألهم البشرية كلها بأنه هو ربها وإلهها، وأنه ليس لهم رب ولا إله غيره، وأنه أخذ عليهم ميثاقاً بذلك: {قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا}، فلم يعد يقبل منهم أن يقولوا يوم القيامة: نسينا، وكنا غافلين عن هذا الميثاق! أو يحتجّوا بأن آباءهم أشركوا، وأنهم اتبعوهم في شركهم، لأنهم من ذريتهم! فشرك الآباء لا يبرر للأبناء أن يحيدوا عن ميثاق الفطرة؛ لأنه عهد بينهم وبين الله، ولا دخل للآباء فيه! وإن كان الله، من رحمته، لا يحاسب الناس بميثاق الفطرة وحده، وإنما يحاسبهم بعد تذكرتهم على يد الرسل: {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، لئَلاَّ يَكُونَ للنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ..} (النساء : ١٦٥).

٢- ومثاله، كمثال الطفل الصغير الذي لا يتذكر ما قام به منذ الصغر، وهو لا يدري ولا يتذكر.. وقد أثبت العلم أن ٨٠ % من شخصية الإنسان تكتمل وهو في سن الخامسة من العمر، مع أنه لا يتذكر ما جرى له في هذا العمر أصلاً!

٣- وهذا الحديث يوحي أيضاً أن الله قد أدخل في صلب كل ذرية بني آدم، وفَطَر فيه الوحدانية ووجود الله والإيمان بالغيب.. وهذا مصداق الحديث المروي عن أبي هريرة، عندما قال: قال رسول الله ﷺ: (كل مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجّسانه).

● إنه يوم الميلاد الجديد..

نعم، إنه كذلك.. وكيف لا، والرسول ﷺ يقول: (ما من يومٍ أكثر أن يعتق الله عبداً من النار من يوم عرفة).. إنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟ (حديث صحيح أخرجه مسلم).

فإن كان فضل أغلب مناسك الحج هو عتق رقبة عبد ما، فقد آن الأوان أن يعتق رقبتك أنت!.. ولكن من الذي يعتقك، ومم يعتقك؟! إن الذي يعتقك هو الله – عز وجل -، وسيعتقك من النار!.. ولكن كيف يعتقك وعليك ذنوب، لذلك فهو يغفر لك ما قدمت وما أخرت، ويعفو عنك..

ما هو أعظم يوم في حياتك؟ يوم تخرجك من الكلية، أو يوم زواجك، أو.. أو يوم أن تُعتق من النار؟!

أليس هو بالفعل يوم ميلادك الجديد؟!

وقد قيل إن الكريم إذا أعتق الأسير، فإنه لا يأسره مرة أخرى، فكيف بأكرم الأكرمين؟ فإذا أعتقك، فإنه لن يأسرك!! فأنت مضمون العتق من النار، بعد ذلك، إن شاء الله.

نعم.. إنَّ الرسول ﷺ يقول: يوم عرفة من أكثر الأيام عتقاً من النار، حتى من ليلة القدر نفسها!.. وقد تكلم العلماء عن أفضلية يوم عرفة، كما هو مبين في الحديث.. ومهما كان، فإن يوم عرفة يتميز عن ليلة القدر، كونه:

يوماً واحداً، والكل يعلمه، وتوقيت الدعاء والعتق قد بيّنه الله تعالى، حيث يبدأ من زوال الشمس، بعد صلاة الظهر، إلى غروب الشمس.. لذلك، فالعبد يلح كثيراً في الدعاء بالمغفرة والعتق، في هذا التوقيت.. بينما ليلة القدر تبدأ من غروب الشمس، وحتى الفجر، وقد سترها الله عنا في عشر ليال!

ولا يقولنّ قائل إنَّه مخصص لأهل عرفات وحدهم، فالحديث لم يخصص.. وإن كان كذلك، فالذي لم يوفق للذهاب إلى الحج، فعليه الاعتكاف والدعاء والتضرع إلى الله، في هذا اليوم العظيم، فقد يشمله الله، مع حجاج بيته الحرام، بالعتق العظيم، فالله كريم، ورحمته وسعَتْ كل شيء، ورب غائب منعه مانع عن أداء الحج، وأشواقه وتضرعه إلى الله أكثر من الحَاضر!

أما أنت.. يا مَنْ اختاره الله، ووفقه للذهاب إلى الحج من بين سائر المسلمين، ووفقه للوصول إلى هذا المكان العظيم، والمشهد المهيب، فاستشعر عظمة الموقف، فقد التقى شرف الزمان (شهر ذي الحجَّة)، وشرف المكان (مكة المباركة؛ خير بقاع الأرض)، وشرف المشهد (يوم عرفة).. واستشَعر أنَّ ملايين المسلمين يتمنون الآن لو كانوا مكانك أنت! وقد اختارك الله من بين كل هؤلاء!.. فلا تفُتك دقيقة إلا وأنت تدعو الله - عز وجل -، أو تذكر الله، أو تذرف العيون.. فإنها سويعات، لا أكثر..! ولكن ما أغلاها من سويعات!

يوم مُباهاة الله بأهل الموقف!

- عن ابن عمر – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: (إنَّ الله تعالى يُباهي عشية عرفة بأهل الموقف، فيقول: انظروا إلى عبادي، أتَوني شُعثاً غُبراً) (رواه أحمد، وصححه الألباني).

الشعث: تعني متبلد الشعر، ومتغير اللون، أو متسخ الجسم والرأس.

غُبّراً: أي قد تغبّر جسمه، وصار كالغبار، من طول السفر..

- وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: (ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنَّه ليدنو، ثم يباهي الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟)(صحيح مسلم).

وقال ابن عبد البَر: وهذا يدل على أنهم مغفور لهم، لأنه لا يباهي الله بأهل الخطايا، إلا بعـــد التوبـــة والغفران..!

فتصـور أخي العزيـــز أنك في عرفـــة، يوم عرفـــة، الذي هو أعظم أيام الـدنيا، ولعظمـة الموقف قد دنا الله - عز وجل – بنفسه، وبمجـيء يليـق بسـلطانه، إلى السـماء الـدنيا، مـع حشود الملائكـــة، ويباهي الله - عز وجل - أمام الجمع الملائـكي، بأهـل الموقـف، ويقـول: انظروا إلى عبادي، قد جاءوا بأمر منّي من كل فجّ عميق، وقـد جـاءوا شـعثاً غـبراً إلى هـذا المكان، وهم يلبسون لباس الذُلِّ والخضـوع، يلبسـون أكفانـاً ناقصـة الـرأس والسـاق، لقـد جاءوا وهم يجتمعون على كلمة واحـدة، ألا وهي لا إله إلا الله.. كلمة الوحدانية الخالـدة! لذلك يقول الله عز وجل.. اشهـــدوا يا ملائكتي أنِّي قد غفـرت لهم جميعـــاً.. فهنيـــئاً لـك أخي الحـــاج:

- إنَّه يوم الغفران، ومضمون التَبِعات بعد العودة..!

فعن أنس – رضي الله عنه – أنه قال: (وقف النبي ﷺ بعرفات، وقد كادت الشـمس أن تؤوب (أي تغرب)، فقال: (يا بلال، أنصت لي الناس. فقام بلال، وقـال: أنصـتوا لرسـول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأنصت الناس. فقال: (معشر الناس، أتـاني جبريـل - عليـه السـلام - آنفاً فأقرأني من ربي السلام، وقال: إن الله - عز وجل- غفـر لأهـل عرفـات وأهل المشعـر، وضَمـنَ عنهُم التَبِعات! فقام عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –، وقال: يا رسـول الله، هـذا لنا خَاصة، قال: (هذا لكم، ولمَن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة.. فقال عمر بن الخطـاب – رضي الله عنه – : كَثُـرَ خيـر اَلله، وطاب)(أخرجه المنذري).

- إنّه أشدَّ يوم على الشيطان..

فقد أخرج الإمام مالك – رضي الله عنه –، في (الموطأ)، بسـند مرسـل صـححه الألبـاني، أن النبي ﷺ قال: (ما رُئي الشيطان يوماً، هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منـه في يوم عرفة! وما ذلك إلا لما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما رأى يوم بدر! قيل: وما رأى يوم بـدر، يـا رسـول الله؟ فقـال: أمـا إنـه رأى جبريـل يـزع الملائكـة هكذا).

- وهو يوم أكمل الله بـــه الدّين والملَّـــة، وأتَّم به النعمة..

عَنْ عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –: (أَنَّ رَجُلا منَ الْيَهُود قَالَ لَـهُ: يَـا أَمـيرَ الْمُـؤْمنينَ، آيَةٌ فِي كتَابِكُمْ تَقْرَؤونَهَا، لَوْ عَلَينَا مَعَاشِرَ الْيَهُود نَزَلَتْ لاتَّخَذْنَا ذَلـكَ الْيَـوْمَ عيـدًا، قَـالَ: أَيَّـةُ آيَةٍ؟ قَالَ: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا(سـورة

المائدة آية ٣)، قَالَ عُمَرَ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ)(أخرجه البخاري).

أي إنه في هذا اليوم العظيم نزلت آية الإتمام والكمال لدين الله، وفي هذا اليوم أعلن الله - عز وجل - عن رضاه بأن يكون هذا الدين (الإسلام) هو الدين الخالد إلى يوم الدين، فهي منتهى النعمة علينا نحن معشر المسلمين. ولهذا، فجدير بنا أن نجعل هذا اليوم عيداً، نحتفل بهذه المناسبة العظيمة بالتقرب إلى الله، وأن نشكره على إتمام نعمته علينا، فأعيادنا عبادات نشكر فيها الرب سبحانه.

- أفضل وقت لاستجابة الدعاء، هو دعاء في (عرفة).

فقد قال رسول الله ﷺ: (خير الدعاء دعاء يوم عرفة)(صححه الألباني).

وفي رواية أخرى أنه قال: (خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير).

وقد سُئل عن هذا الدعاء، أنه ثناء على الله؟! وكان من خير الإجابات التي سمعتها، أنه من لزم الدعاء بالثناء على الله، وصدَّه عن كثرة الدعاء لنفسه، فإن الله سيعطيه ما كان يريد وأكثر، فهو علّام الغيوب يدري ما كان، وما يكونُ، وما لم يكن لو كان كيف يكونُ! لذلك أكثروا من الدعاء في هذا اليوم العظيم، فإنه مضمون الإجابة.

ولذلك، كان من أسرار وحكمة قصر الصلاة في يوم عرفة، جمع تقديم على صلاة الظهر، من غير نوافل ولا سنن، كي يتفرغ الحاج للدعاء والخشوع، والإلحاح فيه. والدعاء هو العبادة، وفيه تتجلّى عبوديتك لله، وحاجتك إليه.

ومن التجارب والتأمل في هذا اليوم، أنه حتى الخشوع والتضرع إليه - سبحانه وتعالى- هي منهُ – سبحانه-. فترى الدعاء والخشوع يكون فيه صعوبة عند بداية هذا اليوم، حتى يتم الزوال، فتجد حينها في أدعيتك حلاوة، ويتم الخشوع، وترى الدموع تذرف من العيون، وكأن الله – عز وجل- يقذف بالخشوع على أهل الموقف، ويقول لنا إن الخشوع والتضرع هو مني إليكم.. فلله الحمد والمِنَّة.

- وهو يوم أقسم الله به، ويعتبر من أفضل أيام السنة!

فالعظيم لا يقسم إلا بعظيم أمر.. فهو اليوم المشهود في قوله تعالى: {وشاهد ومشهود} (سورة البروج). فعن أبي هريرة – رضي الله عنه –، أن النبي ﷺ قال: (اليوم الموعود: يوم القيامة، واليوم المشهود: يوم عرفة، والشاهد: يوم الجمعة)(رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

- وهو في قول ابن عباس من الأيام المعلومات، المذكورة في قوله سبحانه وتعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ}، وهو يوم عيد لأهل الموقف، كما قال رسول الله ﷺ: (يوم عرفة، ويومَ النحر، وأيام مِنَى، عيدنا أهل الإسلام) (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

لذلك لا يجوز الصوم في هذا اليوم، وهو سُنَّة لغير الحاج.. وما أروع ما قاله العالم الجليل سفيان بن عُيينة: كيف يكون أهل الموقف صائمين وهم ضيوف عند الرحمن!؟

- وفيه (خطبة الوداع)، التي بيّن فيها المعالم الأساسية لهذا الدين العظيم..

ومن أفضل شعائر يوم عرفة، والتي يغفل عنها الكثير، هي خطبة عرفات! حيث فعلها رسول الله ﷺ، وفيها أخبر عن فضائل هذا اليوم العظيم، وحدد فيها ملخصاً عن النظام الإسلامي القائم على العدل، وأدلى بوصاياه إلى المسلمين الحاضرين، والذين يأتون من بعدهم إلى يوم الدين.. حيث خطب رسول الله ﷺ خطبة في (عرفة)؛ في حجته الأولى والأخيرة، ولخصّ مضمون النظام الذي جاء به من عند الله – عز وجل -.. ولم يتكلم رسول الله ﷺ عن التوبة، والغفران، والصلاة، والمنكرات، ولكن تحدث عن النظام الإسلامي، وقضاياه الأساسية، وبيّن الخطوط العريضة، والبنود الأساسية، لهذا الدّين!

فعندما نذهب إلى هناك، يجب أن نستشعر هذه الوصايا، وهذه الخطبة الجامعة، لكي يتبين لنا مضمون الإسلام الذي نؤمن به! ومنها يتبين عظمة هذا الركن، والذي يعتبر هو الحج، وحتى إنْ متَّ فقد تم حجك، وكما قالها المصطفى ﷺ عندما قال: (الحج عرفة).

وإليك ملخصاً من هذه الخطبة، لتستشعرها:

١- الدماء: (... خَطَبَ النبي ﷺ النَّاسَ، وَقالَ: إنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ علَيْكُم، كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، أَلَا كُلُّ شَيءٍ من أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وإنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنَ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بنِ الحَارِثِ، كانَ مُسْتَرْضِعًا في بَنِي سَعْدٍ، فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ)(رواه مسلم في صحيحه، برقم 1218).

٢- الربا (النظام الاقتصادي): (... وإنَّ ربا الجاهلية موضوع، وإنَّ أول ربا أبدأ به هو ربا عمّي العباس)، وقد كان يجني منه الكثير من الأموال..

٣- انتهاء الشرك في البلاد: (... قد يئس الشيطان أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك).

٤- حقوق المرأة: (... لقد أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فرُوجهُنَّ بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا النساء خيراً)!

٥- الأخوة الإيمانية:.. الإخوة مبنيّة على أساس العقيدة، لا على أساس العرق، أو القوم، فلا يحلُّ لكم دماءكم وأموالكم..

٦- الوِحدة في العبودية (لله عز وجل).. ووِحدة المنشأ (آدم)، ووِحدة الأصل (التراب).. لذلك، فلا فرق بين أعجميّ أو عربي، إلا بالتقوى!

٧- الحفاظ على النسل البشري!.. التأكيد على النسل (العرض)، والحفاظ على الأسرة، التي هي اللَّبِنة الأساسية في ديمومة وارتقاء المجتمعات!

وختم بكلامه الخالد: (ألا فليُبَلِّغ الحاضر الغائب.. ألا هل بلَّغْتُ. اللهم فاشهد).

بالفعل، لقد حدَّد الإطار الخارجي للنظام الإسلامي القائم على العبودية لله وحده: وِحدة المنشأ، والأصل، وأن الكل سواسية عند الله، وأن معيار التفاضل هو التقوى.. وأمر أن تكون هذه المساواة ممزوجة بالإخوة الإيمانية، القائمة على أساس العقيدة، وتحريم دماء وأموال المسلمين بعضهم على بعض، مع بيان حقوق المرأة، والتأكيد على النظام الأسري، وبيان النظام الاقتصادي، الذي تبنى عليه دولة الإسلام!

لذلك، فأنت تستشعر وكأن هذا الكلام موجّهٌ إليك، وسيشهد الرسول ﷺ أنه قد بلَّغَك كلامه، ووصاياه.. فاعمل بها..

وأخيراً.. كل هذه الفضائل التي ذكرتها عن يوم عرفة، وعظمة هذا اليوم، والمعاني العميقة فيه، هي لكي يكتمل عندك مفهوم واحد فقط، ألا وهو (الولاء لله).. الذي هو جزء من معنى شهادة أن لا إله إلا الله.. وكذلك يدخل في معنى ركن من أركان العقيدة، وكذلك يعتبر شرطاً من شروط الإيمان..

نعم..

● لقد أتممتْ مُراد التلبية لله.. لأن معنى (لبيك اللهم لبيك) هو إعلان عن الولاء لله وحده.. وهو نعم المولى، ونعم النصير.. هو الولاء للرحمان، في جبل الرحمة!

● وقد أدَّيتَ العبودية التامّة له، بأن قدَّمت مُنتهى التذلل والخضوع لله، كونك تكبر الله، وتدعوه، وأنت أشعث، أغبر، ملفوف بالإحرام..

● وقد أتممتَ دعوة إبراهيم - عليه السلام - التي دعاها، عندما أمره الله بأن يُؤذِّنَ للناس بالحج.. قال تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}﴿27﴾ سورة الحج.

وقد استَكْملتَ الإيمان بالولاء لله - سبحانه -، كما أخبرنا الرسول ﷺ عندما قال: (مَنْ أَحَبَّ لله، وأبغَضَ لله، وأعطى لله، ومَنَعَ لله، فقد استكمل الإيمان)(رواه أبو داود).

فهنيئاً لك أخي الحاج، بأن رزقك الله الوقوف بعرفة، بجوار قومٍ يجأرون إلى الله، بقلوبٍ محترقة.. ودموعٍ مُستبِقة. فكم فيهم من خائف؛ أزعجه الخوف وأقلقه.. ومُحب؛ ألهَبَهُ الشوق وأحرقه.. وراجٍ؛ أحسن الظن بوعد الله وصدَّقَهُ.. وتائب؛ أخلص لله التوبَة وصَدَقَهُ. وهاربٍ؛ لجأ إلى باب الله وطَرَقَه.. وكم هنالك من مستوجب للنار، أنقذه الله وأعتقه.. ومن أعسر الأوزار فكَّه وأطلقه.

ثالثاً/ المُزدَلفة:

ولها ثلاثة أسماء، وهي: ١- المزدلفة ٢- جُمَع ٣- المشعر الحرام..

وهي تعني ازدلاف الناس إليها، أي تجمع الناس فيها. وقيل: إنها تعني أنك تزدلف إلى الله، أي تتقرب إليه سبحانه وتعالى..

فبعد إتمامك الركن الأعظم من الحج، ألا وهو عرفة، وقد كتب الله لك يوماً جديداً، وحياة جديدة، فإن الله أمرنا أن نندفع نحو المزدلفة:

{ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ}.

والمشعَر الحرام هو المزدلفة.. فتأمل معي أخي الحاج، في اللفظ القرآني العظيم: {فَإِذَا أَفَضْتُم}، وكيف أن الحجاج، المجتمعون كلهم في (عرفات)، يندفعون ويفيضون نحو

(المزدلفة)، وكما أمرهم الرسول ﷺ بسكينة ووقار، عندما قال: (أيها الناس السكينة، السكينة..).

فتصوّر، كيف تسير هذه الكتل البشرية بهدوء وسكينة ووقار، فلا أحد يؤذي أحداً، ولا أحد يزاحم أحداً، فالكل يذكر الله على هذه النعمة التي أنعمها عليه، وأعطاها الله إيّاه، بأن بلّغه هذا المكان العظيم، وأتَمّ أهم ركن من أركان الحج، وغفر له ما تقدم من ذنبه، وقد خرج كيوم ولدته أمه.. وقد قال بعض العلماء: إن أول ذنب يذنبه الحاج، بعد (عرفة)، هو أن الشيطان يدخل في قلبه الشك: إن كان قد غفر له أم لا؟! فهذا أول ذنب يرتكبه.. لذلك، عليه أن يتيقَّن بالمغفرة، وأن يحمد الله، ويكبر، ويستمر في التلبية..

إنه استشعار بمعنى عميق، يشغل خاطر كل من يشاهد هذا المشهد العظيم..

- إنه تشبيه مصغر للمحشر، عندما يتدافعون، وينفرون إلى المزدلفة.

- إنه استشعار بعقوبة الله على الظالمين، مهما كان ظلمهم وجبروتهم، عند مرورك بـ(وادي محسر)، الممر الوحيد لدخول المزدلفة؛ الوادي الذي أهلك الله فيه (أبرهة الحبشي)، ومَنْ معه، عندما حاولوا هدم الكعبة المشرفة، وكيف أن الله أرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول!.. لذلك، فعليك بالإسراع في تجاوزه، كما أمرنا رسول الله ﷺ عندما قال: (إذا مررتم بديار الظالمين فأسرعوا، قبل أن يصيبكم ما أصابهم)، لكي نستشعر هول عقوبة الظالمين.

- وبمجرد خروجك من مكان الحلّ (عرفة)، ودخولك مكان الحرم (المزدلفة)، فعليك أن تستسلم لأوامر الحرم وقوانينه!.. وقانون الدخول في الحرم، هو من بوابة المزدلفة.. وأول ما تُؤمر به هو (المبيت) في المزدلفة، وله حكم الوجوب؛ ويعني البقاء فيها ليلاً.. ومن السُنَّة النوم فيها، كما فعله رسول الله ﷺ! نعم.. ننام بعد أن نصلي المغرب والعشاء فيها قصراً وجمعاً.. وليست فيها أيّ عبادة أخرى.. فبعد أن أدَّيت أعظم مناسك الحج، ودعيت الله، وتضرعت إليه - سبحانه -، وبعد هذه المشقة، وهذا اليوم الطويل، فعليك بالنوم.. لكي تستريح بعد هذا التعب، وتستقوي على إتمام ما بقي من مناسك الحج.

- وقد سميت المزدلفة بالمشعر الحرام، لكي تستشعر بدخولك الحرم.. لذلك قيل إن المزدلفة كلها مشعر حرام.. وهناك بعض العلماء يقولون إنَّ المشعر الحرام هو جبل في المزدلفة (جبل قُزَح)، وقد بُني عليه مسجد يسمى بمسجد المشعر الحرام.. ولكن الأصح أنك حيث ما وقفت فهو المزدلفة، كما أخبرنا رسول الله ﷺ عندما قال: (وقفت هاهنا،

وجَمْع كلها موقف)، وفي رواية أخرى: (وقفت هاهنا، ومزدلفة كلها موقف)، وقد وقف الرسول ﷺ على جبل قُزَح.

● واستشعر بهذا النوم الذي لم تذقه من قبل.. فيا حلاوة هذا النوم، بعد هذا المهرجان الذي التقى فيه أهل السماء بأهل الأرض من حجاج بيت الله، ويا بساطة هذا النوم على الأرض دون أن تغطي الرأس والأرجل (لأنك مُحرِم، ولا تجوز تغطيتهما مهما كان)، لكي يشعرك بفقرك ومساواتك مع كل الحجاج، فقد تستطيع أن تنزل إلى مكان مريح في (منى)، أو في (عرفة)، ولكن في هذا المكان لا يوجد مكان مخصص؛ الكل على الأرض، لا وجود لمبنى أو مخيم أو مأوى، كل الحجاج منتشرون في مزدلفة، الناس في كل مكان، كأنهم جراد منتشر!

● ثم تُصلي صلاة الصبح في مزدلفة، وبعدها تزدلف إلى الله، وتتقرب إليه.. والعبرة من هذا المنسك، هي وقفة تأمل وتفكر فيما جرى من غفران كل السيئات، التي كانت في صحائفك طوال هذه السنين كلها، وفي ساعتين أو أقل، عند وقوفك في (عرفة)! فأيّ كرم، وأيّ رحمة من الله - سبحانه - تتجلى لنا..

● ثم تتفكر في كونك مأموراً باستغفار الله، بعد غفران الذنوب، وقبول التوبة، في قوله تعالى: { فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِه لَمِنَ الضَّآلِّينَ * ثم أفيضُوا منْ حَيثُ أفاضَ الناس واستَغفروا الله إنَّ الله غَفور رَحيم}، أي أنَه ذكِّر لله، وتأملْ على الهدايةَ والتوفيق لبلوغ هذه المنزلَة العظيمة.. وهو استغفار شكر، أو تقصير في الشكر.. وقد بيّن العلماء أن هناك أنواعاً من الاستغفار:

١- استغفار من الذنوب.. ويشمل طلب غفران الذنوب من الله.

٢- واستغفار شكر.. وهو خاص بالنبي.. كما في الحديث، عندما سئل ﷺ ، عن سر كثرة صلاته، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه، فقال: (أفلا أكون عبداً شكوراً)! وقد وجد الصحابة أنه كان يستغفر في المجلس أكثر من سبعين مرة، وهو المغفور الذنوب!

٣- واستغفار عن التقصير في الشُكر!.. وهذا ما نفعله في مزدلفة!.. نستغفر الله على تقصيرنا في شكرنا لله.. وعلى نِعَمِه التي أنعمها علينا.. وعلى بلوغنا هذه المنازل، وقد أعتقنا، وعفا عنا!..

● ولقد كان الكفار قبل الإسلام، عندما كانوا يحجّون، يأتون إلى مزدلفة، ويثنون على آبائهم وأجدادهم، وعلى أنفسهم، ويقيمون الإشعار هناك. لذلك قال الله تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي

الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ}(سورة البقرة/٢٠٠)، أي كما كنتم تفعلون ذلك من الثناء، فاثنوا واشكروا الله عَلَى مَا أنعم عليكم، بل وأكثر مما كنتم تثنون على آبائكم..

وقد انتابني شعور.. أنه لكي تدخل من مكان الحل إلى مكان الحرم، كان لزاماً عليك الدخول من باب المزدلفة، ولكي تتمكن من الدخول إلى منى، ورمي الجمرات، فعليك الدخول من باب الازدلاف والتقرب إلى الله تعالى، وحينها تتقدم بالإفاضة إلى منى.. لكي تستمر في إتمام الرحلة العظيمة، وهي تكملة باقي مناسك الحج في أعظم أيام الله..

رابعاً/ يوم النحر العظيم:

وبعد النفرة من المزدلفة إلى منى، وأنت مستمر بالتلبية والتكبير والتهليل والتحميد، وبعد بزوغ فجر يوم النحر، والذي يعتبر من أعظم الأيام عند الله، كما أخبر به الرسول ﷺ عندما قال: (أفضل الأيام عند الله، يوم النحر، ثم يوم القَرّ)، ويوم القَرّ هو اليوم الذي يلي يوم النحر، أول أيام التشريق (أي القرار في منى).

وكذلك روي عنه ﷺ أنه قال: (يوم النحر هو يوم الحجّ الأكبر)، وهو المقصود في الآية: {وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر..}، وهذا هو مذهب مالك، والشافعي، وأحمد، ولأنه فيه تمام أعمال الحج، وأكثر شعائره.

وقد اختلف العلماء في أفضلية يوم عرفة، أو يوم النحر، في كون يوم عرفة هو أعظم يوم يعتق فيه العباد، ولكن الأرجح - والله أعلم - أن يوم النحر هو الأفضل، لما فيه من الأعمال العظيمة؛ وهي:

١- أنها تشمل جزءاً من الوقوف بعرفة (لأن يوم النحر يبدأ من غروب يوم عرفة)! ٢- المبيت في المزدلفة، والوقوف فيه. ٣- رمي جمرة العقبة الكبرى. ٤- النحر. ٥- الحلق والتقصير. ٦- طواف الإفاضة (وهو ركن من أركان الحج). ٧- طواف السعي (وهو أيضاً من أركان الحج).

أعمال يوم النحر:

١- **جمرة العقبة (الجمرة الكبرى):**

إنه أول عمل يقوم به الحاج في هذا اليوم العظيم، وذلك برمي سبع حصيات صغار إلى نصْب رمزية الشَّر في الأرض!.. إنها لحظة انقلابية في حياة المؤمن.. تُعلنُ فيها (البراءة) من الشيطان، وحزبه، وأعوانه!

فكما أنت في عرفة أعلنت (الولاء) للرحمن، فها أنت تُعلنُ عند الجمرة الكبرى (البراءة) من الشيطان، وكل أعوانه من طواغيت الأرض، الذين يحارَبون الدِّين، ولا يدينون بدين الحق!

وبذلك تكون قد اكتملت معالم [الولاء والبراء] في حياتك، وأصبحتَ مسلماً حقاً؛ توالي الرحمان، وتُعادي الشيطان!!

لذلك، فأنت عندما ترمي الجمرات السبع، تقول عند كل جمرة: (بسم الله، الله أكبر، رغماً - أو رجماً - من الشيطان وحزبه).

وبعد رميك الجمرات السبع، تنقطع عن التلبية التي كُنتَ ترددها منذ مجيئك من بلدك إلى هذا المكان العظيم، لأن معنى التلبية هي الاستجابة لما يريده الله منا، وقد تحققتْ مُرادات الله فينا؛ فقد حققتَ معالم الولاء والبراء، التي هي أساس عقيدة المؤمن.. فما فائدة عباداتنا إن لم نكن موالين لدين الله وأهله، ونعادي كل من يحارب الإسلام، ولو في جزئية من جزئياته!؟

نعم.. لقد حققتَ مراد الله فيك، واستجبت لله تعالى، وهذا هو سر الانقطاع من التلبية، بعد رمي الجمرة الكبرى.. وتنقلب التلبية إلى تكبيرات! (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا اله إلا الله، والله أكبر.. الله أكبر، ولله الحمد)!

وفي اللحظة التي يرجمُ الحاج فيها رمزية الشيطان، فإن كل المسلمين في بقاع الأرض يكبرون الله ويوحدونه، ويُصلّون صلاة العيد، مُكبرين سبع تكبيرات!.. وكأنه اتصال وجداني مع إخوتهم الحجاج، عندما يُكبرون مع كل حصاة من حصواتهم السبع..! أي أنَّ كل مسلم في العالم يُعلنُ العداوة للشيطان وحزبه!! ولهذا، كان السر من وراء عدم الدعاء بعد الجمرة الكبرى، وذلك لحصول مُراد الله فيك!

● ويستشعر الحاج بالصراع الأزلي بين البشر الممتثلين لأوامر الله، وبين الشيطان وحزبه، الذين عاهدوا على غواية الإنسان.. وتتذكر الآيات القرآنية العظيمة التي تبين فيها مدى عداوة الشيطان لنا في أواخر (سورة ص): {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}، وتتذكر أنت وعد الشيطان بأَنَ لا يذر من البشر من يكون من الشاكرين، عندما قال: { فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}(سورة الأعراف).. فأنت تدحض وعده وقوله، عندما تُعلنُ عبوديتك وانتماءك لله وحزبه! مصداقاً لقوله تعالى في (سورة الحجر): {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ *وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ}.

● وتتفكر في تسميتها جمرة العقبة! فهو استشعار بقوله سبحانه: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ* أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ* ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ* أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} (سورة البلد).

فهذه شروط الاقتحام من العقبة، لدخول الجنة..!

فأنت تستشعر عقَبَتَكَ التي تعترضك لدخول الجنة.. هل هي كبيرة أو صغيرة.. ثم ترفع يدك وتكبر: (الله أكبر).. وترمي الجمرة بتلك النية، فيحصل لك المراد، وتُجزى بفضل ذلك الأجر كله.. وبهذا تكون قد اجتزت العقبة، عند جمرة العقبة!

● وهو مكان تستشعر فيه موقف إبراهيم، ومقاماً من مقاماته - عليه السلام - مع الشيطان.. عندما حاول أن يصده عن أعظم استسلام لله في التاريخ؛ عندما أُمرَ بذبح ابنه إسماعيل - عليه السلام -.. فلم يستطع منعه.. ورَجَمه بالجمرات السبع.. إنه مقام عظيم من مقامات إبراهيم - عليه السلام -.

لذلك لا نستغرب ما ورد من الأجر الجزيل لمن يرمي الجمرات، في الأحاديث النبوية الشريفة:

- فعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه –، في حديث طويل، قال: قال رسول الله ﷺ: (... وإذا رمى الجمار، لا يدري أحد ما له حتى يوفاه يوم القيامة...)(حسنه الشيخ الألباني).

- عن ابن عباس – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا رميت الجمار؛ كان لك نوراً يوم القيامة..) (حسنه الألباني).. فتأمل قيمة النور في المحشر!

- وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه –، أن رسول الله ﷺ قال: (.. وأما رميك الجمار، فإنه مدخور لك...) (حسنه الشيخ الألباني).

- عن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه –، أن رسول الله ﷺ قال: (.. وأما رميك الجمار؛ قال الله - عز وجل -: { فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (علق عليه الألباني: صحيح لغيره).

٢- **الذبح (الهدي):**

ويعتبر ثاني أعمال يوم النحر، حيث يقوم الحاج، المتمتع أو القارن، بإهداء ذبيحة للحرم؛ تقرباً لله تعالى، وشُكراً.. قال تعالى: {فَمَنْ تمتع بالعمرة إلى الحجِّ فما استيسر مِنَ الهدي}.

فعليك، بعد أن رميت جمرة العقبة الكبرى، أن تفدي لنفسك فداءً، اقتداءَ بإبراهيم - عليه السلام -، الذي افتدى عن ابنه إسماعيل - عليه السلام -، بعد الابتلاء العظيم الذي ابتلاه الله تعالى، بأنَّ يذبح ابنه، ونجاحه في هذا الابتلاء العظيم، بعد أن أسلم الأب والابن لأوامر الله تعالى، ورضيا بقضائه..

فاستشعر هذه الآيات، في هذا الموقف، عندما تهدي لله تعالى:

{رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيِّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}.

نعَم، هو البلاء المبِين! وتأمل معي أنَّ الإسلام هو التسليم لكل أوامر الله تعالى، وقد اكتمل إسلامهما عندما رضيا بقدر الله، وتسارعا لإتمام الأمر الإلهي بتنفيذ الذَّبح، وحينها قال الله تعالى {فأسلما}! فجعل الله تعالى أن يفدي كل منَّا بذبيحة من بهيمة الأنعام، رحمة منه – عز وجل - ومنَّة،

لذلك قال رسول الله ﷺ:

(خَير الحجّ العجّ والثَّج) (رواه الترمذي، وابن ماجه).

والعَجّ: هو كثرة التلبية بصوت مرتفع.. والثَّج: هو كثرة الذبح..

فخير الحج يكون بكثرة الذبح، لما فيه من معاني الفداء لله تعالى، وتقرباً إليه سبحانه.

واعلم أخي الحاج، وتذكر، عند الذبح، هذه الآية القرآنية: {لَنْ يَنال اللهُ لحومها، ولكن يناله التقوى منكم}..

نعم.. إن الله غني، لا ينال من لحومها، ولا دمائها، فهو الغني - جلَّ شأنه -، وإنما يناله الإخلاص منها، والنية الصالحة، والاحتساب عند الله.

وفي رواية عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه –، أن رسول الله ﷺ قال، في حديث طويل: (.. وأما نحرك، فمدخورٌ عند ربك...) (علق عليه الألباني: صحيح لغيره).

فاسأل الله أن يدخّر لك ثواب نَحرِكَ وهَديك..

ملاحظة بشأن المصطلحات الفقيه للذبيحة:

١- الهدي: يكون داخل الحرم كله، وليس داخل منى فقط، ويكون للمتمتع والقارن، وأمره أمر الوجوب، ويمكنك أكله..

٢- الفداء: هو لمن عمل محظوراً من المحظورات.. ولا يجوز أكله.

٣- الأُضحية: سنة مؤكدة، ويمكنك ذبح الشاة في أي مكان.. ويجوز أكلها.

٣- **الحَلق، أو التقصير:**

وثالث أعمال النحر هو حَلق الشعر، أو تقصيره.. فبعد أن قَدَّمتَ آية البراءة من الشيطان وحزبه، عند جمرة العقبة. وبعد أن فديت لنفسك بذبيحة، وقَدَّمتَ قُرباناً لله تعالى، ليَمُنَّ الله عليك.. فإنه قد كتب لك حياة جديدة، وغُفِر لك.. فَقَدِّم الآنَ لله تعالى آية العبودية!

نعم.. قَدِّم رأسك لحلاقك، بأن يحلقه من اليمين إلى الشمال.. لماذا؟

لأنها علامة منتهى الإذلال، ومنتهى الإعلان عن عبوديتك لله عز وجل، بأن تقول: يا رب، هذا رأسي لك..!

وقد كانت العرب قديماً إذا أرادوا أن يعتقوا عبداً، كانوا يحلقون رأسه، ثم يطلقونه، علامة إذلاله.. لذلك أراد الله تعالى، تعليماً للأمة، بأن يتخرج الحاج، من مدرسة الحجّ، وقد اجتاز كل مراحل الانصياع والسمع والطاعة، وبلغ منتهى العبودية لله تعالى، والاستسلام التام لأوامره سبحانه.. وهذا هو معنى الآية: {فلمّا أسلما، وتلّه للجبين}!

وهذه هي حقيقة التحرر من كل نوازع النفس، لأنَّ منتهى العبودية لله تعالى هو منتهى التحرر من كل ما يعيقك، ويقيدك، من النوازع البشرية.

وبما أنَّك ما زِلتَ تحت بنود وقوانين الإحرام، التي تلزمك وتمنعك من أمور عديدة، تصل إلى حد منعك من نتف شعرة من شعرات جسمك.. فلكي تخرج من الإحرام تماماً، عليك فعل ثلاثة أمور، وهي: ١- رمي جمرة العقبة ٢- حلق أو تقصير الشعر ٣- طواف الإفاضة.. وبعمل اثنين من هذه النقاط الثلاث، فإنك تخرج من ملابس الإحرام، وكل ما حَرِمتَ منه، إلا النساء، ويسمى هذا التحلل بالتحلل الأصغر.. وإن أتممت الثلاث، فقد تحللت من التحلل الأكبر، ويحل لك كل ما حُرمتَ منه.

لذلك فبعد حلقك رأسك، أو تقصيره، وقد قمت برمي الجمار، فقد أتممت التحلل الأصغر، وأديت بنود ملابس الإحرام، وقَدَّمتَ آية العبودية، فهنيئاً لك التحلل، منّةً من الله سبحانه..!

وتتسارع إليه مستشعراً شوقك إلى دخول المسجد الحرام، وأنت محلق الرأس.. ومن السنّة التعطر والتطيب، كما كانت عائشة – رضي الله عنه – تفعل ذلك للحبيب المصطفى بتعطيره.. وفي ذهنك آيات القرآن العظيم من (سورة الفتح):

{لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا * فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيباً}..

ومن الأحاديث الشريفة، التي تؤكد على الأجر الجزيل، هي:

- عن ابْنِ عُمَر، أن رسول الله ﷺ قال: (رَحِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ. قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: رَحِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ. قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: رَحِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ. قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَالْمُقَصِّرِينَ)(صحيح مسلم).

- وعن مالك بن ربيعة السلَولي، أن رسول الله ﷺ قال: (اللهمَّ اغفرْ للمُحلِّقينَ، اللهمَّ اغفرْ للمُحلِّقينَ. قال: يقول رجلٌ من القومِ: والمُقصِّرين؟ فقال رسولُ الله - صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ - في الثالثة، أو في الرابعة: والمُقصِّرينَ. ثم قال: وأنا يومئذ محلوقُ الرأس، فما يسرني بحلقِ رأسي حُمْرَ النَّعَمِ، أو خطرًا عظيمًا) (علق عليه الشيخ الألباني: صحيح الإسناد).

٤- **طواف الإفاضة**:

وهو رابع أعمال يوم النحر (وقت فضيلة)، فيجوز تأخيره الى أيام التشريق، أو بعده. ويعتبر من أركان الحجّ، وله عدة أسماء، منها: ١-طواف الحج ٢- طواف الفرض ٣- طواف الزيارة ٤ - طواف الركن.

وهو يختلف عن طواف القدوم، وطواف النافلة..

وقد أشار إليه القرآن العظيم بقوله تعالى: { ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}..

البيت العتيق.. هو البيت الأصيل، والذي يعتق فيه العبيد، بطوافهم في اليوم العظيم..!

فبعد الرمي، والذبح، والحلق، يأتي طواف الإفاضة.. وفيه يفيض حجاج بيت الله الحرام نحو الكعبة المشرفة، ليستكملوا أركان حجهم.. وفيه تفيض العيون، سائلين الله القبول، مُقتفين أثر الرسول، فهو القائل ﷺ: (خذوا عني مناسككم)، مستحضرين الأجر العظيم في قبول توبتهم، وفضله وكرمه في إتمام حجهم.

وقد بيّن الرسول ﷺ فضله، في الحديث المروي عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (... وأما طوافك بالبيت بعد ذلك؛ فإنك تطوف ولا ذنب لك، يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك، فيقول: اعمل فيما تستقبل؛ فقد غفر لك ما مضى...) (حسنّه الألباني).. فهنيئاً لك غفرانك ما مضى، وأنت تطوف ولا ذنب عليك!

- وعن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (.... وأما طوافك بالبيت إذا ودعت؛ فإنك تخرج من ذنوبك كيوم ولدتك أمك...) (حسنّه الألباني).

وبهذا يكون قد تحللت التحلل الأكبر، وأدَّيْتَ كل بنود الإحرام التي كانت عليك، وتصبح حراً متمتعاً بما أحَلَّه الله لك..

٥- **طواف السعي:**

وهو خامس أعمال يوم النحر، ويعتبر أيضاً ركناً من أركان الحج، ويبدأ بما بدأ به الله تعالى، فقد قال الله تعالى: {إنَّ الصفا والمروة من شعائر الله}، وبه تتم جميع أركان الحج، ويتم الله نعمته على حجاج بيت الله، بأن أدّوا جميع أركان الحج.

وأثناء السعي تتذكر أنه قد كتبت لك حياة جديدة عند طوافك، وقول الملك لك: افعل ما بقي من عمرك، فأنت تسعى كأنك تقول: بالسعي سنبلغ الدرجات العُلى من الجنة، وتتذكر أنه بالسعي تنتصر الدعوات، وتتذكر الحديث المروي عن ابن عمر – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ عندما قال: (... وأما طوافك بالصفا والمروة؛ كعتق سبعين رقبة)! (علق عليه الألباني: صحيح لغيره/ صحيح الترغيب والترهيب).

أيام التشريق:

وهي الأيام الثلاثة بعد يوم النحر، وهي أيام الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، من شهر ذي الحجة. وسمّيت بأيام التشريق: لأن الناس كانوا يشرّقون فيها اللحم..

من أعمالها:

١ -المبيت في منى ٢- رمي الجمرات الثلاث، بعد الزوال ٣- يجوز التعجل في اليوم الثاني عشر، فينفر من منى إلى مكة قبل الغروب، ثم يطوف طواف الوداع..

- وقد سأل عنها الرسول ﷺ فقال: (إنها أيام أكل وشرب وذكر لله – عز وجل -) (أخرجه مسلم).

- وهي الأيام المعدودات، التي قال الله - عز وجل – فيها: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ}.

- وجاءَ في حديث عبد الله بن قرط، أن النبي ﷺ قال: (أعظم الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم القرّ) القَرّ: يعني أول أيام التشريق، أي القرار في منى. (أخرجه الإمام أحمد).

- ولما كانت هذه الأيام هي آخر أيام موسمِ فاضل، فالحجاج فيها يكملون حجهم، وغير الحجاج يختمونها بالتقرب إلى الله تعالى بالضحايا، بعد عمل صالح في أيام العشر، استحب أن يختم هذا الموسم بذكر الله تعالى للحجاج وغيرهم.

وعقب الحج أمر بذلك، فقال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}..

فتجد أنَّ الله قد أوجب للحجاج أمرين؛ أحدهما بالليل، والآخر بالنهار:

١- وجوب المبيت في الليل (أكثر من نصف الليل).

٢- وجوب رمي الجمرات الثلاث في النهار (الجمرة الصغرى، ثم الوسطى، ثم الكبرى).

وتجد الرسول ﷺ يوجه إليك رسالة مفادها أنك مخيّر بين الذهاب إلى مكة - والتي تكون الصلاة فيها بمئة ألف صلاة! - أو البقاء في منى، ولكن يقول لنا البقاء أفضل.. لماذا؟! مع أنك لا تفعل شيئاً في منى من عبادات، حتى الصلاة تكون قصراً، وليست فيها نوافل..

● لكي يتعلّم الحجاج فقه التعايش مع بعضهم البعض!

فكأنه مؤتمر عالمي، يجتمع فيه المسلمون، بكافة قومياتهم وأجناسهم ولغاتهم، يجتمعون ولكن بعد جهد جهيد، وبعد تطهيرهم من كل إثم، وكل فكر فاسد، وهم جميعاً قد وُلدوا من جديد، ولهم قلوب صاغية وصافية أمام بعضهم البعض..

وهم قد تهيؤوا نفسياً على التعايش، وكأنهم في جنّة الله، يتفاخرون مع بعضهم البعض، لذلك كان من واجبات الحاج، الخروج من الخيمة التي يقيم فيها، ومقابلة هؤلاء الحجاج، والتفاهم معهم، والتدارس فيما بينهم..

وعلى قادة الأُمة أن يستثمروا هذه الأيام والأوقات المباركة، كملتقى عالمي للمسلمين، يتدارسون ويتباحثون مشاكل الأُمة وهمومها، وكيفية حلها، وكيفية التواصل فيما بعد..

ولذلك نرى أن قوى الغرب تنظر إلى الحج كمؤتمر عالمي، ويخافون أن يصبح للمسلمين شأن عظيم، لما فيه من ميزة قوية في التجميع، وتوحيد الصف حول وحدة المعتقد والفكر.

ولقد كان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يدرك هذه الميزة في الحج، فيستثمر هذه الأوقات للتباحث مع وُلاة الأمر في المقاطعات البعيدة الشاسعة، وكيفية إدارة مناطقهم، والمشاكل التي تعوقهم، وحلها..

● لكي يستشعر الحاج المعاني العميقة في الذكر وقوة التكبير..

فأنت تُكَبر الله، وتُهَلِّل، وتحمد الله، وترفع صوتك، والكل يرفع صوته، فترتَجّ منى من التكبيرات، فيغرس في نفسك الإباء والشجاعة والعزيمة والهِمّة العالية. فهذا العقلَ الجمع في الترديد، يفسره علماء الاجتماع بأن له مردوداً إيجابياً على نفسية الفرد، ويولد طاقة هائلة من الإيجابية..

تُكَبِّر الله، فتستشعر عظمة الله في قلبك، وكيف أنَّ هذا الدين له سَنَد عظيم.. فتتيقن أنَّ الإسلام قادم لا محالة!

تَذْكُر، وتُكَبِّر، وتشكره على النعمة العظيمة التي أعطاك إيّاها، وجعلك تحج، وتوفق في أداء مناسكه، وتكون مع هذا الركب العظيم.. وتتذكر الملايين الذين لم يحجّوا، أو مرضوا، أو ماتوا، وكانوا يتمنون لو كانوا مكانك.. وأنت الذي جِئت إلى هُنا! فلله المِنَّة والفضل..

لذلك كان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يُكَبِّر الله في صومعته في منى، وتهتَزّ أركان قُبته، ويسمعه الناس، فيكبرون مع تكبيراته.. وكان عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – يُكَبِّر في منى، بعد كل صلاة، وفي مجالسه، وعلى فراشه.. حتى النساء كُنَّ يكَبِّرْنَ مع الرجال في المساجد، في عهد عمر بن عبد العزيز.. وهي أيام أكل وشرب، فلا يجوز الصوم فيها، لكي تقوى على شعيرة الذكر، والشكر لله وحده..

نعم، الكُل يذكر الله، فتستشعر وكأنَّ الأحجار والسماوات والأرض، وحتى البهائم، تذكر معك، فتتذكر الآية العظيمة: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}.

- لكي تتفكر ماذا حصل في منى، وما هي المعاني العميقة فيها..

- فهذا جبل (مجر الكبش) أمامك، وتراه بأمّ عينك، فتتذكر ما قام به إبراهيم - عليه السلام - عندما خرج بابنه إسماعيل، وصعد به هذا الجبل، لينَفِّذَ أمر الله تعالى، فيذبحه قُرباناً لله: {فلمّا أسلما، وتَلَّهُ للجبين}!

- وهذه مواقع الجمرات، التي تُذكرك بالمواقف والوقائع التي حصلت لتلك العائلة العظيمة، والتي خَلَّدَتْ مواقفهم، وأصبحت آثارهم مناسك للحج.. وكيف انتصر الابن إسماعيل على غواية الشيطان، عندما صَدَّه عن تنفيذ أمر ذبحه، وحاول إغراءه بشبابه وكهولة أبيه! عند الجمرة الصُغرى.. وكيف سيطرت الأم (هاجر) على مراوغة الشيطان لها، واستغلاله عاطفة الأمومة، وحنانها لابنها الوحيد، وهو في ريعان شبابه! عند الجمرة الوسطى.. وكيف انتصر الأب (إبراهيم) الحنون على مكائد الشيطان، الذي لبس لباس الناصح الأمين، لمنع تنفيذ الأمر الإلهي العظيم بذبح ابنه.. عند الجمرة الكبرى.. إنه اقتداء للنموذج الأمثل للعائلة الموحدة لله، والمستسلمة لأوامره - سبحانه -، والتي تمثل قمة في التفاهم والتناغم والاحترام فيما بينهم، على لسان الأب، في قوله سبحانه وتعالى: {قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى).. إنه تعبير في منتهى الرقي، في تبليغ الأمر الإلهي للابن.. وجواب الابن المطيع لأبيه بأجمل تعبير، يتبين في قوله تعالى على لسان الابن: { قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}.. وتأمل في كلمة (أبتي)، ولَمَ يقل: يا أبي! وقوله: {افعل..}، بدون تردد.. وتسليم الأمّ الصابرة

المحتسبة، التي كادت أن تهلك، يومَ أن كان ابنها صغيراً، من شدة العطش، وكانت صابرة محتسبة.. فها هي تنجح في الابتلاء الأكبر، عند كِبَرِ سِنها، وبلوغ ابنها الوحيد النضج! إنه البلاء المبين!

● ثُم تتأمل عند جمرة العقبة الكُبرى، وكيف بايع الأوس والخزرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الدفاع حتى الموت عن رسالة الإسلام الخالدة، وسميت هذه البيعة الكُبرى بـ (بيعة الموت).. وتتأمل انعقاد أول مؤتمر تأسيسي، لأول دولة في الإسلام (دولة المدينة المنورة).. وتعلم أنَّ الإسلام انتصر هنا في (منى)، فلولا منى لما كانت المدينة المنورة!

ومن هنا تُدرك أهمية البقاء في منى.

● وأخيراً، تتفكر وتستشعر في منى كيف أن الله يخرج الحي من الميت! وكيف أن الله أخرج من بين هذه الجبال الجوفاء والصمّاء، التي توحي أنه لا حياة فيها، رسالة عالمية حيّة مَرِنة، تستوعب كل متغيرات الحياة إلى قيام الساعة، ينبهر بها العُقلاء والعُظماء.. فتتأمل قوله سبحانه وتعالى: {.. أنّي أخلُقُ لكم من الطين كهيئة الطير فأنفُخُ فيه فيكونُ طيراً بإذن الله}.. فتتجلّى عظمة هذا الدين في قلبك ووجدانك.

وأخيراً..

(طواف الوداع)

وبعد إتمامك كل أركان الحجّ وواجباته، لم يبقَ لك إلا الرحيل إلى ديارك، وقد اكتملت لديك مفاهيم الصبر والتحمل والخُلُق الرفيع، والجهد والجهاد، فلا رَفَثَ ولا فسوق ولا جِدال، وتجَذَّرَت في أعماقِ أفكارك المعاني العميقة في الحجّ وأسراره، ولكن لا يمكنك المغادرة إلى ديارك دون أن تودع البيت العتيق! بيت الله الحرام..

فعن ابن عباس – رضي الله عنه – قال: كان الناس ينصرفون في كل وِجه، فقال رسول الله ﷺ: (لا ينفرَنَّ أحدكم، حتى يكون آخر عهده بالبيت).. لذلك، فآخر واجبات الحج قبل الرحيل، هو طواف الوداع..

● فهو إيحاء واستشعار كون أن كل أعمال الإسلام فيها انتظام وترتيب، فلا يجوز أن ترحل حشود الحُجاج وتنصرف إلى ديارها متفرقةً.. بل على الحجاج أن يختموا رِحلتهم بالطواف، وكما قيل العبرةُ بالخواتيم، ليستوعبوا قَبول حجّهم عند صاحب البيت!

● وهو استشعار أنَّ الله - عز وجل - يُريد بالحُجاج أن يغتنموا حجّهم باجتماعهم حول بيته العظيم قبل مغادرتهم، ليُذَكِّرهم أنهم كلما اعتصموا ببيت الله، وتوحدوا حول قِبلتهم،

فلن يتفرقوا أبداً، ولا يستطيع أحد أن يُفرِّق شملهم! وتتذكر الآية العظيمة في قوله سبحانه: {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا}.

● وأنَّ من أسماه الوداع، يغرز في شعورك الداخلي الحنين!.. فالوداع يجلب الحنين!

نعم.. فعندما تطوف طواف الوداع، تستشعر معاني الوداع لهذا البيت العظيم، وهل سيكون آخر العهد به؟ وهل ستكون له من عودة؟! وتتردد في ذهنك تساؤلات:

هل قُبِل الحجّ أم لا؟.. هل رُفِع العمل أم لا؟.. هل غُفر الذنب، أم لم يُغفَر؟.. هل عَلَتِ الدرجات، أم لم تعلُ؟.. هل أنتَ من العتقاء، أم لم تُعتَق؟

تساؤلات تستجلب الخوف والفزع، والدعاء والتضرع، ومشاعر تسجلب معاني الحنين والفراق والوداع.. فتمتزج معاني الخوف والرجاء، مع دموع الوداع والحنين.. وحينها تهتف من أعماق قلبك قائلاً:

(اللهم اجعل حجي مبروراً، وذنبي مغفوراً)..

نسأل الله القَبول..

إليك إلهي قد أتيت مُلَبياً
فبارك إلهي حجَي ودُعائيا
قصَدّتُك مُضطَراً وجِئتُكَ باكيا
وحاشاك ربِ أن تُرَدَّ بُكائِيَ
كفاني فَخراَ أنني لكَ عابِدٌ
فيا فَرحَتي أنْ صرتُ عبداً مواليا❐

في أخلاق النبي ﷺ مع زوجاته

الرفق في الحياة الزوجية

د. عبد اللطيف ياسين

كان الرسول ﷺ خير الناس، وخيرهم لأهله، وخيرهم معاشرة لأزواجه بالإكرام والاحترام، حيث قال ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِه، وَأَنَاخَيْرُكُمْ لأَهْلِي»[1]، وكان كريماً عفواً في تعامله مع أهله وزوجه.. وإذا كان بالناس رَؤوفاً ورحيماً، فكيف مع أهله وزوجاته؟ إذا كان لينا مع أمته، فكيف مع زوجاته؛ كان محسناً رؤوفاً متلطفاً متوداً ممازحاً لهن، وكان

١- حدثنا محمد بن يحيى حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان بن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي، وإذا مات صاحبكم فدعوه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح من حديث الثوري، ما أقل من رواه عن الثوري. وروي عن هشام بن عروة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً، قال الشيخ الألباني: صحيح، سنن ابن ماجه(١/ ٦٣٦).سنن الترمذي - شاكر + ألباني(٥/ ٧٠٩).

من شأنه ﷺ أن يرخم اسم عائشة رضي الله عنها، كأن يقول لها: (ياعائش)[٢]، ويقول لها: (ياحميراء)، "عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدْ سَخَّنْتُ مَاءً فِي الشَّمْسِ، فَقَالَ: «لَا تَفْعَلِي يَاحُمَيْرَاء، فَإِنَّهُ يُورِثُ الْبَرَصَ»[٣]، وقد كان يناديها بابنة الصديق.

كان يعين أهله، ويساعدهم في أمورهم، ويكون في حاجتهم، وكانت عائشة تغتسل معه ﷺ من إناء واحد، «كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَرَسُولُ اللهِ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ وَنَحْنُ جُنُبَانِ»[٤].. "عَنِ الأَسْوَدِ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: «كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ - تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ»[٥].

"عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللهُ عنه - قَالَ: بَلَغَ صَفِيَّةَ - رضي الله عنها - أَنَّ حَفْصَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَبَكَتْ، " فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ "وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ؟" فَقَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اتَّقِي اللهَ يَا حَفْصَةُ "[٦].

٢- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي(ت: ١١٨٨هـ)، مؤسسة الخافقين ومكتبتها – دمشق، ط: الثانية - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م،(٢/ ٣٧٥).

٣- رواه خالد بن إسماعيل المخزومي نا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله وقد سخنت ماء في الشمس، فقال لا تفعلي يا حميرا فإنه يورث البرص). غريب جداً، وخالد بن إسماعيل متروك، الدارقطني الجزء: ١ / الصفحة: ٣٨ / حديث رقم: ٢

٤- صحيح مسلم (١/ ٢٥٦)، رقم الحديث(٣٢١). حدثنا هَارُونُ بن سَعِيد الْأَيْلِيُّ حدثنا بن وَهْبٍ أخبرني مَخْرَمَةُ بن بُكَيْرٍ عن أبيه عن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرحمن قال قالت عَائِشَةُ: كان رسول الله ﷺ إذا اغْتَسَلَ بَدَأَ بِيَمِينِهِ فَصَبَّ عليها من الْمَاءِ فَغَسَلَهَا، ثُمَّ صَبَّ الْمَاءَ على الْأَذَى الذي بِهِ بِيَمِينِهِ، وَغَسَلَ عنه بِشِمَالِهِ، حتى إذَا فَرَغَ من ذلك صَبَّ على رَأْسِهِ. قالت عَائِشَةُ كنت أَغْتَسِلُ أنا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ من إِنَاءٍ وَاحِدٍ وَنَحْنُ جُنُبَانِ.

٥- صحيح البخاري(١/ ٢٣٩). رقم الحديث(٦٤٤). حدثنا آدَمُ قال حدثنا شُعْبَةُ قال حدثنا الْحَكَمُ عن إبراهيم عن الْأَسْوَدِ قال: سَأَلْتُ عَائِشَةَ ما كان النبي ﷺ يَصْنَعُ في بَيْتِهِ، قالت كان يَكُونُ في مِهْنَةِ أَهْلِهِ (تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ)، فإذا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إلى الصَّلَاةِ.

٦- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد(١٦/ ٩١). صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان(٢/ ٣٧٤)رقم الحديث(٢٢٤٨).

"عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِذَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُ نَفَقَةً عَلَى أَهْلِهِ، وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً"[٧].

"عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا سُئِلَتْ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: "كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ"[٨].

"عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «تَقَدَّمُوا»، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: «تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ»، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «تَقَدَّمُوا» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ» فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: «هَذِهِ بِتِلْكَ»[٩].

"عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَوِّي لَهَا (صفية) وَرَاءَهُ بِعَبَاءَةٍ، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ، فَتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ حَتَّى تَرْكَبَ"[١٠].

"عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلاَّ خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ"[١١].

هذا غيضٌ من فيض رفق النبي مع أزواجه.. وما أحرى بالمتزوِّج أن يتحلّى بالرفق مع زوجته، وخاصّة لمن له أكثر من زوجة، ولكل واحدة منهن سجية مختلفة وطبع خاص وثقافة خاصة، وما أحرى به أن يستمع إلى مطالب النساء وإلى عتابهن، ويتحلّى بالصّبر والرفق معهن.

المعروف والإصلاح في الحياة الزوجية:

إنّ الإسلام الذي رضيه الله للبشرية ديناً، ونزله على قلب سيد البشر ﷺ يحمل بين طياته عدداً من القوانين والموازين والمعايير الأخلاقية، ومن أشهر هذه القوانين، التي كان

٧- مختصر صحيح الإمام البخاري(٣/ ٤٢٢).
٨- المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة، (١٨/ ١٨٥).
٩- مسند أحمد مخرجاً (٤٣/ ٣١٣).
١٠- صحيح البخاري - الطبعة الأميرية (٣/ ٨٤).
١١- صحيح البخاري - طبعة دار الشعب (٥/ ٤٨).

لها دور كبير في تقدّم وانتشار المسلمين على وجه المعمورة، هي: اللين واللاّعنف، الذي أكّدت عليه الآيات المباركة والأحاديث النبوية المطهرة.

إنّ الآيات الداعية والمحفّزة، وفي بعضها الآمرة بالعفو وعدم ردّ الإساءة بمثلها، تحمل دلالة واضحة إلى الدعوة إلى اللاّعنف، فليس العفو إلاّ ضرباً من ضروب اللاّعنف.

قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(سورة البقرة/ ١٠٩). في البدء جاء معنى العفو والصفح "العفو: ترك العقاب على الذنب، كما قال تعالى: {لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ}(سورة التوبة/ ٦٦). والصفح: الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، وهو يشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب"[١٢]. "اختلف الناس في هذه الآية، فقالت فرقة، فيها مالك وغيره: إنها مخرجة المطلقة بعد الفرض من حكم التمتيع."[١٣]، أو طلاق المدخول بهن، أو قبل الدخول. وقد تناول أهل العلم؛ من الفقهاء والمفسرين، هذا الموضوع من جوانب وزوايا متعددة، إلا أن المتفق عليه في هذا الموضوع هو أن هناك مشكلة أسرية، "والآيات الواردة في هذه السورة تتناول بعض أحكام الزواج والمعاشرة، والإيلاء والطلاق والعدة والنفقة والمتعة، والرضاعة والحضانة وغيرها"[١٤]، ولا يخلو أي مجتمع من هذه المشاكل. وكما يقول الأستاذ سيد قطب: "ومن ثم كان نظام الأسرة في الإسلام هو النظام الطبيعي الفطري المنبثق من أصل التكوين الإنساني، بل من أصل تكوين الأشياء كلها في الكون، على طريقة الإسلام في ربط النظام الذي يقيمه للإنسان بالنظام الذي أقامه الله للكون كله، ومن بينه هذا الإنسان"[١٥]. والمتدبر في أجواء هذه السورة، وفي سياقاتها، يلمس مسائل حساسة، ولكن بلمسات رحمانية علوية، تطعم الحياة الأسرية بالرحمة والحب، فقد وردت كلمة (الإصلاح)، وفي هذه الأجواء الساخنة بين الزوجين، يذكرهم الحق - جل شأنه - نية الإصلاح كشرط من شرائط التعايش والاستمرارية: {وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ

١٢- تفسير المراغي، (١/ ١٩٠).

١٣- تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (١/ ٣٢٠).

١٤- في ظلال القرآن، (١/ ٢٣٦).

١٥- المصدر نفسه (١/ ٢٣٥).

ٱلَّذِي عَلَيهِنَّ بِٱلمَعرُوف وَلِلرِّجَال عَلَيهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(سورة البقرة/ ٢٢٨)، ووردت في هذا السياق كلمة المعروف أيضاً.

مرة أخرى يأتي الأمر الرباني بـ(إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان): {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ..}(البقرة/٢٢٩)، وأطلق سبحانه كلمة الطلاق، رغم وقعها المؤذي، والمترتبات النفسية والاجتماعية والاقتصادية، في أجواء مليئة بالمعروف: { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(سورة البقرة/ ٢٣١)، وحذّر ونهى عن الإمساك بغية الإضرار بهن: { وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا}. وتارة أخرى يستعمل كلمة المعروف لبناء علاقة أخرى مع كائن آخر، إذا أرادت أن تشكل أسرة أخرى، وذلك أزكى وأطهر للقلوب المؤمنة، التي تذعن وتستسلم للوحي الإلهي: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ..}(البقرة/ ١٣٢)، {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}(البقرة/ ٢٣٣).

والأمر أن يكون الرزق والكسوة بالمعروف، والنهي عن إيصال الضرر بالوالدة بسبب ولدها (العُرف)، وهو المعروف؛ لأن النفوس تسكن إليه"[١٦]، ولم يأت ذكر العرف والمعروف في سياق المذمّة أو السوء. إذاً، إذا أبعدنا المعروف الذي يأت ضد المنكر، لوجدنا أن العرف هو ما تعارف عليه الناس وتعالى أمامهم، ووجدوه حسناً، ووافق الشرع، ولم يأت بمعنى ما تعارف عليه الناس من أمور السوء وما يخالف الشرع. وهو - كما اختصره صاحب البحر المحيط -: "وَالْمَعْرُوفُ هُوَ الْمَأْلُوفُ شَرْعًا وَمُرُوءَةً"[١٧]. {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ

١٦- دراسات في فقه اللغة، د. صبحي إبراهيم الصالح (المتوفى: ١٤٠٧هـ)، دار العلم للملايين، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م، (ص/ ١٧٧).

١٧- البحر المحيط في التفسير، (٢/ ٥٣٤).

مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}(سورة البقرة/ ٢٣٤).

من الآية ٢٢٤ وإلى ٢٣٧ في (سورة البقرة) ذكر الله - سبحانه وتعالى - كلمة المعروف عشر مرات، تذكيراً وتوجيهاً بأن جميع تلك الظواهر الاجتماعية والنفسية يجب أن تعامل معاملة تندرج تحت كلمة (المعروف)، هذا في حالة أسوأ مرحلة تمر بها مرحلة العلاقة الزوجية، وتعتبر هذه المرحلة في أدنى مستوياتها، ومع هذا يجب أن تكون المعايير والموازين في التعامل بين كلا الطرفين قائمة على المعروف. وهو - كما قلنا - ضرب من ضروب الرفق، وهو ضد العنف، بدءاً بجانب الأحاسيس، إلى الكلمة، وناهيك عن العنف الجسدي، حيث النهي شديد بحيث لا تتضرر المرأة، وإنما هي علاقة قائمة بالمعروف، وفي المعروف، وتنتهي بالمعروف: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}(سورة البقرة/ ٢٣٥).. "وَأَنَّ ذَلِكَ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ إِجْحَافٍ لَا بِالزَّوْجِ وَلَا بِالزَّوْجَةِ، وَذَكَرَ جَوَازَ فَصْلِهِ وَفِطَامِهِ، إِذَا كَانَ ذَلِكَ بِرِضَا أَبِيهِ وَأُمِّهِ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ، وَجَوَازَ الِاسْتِرْضَاعِ لِلْأَوْلَادِ إِذَا اتَّفَقَ الرَّجُلُ وَالزَّوْجَةُ عَلَى ذَلِكَ، وَأَشَارَ إِلَى تَسْلِيمِ أَجْرِ الْأَظْآرِ، تَطْيِيبًا لِأَنْفُسِهِنَّ، وَإِعَانَةً لَهُنَّ عَلَى مَحَبَّةِ الصَّغِيرِ، وَاشْتِمَالِهِنَّ عَلَيْهِ، حَتَّى يَنْشَأَ كَأَنَّهُ قَدْ أَرْضَعَتْهُ أُمُّهُ، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ جَالِبٌ لِلْمَحَبَّةِ، ثُمَّ خَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ بِالْأَمْرِ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَبِأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ، كَمَا خَتَمَ تَعَالَى الْآيَةَ الْأُولَى بِالْأَمْرِ بِالتَّقْوَى بِالْعِلْمِ بِأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى الْمُجَازَاةِ، وَتَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ تَعَالَى"[١٨].

{لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ}(سورة البقرة/ ٢٣٦).

{وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}(سورة البقرة/ ٢٣٧).

١٨ - البحر المحيط في التفسير، (٢/ ٥١٢).

"وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ، خطاب للزوجين"[19]، وفي كل يهدي الله أصحاب الحقوق والنزاع في كل ما مضى إلى أمر تحتاجه البشرية حاجة ملحة، وهو أن العفو هو أقرب للتقوى.

الرفق في العلاقات الاجتماعية:

أولاً: قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}(سورة البقرة/ ١٧٨).

"النداء للذين آمنوا، وبهذه الصفة التي تقتضي التلقي من الله، الذي آمنوا به، في تشريع القصاص، وهو يناديهم لينبئهم أن الله فرض عليهم شريعة القصاص في القتلى، بالتفصيل الذي جاء في الآية الأولى. وفي الآية الثانية يبين حكمة هذه الشريعة، ويوقظ فيهم التعقل والتدبر لهذه الحكمة، كما يستجيش في قلوبهم شعور التقوى، وهو صمام الأمن في مجال القتلى والقصاص. وهذه الشريعة التي تبينها الآية: أنه عند القصاص للقتلى- في حالة العمد - يقتل الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ}، وهذا العفو يكون بقبول الدية من أولياء الدم، بدلاً من قتل الجاني، ومتى قبل ولي الدم هذا ورضيه، فيجب إذن أن يطلبه بالمعروف والرضى والمودة، ويجب على القاتل، أو وليه، أن يؤديه بإحسان وإجمال وإكمال، تحقيقاً لصفاء القلوب، وشفاء لجراح النفوس، وتقوية لأواصر الأخوة بين البقية الأحياء. وقد امتن الله على الذين آمنوا بشريعة الدية هذه، بما فيها من تخفيف ورحمة: {ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ}.

لم يكن هذا التشريع مباحاً لبني إسرائيل في التوراة، إنما شرع للأمة المسلمة استبقاء للأرواح عند التراضي والصفاء، {فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ}، وفوق العذاب الذي يتوعده به في الآخرة يتعيّن قتله، ولا تقبل منه الدية، لأن الاعتداء بعد التراضي والقبول، نكث للعهد، وإهدار للتراضي، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب. ومتى قبل ولي الدم الدية، فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدي.

من ثم "ندرك سعة آفاق الإسلام، وبعد بصره بحوافز النفس البشرية، عند التشريع لها، ومعرفته بما فطرت عليه من النوازع. إن الغضب للدم فطرة وطبيعة، فالإسلام يلبيها بتقرير شريعة القصاص، فالعدل الجازم هو الذي يكسر شر النفوس، ويفثأ حنق الصدور،

١٩ - زاد المسير في علم التفسير، (١/ ٢١٤).

ويردع الجاني كذلك عن التمادي"[٢٠]. وفي قوله تعالى: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى}، بيان لتكافؤ المسلمين، فليس حر أحسن من حر، أو عبد أكرم من عبد، أو أنثى أفضل من أنثى! وقد رأى بعض الأئمة الفقهاء أن القصاص هنا إنما يقع بين المتماثلين: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، فلا يقتل الحر بالعبد، ولا الرجل بالمرأة! وهذا تخريج غير سليم للآية الكريمة، إذ إنه ليس المراد هذا التقسيم النوعي للناس، بالذي يوجب التفاضل بين نوع ونوع! ولو كان موجباً لذلك لما كان قتل المرأة بالرجل، ولا العبد بالحر قصاصاً، إذ لا يفي دم المرأة - على هذا التقدير- بدم الرجل، وكذلك دم العبد ودم الحر! وأولى من هذا أن تفهم الآية على وجه آخر، وهو أن التنويع الذي جاءت به الآية، ليس مقصوداً به التفاضل بين نوع ونوع، وإنما المقصود به أولاً هو: ألّا تفاضل بين أفراد الأنواع؛ فالحر لا يفضل الحر، سواء أكان قرشياً، أو غير قرشي، وهكذا سائر الأنواع.

فإذا استقام ذلك، وزالت الفوارق بين الناس؛ في النسب، والدم، والجاه، والسلطان، جمعهم جميعاً - أحراراً وعبيداً، ذكوراً وإناثاً - نسبهم واحد هو الإسلام، الذي اصطبغوا بصبغته وحدها، وتعروا من كل نسبة إلا نسبته، وهنا تتكافأ دماؤهم: الحر، والعبد، والأنثى، سواء، كما في الحديث الشريف: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»، وعلى هذا تقتل النفس بالنفس، أيّا كان جنسها، أو مكانها الاجتماعي.

"إنسان بإنسان، وروح بروح"[٢١]، ويؤكد العلامة ابن عاشور[٢٢] على المنحى الذي سلكه صاحب التفسير القرآني للقرآن: "فَكَانُوا يُغِيرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ لِغَنِيمَةِ أَنْعَامِهِ وَعَبِيدِهِ وَنِسَائِهِ، فَيُدَافِعُ الْمُغَارُ عَلَيْهِ، وَتَتْلَفُ النُّفُوسُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، ثُمَّ يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ طَلَبُ الثَّارَاتِ، فَيَسْعَى كُلُّ مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فِيقَتْلِ قَاتِلِ وَلِيِّهِ، وَإِنْ أَعْوَزَهُ ذَلِكَ قَتَلَ بِهِ غَيْرَهُ مِنْ وَاحِدِ كُفْءٍ لَهُ، أَوْ عدد يَرَاهُمْ لَا يُوَازُونَهُ، وَيُسَمَّوْنَ ذَلِكَ بِالتَّكَايُلِ فِي الدَّمِ، أَيْ كَأَنَّ دَمَ

٢٠ - في ظلال القرآن، (١/ ١٦٤).

٢١ - التفسير القرآني للقرآن، (١/ ١٩٤).

٢٢ - ابن عاشُور: محمد الفاضل بن محمد الطاهر ابن عاشور: أديب خطيب، مشارك في علوم الدين، من طلائع النهضة الحديثة النابهين، في تونس. مولده ووفاته بها (١٣٢٧ - ١٣٩٠ هـ = ١٩٠٩ - ١٩٧٠ م). تخرج بالمعهد الزيتوني، وأصبح أستاذاً فيه، فعميداً. وكان من أنشط أقرانه، دؤوباً على مكافحة الاستعمار الّذي كان يسمى (الحماية)، وألقى محاضرات في السربون (بفرنسة)، وجامعة اسطمبول، وجامعة عليكره في الهند. وشارك في ندوات علمية كثيرة، وفي بعض مؤتمرات المستشرقين. وشغل خطة القضاء بتونس، ثم منصب مفتي الجمهورية. وهو من أعضاء المجمع اللغوي بالقاهرة، ورابطة العالم الإسلامي بمكة. الأعلام: خير الدين الزركلي الدمشقي (٦/ ٣٢٥) .

الشَّرِيف يُكَالُ بِدمَاء كَثِيرَة، فَرُبَّمَا قَدَّرُوهُ بِاثْنَيْنِ أَوْ بِعَشَرَة أَوْ بِمِائَة، وَهَكَذَا يَدُورُ الْأَمْرُ وَيَتَزَايَدُ تَزَايُدًا فَاحِشًا، حَتَّى يَصِيرَ تَفَانِيا. قَالَ زُهَيْر:

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَ مَا تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمِ[٢٣]

فصّل الله تعالى حكم القصاص، فقال تعالت كلماته: {الْحر بِالْحر}، أيَ الحر يقتل في مقابل الحر، (وَالْعَبْدُ بِالْعَبْد) والعبد يقتل في مقابل العبد، (وَالأُنثَى بِالأُنثَى)، والأنثى تقتل في مقابل الأنثى، هذا هو العدل. وهو رد على الجاهليين الذين كانوا لَا يسوون في الدماء، فالعبد إذا قتل حراً من قبيلة، أو الحر إذا قتل حراً من قبيلة، وكان الأول من دهماء الناس، وكان الثاني من أشرافهم، لَا يقتل به، بل يبحث عمن يكافئه، وربما لَا يكافئه واحد، وذلك من العصبية الجاهلية، ومن نظام التفاوت الذي لَا يزال يسري بين الناس مقيتاً، وإن كان مألوفاً.

كذلك بيّن القرآن حال المساواة في الوصف؛ من حرية ورقّ، وذكورة وأنوثة، ولم يذكر إذا اختلف الوصف أو الجنس؛ بأنْ قُتِلَ الحر العبد، والعبد الحر، والمرأة الرجل، والرجل المرأة، وذلك لأن النص سيق لإبطال العادة الجاهلية التي كانت تقتل غير القاتل، وتتعدى القاتل إلى قبيلة، وغير الشريف - في زعمهم - إذا كان هو القاتل، إلى شرفائها، فرد الله تعالى زعمهم، وصحح الأمر في هذا المقام، بالقصاص العادل. أما التساوي في النفوس، لَا في الأوصاف، فقد ثبت بقوله تعالى: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}(سورة المائدة/ ٤٥)، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً..}(سورة البقرة/ ٢٧٥)"[٢٤].

ثانياً: قال سبحانه: {إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} (سورة النساء/ ١٤٩). "اعْلَمْ أَنَّ مَعَاقِدَ الْخَيْرَاتِ عَلَى كَثْرَتِهَا مَحْصُورَةٌ فِي أَمْرَيْنِ: صِدْقٌ مَعَ الْحَقِّ، وَخُلُقٌ مَعَ الْخَلْقِ، وَالَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْخَلْقِ مَحْصُورٌ فِي قِسْمَيْنِ: إِيصَالُ نَفْعٍ إِلَيْهِمْ، وَدَفْعُ ضَرَرٍ عَنْهُمْ، فَقَوْلُهُ إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ، إِشَارَةٌ إِلَى إِيصَالِ النَّفْعِ إِلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ أَوْ تَعْفُوا إِشَارَةٌ إِلَى دَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهُمْ، فَدَخَلَ فِي هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَأَعْمَالِ الْبِرِ.

٢٣- التحرير والتنوير، (٢/ ١٣٥).

٢٤- زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي، (١/ ٥٣٢).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: فَإِنَّ الله كانَ عَفُوًّا قَديراً، وَفيه وُجُوهٌ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى يَعْفُو عَنِ الْجَانِبَيْنِ مَعَ قُدْرَتِه عَلَى الانْتقَامِ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَقْتَدُوا بِسُنَّة الله تَعَالَى. وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ. الثَّانِي: إِنَّ الله كَانَ عَفُوًّا لِمَنْ عَفَا، قَديراً عَلَى إِيصَالِ الثَّوابِ إِلَيْه. الثَّالثُ، قال الْكَلْبِيّ[٢٥]: إِنَّ الله تَعَالَى أَقْدَرُ عَلَى عَفْوِ ذنوبك، مِنك عَلَى عفو صاحبك"[٣٦].

"وأكثرهم على أن (الهاء)، في (تُخْفُوهُ)، تعود إلى الخير. وقال بعضهم: تعود إلى السوء. قوله تعالى: فَإِنَّ الله كانَ عَفُوّا، قال أبو سليمان: أي: لم يزل ذا عفوٍ مع قدرته، فاعفوا أنتم مع القدرة"[٣٧].

ثالثاً: قال - عزّ وجلّ -: {وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}(سورة النور/ ٢٢).

كما هو معهود في المنهج التربوي القرآني، وهو استعراض الأجواء والمناخ الذي نزلت فيه السورة، ومن ثم عرض البعد النفسي والاجتماعي والملابسات المحيطة بالواقع المواكب لهذا الإنزال، "والخطاب في قوله {هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}، لمن ساءه ذلك من المؤمنين، وخاصة رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعائشة، وصفوان بن المعطل[٣٨] - رضي الله عنهم"[٣٩] -. هذا الحادث، حادث الإفك، قد كلف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاماً لا تطاق، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل، وعلى قلب رسول الله ﷺ،

٢٥- الشَّيْخُ، العَلاَّمَةُ، المُحَدِّثُ، الرَّحَّالُ المُتْقِنُ، مَجْدُ الدِّيْنِ، أَبُو الخَطَّابِ عُمَرُ بنُ حَسَنِ بنِ عَلِيِّ بنِ الجُمَيِّلِ - وَاسْمُ الجُمَيِّلِ مُحَمَّدٌ - بنِ فَرَجِ بنِ خَلَفِ بنِ قُوْمَسِ بنِ مَزْلاَلِ بنِ مَلاَّلِ بنِ أَحْمَدَ بنِ بَدْرِ بنِ دِحْيَةَ بنِ خَلِيْفَةَ الكَلْبِيُّ، الدَّانِيُّ، ثُمَّ السَّبْتِيُّ. هَكَذَا سَاقَ نَسَبَه، وَمَا أَبعدَه مِنَ الصِّحَّةِ وَالاتِّصَالِ! وَكَانَ يَكتب لِنَفْسِه: ذُو النِّسبَتَيْنِ بَيْنَ دِحيَةَ وَالحُسَيْنِ. سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ،ط الرسالة (٢٢/ ٣٨٩).

٢٦- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: الثالثة - ١٤٢٠ هـ(١١/ ٢٥٤).

٢٧- زاد المسير في علم التفسير، (١/ ٤٩٢).

٢٨- صفوان بن المعطّل: بن ربيعة ، بالتّصغير، ابن خزاعيّ بلفظ النّسب، ابن محارب بن مرة بن فالج بن ذكوان السّلمي ثم الذّكواني. هكذا نسبه أبو عمر. لكن عند ابن الكلبي رحضة بدل ربيعة، وزاد بينه وبين= خزاعي المؤمل. قال البغويّ: سكن المدينة، وشهد صفوان الخندق والمشاهد، في قول الواقديّ، ويقال: أول مشاهده المريسيع، جرى ذكرها في حديث الإفك المشهور في الصّحيحين.

٢٩- تفسير الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (٣/ ٢١٧).

وقلب زوجه عائشة التي يحبها، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه، وقلب صفوان بن المعطل، شهراً كاملاً من الشك والقلق والألم الذي لا يطاق"[٣٠].

وبعد أيام صعاب مرت، ولا تزال تلقي بوطئتها على قلب أبناء عائشة، (فزوجات الرسول أمهات المؤمنين)، أنزل الله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ}(سورة النور/ ١١)، فلما أنزل الله تعالى ما يدل على البراءة من هذا الإفك، قال أبو بكر الصديق- رضي الله عنه-، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة، لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشة - رضي الله عنها -، فأنزل الله تعالى: {وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ..}، إلى قوله: {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، فقال أبو بكر- رضي الله عنه-: بلى والله إنِّي لأحب أن يغفر الله لي. فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان يجريها عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً"[٣١].

هكذا عاش رسول الله ﷺ وأهل بيته، وعاش أبو بكر - رضي الله عنه - وأهل بيته، وعاش صفوان بن المعطل، وعاش المسلمون جميعاً هذا الشهر كله في مثل هذا الجو الخانق، وفي ظل تلك الآلام الهائلة، بسبب حديث الإفك الذي نزلت فيه تلك الآيات[٣٢].

وحادثة الإفك، واتهام المحصنات في عرضهن، متكررة عبر التاريخ، وليست بشيء جديد على المجتمعات البشرية، وهي سلوكيات تبدر عن الإنسان؛ سواء بشكل خلجات تصيب القلب، أو على شكل إيحاءات أو إشارات وتفسير، {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ}، أي لكل امرئ منهم جزاء ما اجترح من الإثم، بقدر ما خاض فيه، فإن بعضهم تكلم، وبعضهم ضحك؛ كالمسرور الراضي بما سمع، وبعضهم أقلّ، وبعضهم أكثر"[٣٣]. وهذا ما حدث للسيدة عائشة - رضي الله عنها -، وهذه الحالة الاجتماعية تحتاج إلى إصلاح وتزكية وتربية، لصون المجتمعات من الانزلاق في هاوية الشكوك والاتهام والإيقاع في عرض الطاهرات العفيفات: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيم. وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ}(سورة النور/ الآيات ١٥، ١٦)، "وقت تلقيكم ما أفضتم فيه من

٣٠- في ظلال القرآن، (٤/ ٢٤٩٥).
٣١- في ظلال القرآن، (٤/ ٢٤٩٧).
٣٢-المصدر نفسه،(٤/ ٢٤٩٧).
٣٣- تفسير المراغي، (١٨/ ٨٣).

الإفك، وأخذ بعضكم إياه من بعض بالسؤال عنه، وقولكم قولاً بالأفواه دون أن يكون له منشأ في القلوب يؤيده، وظنكم إياه هيناً سهلاً لا يعبأ به، وهو من العظائم والكبائر عند الله".

وخلاصة ذلك - إنه وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام، وعلق مس العذاب العظيم بها:

١/ تلقي الإفك بالألسنة، فقد كان الرجل يلقى أخاه فيقول له ما وراءك، فيحدثه حديث الإفك حتى شاع وانتشر، حتى لم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه، فهم قد فعلوا جهد المستطاع في نشره.

٢/ إنه قول بلا روية ولا فكر، فهو قول باللسان لا يترجم عما في القلب، إذ ليس هناك علم يؤيده، ولا قرائن أحوال وشواهد تصدقه.

٣/ استصغار ذلك، وحسبانه مما لا يؤبه له، وهو عند الله عظيم الوزر، مستحق لشديد العقوبة.

٤/ { وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا، سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ}، أي وهلّا حين سمعتموه ممن بدأ به وانتحله، أو ممن تابعه في القول، قلتم - تكذيباً له، وتهويلاً لشأن ما ارتكب من جرم: لا يحل لنا أن نتكلم بهذا، ولا ينبغي لنا أن نتفوه به، سبحانك ربي، هذا كذب صراح يحيّر السامعين أمره، لما فيه من جرأة على بيت كريم شهير بالعفاف والطهر، ولما فيه من مس عرض ذلك البيت المقدس، بيت النبوة الذي هو في الذروة العليا من الإجلال والاحترام وعظيم المكانة. وإذا جاز الخوض فيه على هذه الشاكلة، فماذا يبقى للمؤمنين بعدئذ؟ أفليس هؤلاء هم الأسوة الحسنة، وينبوع الطهر، ومنهم يقتبس المؤمنون فضائل الدين، وشريف الأخلاق؟ وإنا لنبرأ إليك ربنا منه، وأن تلوكه ألسنتنا، وأن يحمل الهواء تلك النبرات الصوتية لتصل إلى أسماعنا، كما نبرأ إليك ربنا من كل أفّاك أثيم سولت له نفسه أن يكون الوسيلة في انتشار هذا القول الكاذب بين المؤمنين"[٣٤]. وكل هذه الاتهامات التي تلقى بالألسن، والتقول بالأفواه، والإفضاء إلى الغير، يعتبر من العنف ضد الأشخاص والمجتمع.

ومدارج التزكية في السياق القرآني بينة في الآيات السابقة.. ونكتفي بهذا، فالبقية من حادثة الإفك لا يمس صلب أطروحتنا.

قال تعالى مخاطباً رسوله الأكرم بأن يعفو ﷺ عن المسلمين: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ

٣٤- المصدر السابق (١٨/ ٨٥).

فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}(سورة آل عمران/ ١٥٩). "جرّده عن أوصاف البشرية، وأفرده بما ألبسه من نَعت الربوبَية، وأخبر أن ما يلوح إليه فمن أنوار التولي، لا من آثار الوفاق والتبري، ولولا أنه استخلصه بما ألبسه، وإلا متى كان بتلك الصفة؟! ويقال إن من خصائص رحمته - سبحانه- عليه أن قوّاه حتى صحبهم، وصبر على تبليغ الرسالة إليهم، وعلى ما كان يقاسيه من اختلافهم، مع سلطان ما كان مستغرقاً له، ولجميع أوقاته، من استيلاء الحق عليه. فلولا قوة إلهية استأثره الحق بها، ما أطاق صحبتهم؟! ألا ترى إلى موسى - عليه السّلام - لما كان قريب العهد بسماع كلامه، كيف لم يصبر على مخاطبة أخيه، فأخذ برأس أخيه يجرّه إليه؟

قوله تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}: لو سقيتهم صرف شراب التوحيد، غير ممزوج بما فيه لهم حظّ، لتفرقوا عنك، هائمين على وجوههم، غير مطيقين للوقوف لحظة، {فَاعْفُ عَنْهُمْ}، فيما يكون تقصيراً منهم في حقك وتوقيرك، وما عثرت عليه من تفريطهم في خدمتنا وطاعتنا- فانتصب لهم شفيعاً إلينا.

ويقال: {فَاعْفُ عَنْهُمْ}، فاعف - أنت - عنهم، فإن حكمك حكمنا، فأنت لا تعفو إلا وقد عفونا، ثم ردّه عن هذه الصفة بما أثبته في مقام العبودية، ونقله إلى وصف التفرقة"[٣٥].

رابعاً: قال سبحانه: { فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}(سورة المائدة/ ١٣). "ذلك كان ميثاق الله مع نقباء بني إسرائيل عمن ورَاءهم، وقد ارتضوه جميعاً فصار ميثاقاً مع كل فرد فيهم، وميثاقاً مع الأمة المؤلفة منهم. فماذا كان من بني إسرائيل؟! لقد نقضوا ميثاقهم مع الله تعالى، وقتلوا أنبياءهم بغير حق، وبيتوا القتل والصلب لعيسى - عليه السلام-، وهو آخر أنبيائهم، وحرفوا كتابهم (التوراة)، ونسوا شرائعه، فلم ينفذوها، ووقفوا من خاتم الأنبياء ﷺ موقفاً لئيماً ماكراً عنيداً، وخانوه وخانوا مواثيقهم معه، فباءوا بالطرد من هدى الله، وقست قلوبهم، فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى»[٣٦]. "وَقَدْ جَمَعَتِ الْآيَةُ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى قِلَّةِ اكْتِرَاثِهِمْ بِالدِّينِ، وَرِقَّةِ اتِّبَاعِهِمْ، ثَلَاثَةَ أُصُولٍ مِنْ ذَلِكَ: وَهِيَ التَّعَمُّدُ إِلَى نَقْضِ مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ مِنَ الِامْتِثَالِ، وَالْغُرُورُ بِسُوءِ التَّأْوِيلِ، وَالنِّسْيَانُ النَّاشِئُ عَنْ قِلَّةِ تَعَهُّدِ الدِّينِ

٣٥- لطائف الإشارات، تفسير القشيري، (١/ ٢٩٠).

٣٦- في ظلال القرآن، (٢/ ٨٥٨).

وَقلَّة الاهْتمَام به"[٣٧]. "وهو خطاب للرسول ﷺ يصور حال اليهود في المجتمع المسلم في المَدِينَةَ المَنورة، فَهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله ﷺ وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة، بل كانت هذه هي حالهم طوال إقامتهم معه؛ في المدينة، ثم في الجزيرة كلها، وما تزال هذه حالهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ، على الرغم من أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى، ومكن لهم الحياة الرغيدة فيه.. والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ﷺ في المدينة، تعبير طريف: {وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ}.

الفعلة الخائنة، والنية الخائنة، والكلمة الخائنة، والنظرة الخائنة، يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة (خائنة)، لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقي ظلالها وحدها على القوم، فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم؛ مع الرسول ﷺ، ومع الجماعة المسلمة!

إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة، ومرشدها، ورائدها، وحادي طريقها على طول الطريق[٣٨]، والعفو والصفح "هو توجيه لرسول الله ﷺ أن يقبل هذه الجماعة القليلة التي سلمت وأسلمت من اليهود، وألا يأخذها بجريرة الكثرة الكثيرة منهم! وألا ينظر إليها من خلال موقفها من النبي أول الدعوة، فقد كان اليهود جميعاً على عداوة وحسد للنبي"[٣٩].

خامساً: قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(سورة البقرة/ ١٠٩). "بعد أن نهى - عز اسمه – المؤمنين، في الآيات السالفة، عن الاستماع لنصح اليهود، وعدم قبول آرائهم في شيء من أمور دينهم- ذكر هنا وجه العلة في ذلك، وهي أن كثيراً منهم يودون لو ترجعون كفاراً، حسداً لكم ولنبيكم، فهم لا يكتفون بكفرهم بالنبي ﷺ، والكيد له، بنقض ما عاهدهم عليه، بل يحسدونكم على نعمة الإسلام، ويتمنون أن تحرموا منها. وقد كان لأهل الكتاب حيل في تشكيك المسلمين في دينهم، فقد طلب بعضهم من بعض أن يؤمنوا أوّل النهار ويكفروا آخره، كي

٣٧- التحرير والتنوير، (٦/ ١٤٤).
٣٨- في ظلال القرآن، (٢/ ٨٥٩).
٣٩- التفسير القرآني للقرآن، (٣/ ١٠٥٥).

يتأسّى بهم بعض ضعاف الإيمان من المسلمين، وكانوا يلقون بعض الشبه على المؤمنين ليشكّكوهم في دينهم"[٤٠].

هذا تحذير آخر من الله سبحانه، من أن يستمع المسلمون إلى ما يلقاهم به اليهود عند وقوع هذا الأمر - وهو تحويل القبلة إلى المسجد الحرام - من تلبيسات وتلفيقات وأكاذيب، ثم هو تنبيه للمسلمين أن يمضوا إلى ما أمرهم الله به، وأن يستقيموا على قبلتهم التي وجههم الله إليها، غير ملتفتين إلى تخرصات المتخرصين، وضلالات الضالين"[٤١].

فمواقف اليهود والنصارى العدائية كثيرة مع المسلمين، وقد بيّنها القرآن الكريم في كثير من المواقع، والمسلمون على بينة واضحة من أمر أهل الكتاب، ومع هذا أمر سبحانه أن يعاملوا بالعفو والصفح، "أي فعاملوهم بأحسن الأخلاق؛ من العفو عن مذنبهم بترك عقابه، والصفح عنه بترك لومه وتعنيفه، حتى يأتي نصر الله لكم بمعونته وتأييده"[٤٢]. وقال سبحانه: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}(سورة الأعراف/ ١٩٩)، من خصائص سنّة الله في الكرم أنه أمر نبيه ﷺ بالأخذ به، وعلى قدر عظم رتبة العبد في الكرم، يتوقف العفو عن الأصاغر والخدم. قال النبي ﷺ في الجراحات التي أصابته في غزوة أحد: «اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون».

قوله: {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}: أفضل العرف أن يكون أكمل العطاء لأكثر أهل الجفاء، وبذلك عامل الرسول ﷺ.

قوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}، الإعراض عن الأغيار بالإقبال على من لم يزل ولا يزال، وفي ذلك النجاة من الحجاب، وَالتحقق بما يتقاصر عن شرحه الخطاب"[٤٣]. الْعَفْوَ ضد الجهد: أي خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم، وما أتى منهم، وتسهل من غير كلفة، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم، حتى لا ينفروا. كقوله ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا»[٤٤]، كما وجدنا - فيما مر بنا - أن الله سبحانه جعل العفو سنام القول والفعل والسلوك في مجال الأسرة والمجتمع، وبين الأديان❐

٤٠- تفسير المراغي، (١/ ١٩٠).
٤١- التفسير القرآني للقرآن، (١/ ١٣٠).
٤٢- تفسير المراغي، (١/ ١٩١).
٤٣- لطائف الإشارات = تفسير القشيري، (١/ ٥٩٧ -٥٩٨).
٤٤- تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (٢/ ١٨٩).

مقالات

- دروس حركية هادية من سورة الكهف لمسيرة العمل الإسلامي	محمد صادق أمين
- التصوف السياسي (الحلولي) والطريق نحو الإلحاد	د. سعد الديوه‌جي
- تأملات قرآنية	د. سيروان أحمد قادر
- رحلة إلى القمر	انتصار الجنابي

دروس حركية هادية من سورة الكهف لمسيرة العمل الإسلامي

محمد صادق أمين*

الدرس الأول: الرشد القيادي في إدارة الموارد البشرية:

حين قطع نبي الله موسى - عليه صلاة الله وسلامه - المفازات بحثاً عن العبد الصالح، ساعياً وراء العلم والمعرفة، وطلب المتابعة {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}، لم تأت الاستجابة فورية بناء على رغبة التابع (النبي المرسل)، بل جاءت مشفوعة بإيضاحات مبنية على قراءة المآلات، التي تكشف للتابع نتائج المتابعة قبل تحققها.

{إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}، فالقيادة الرشيدة تملك إحاطة عامة شاملة تفصيلية بقدرات الاتباع وإمكاناتهم ومواهبهم ومؤهلاتهم وأمزجتهم ونفسياتهم، بحيث تكون قادرة على وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وهي بذات الوقت قادرة على أن تقدم توقعاتها للأفراد حال تصدرهم، أو رغبتهم في التصدر لأمر من أمور دين الله وحركة الحياة.

فقدّم العبد الصالح لموسى صورة لمخرجات المتابعة ونتائجها، جاءت لاحقاً متطابقة تماماً مع تلك التوقعات، وهو ما يعكس حجم الإحاطة التي كانت لدى العبد الصالح؛ بإمكانات موسى وقدرته على تحمل تبعات المصاحبة.

ولا تقف قدرة القيادة على التنبؤ بإمكانات الأفراد وقدراتهم فقط، بل تتجاوز ذلك إلى فهم طبائع شخصياتهم وتكوينهم الإنساني، وهو ما يجعلها قادرة على تعليل سلوكياتهم، ووضعها مفسّرة في الإطار الصحيح، دون تأويل وتهويل وتشكيك: {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا }.. وبناء على ذلك، توفّر للتنظيم أسباب التماسك التي تحفظ عقده من الانفراط، حين تراعي طبائع النفوس وما جبلت عليه من فطر تكوينية، فلا تبني قرارتها بناء على الغيب المجهول، أو استناداً إلى قواعد الثقة والعلاقة التنظيمية فقط.

وعند العودة إلى سيرة النبي ﷺ، نجد هذه القاعدة الحركية متجسدة في مواضع عدة، روى مسلم في (صحيحه) عن أبي ذر (قَالَ: قُلْتُ: يَا رسول الله، ألا تَستعملُني؟ فضَرب بيده عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وإِنَّهَا أَمانةٌ، وإِنَّها يَوْمَ القيامَة خِزْيٌ ونَدَامةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذها بِحقِّها، وَأَدَّى الَّذي عليه فيها).

علْم رسول الله ﷺ، بقدرات الرجل وطاقاته ومواهبه ونفسيته، لا يقل عن علم العبد الصالح بموسى، وحين نتتبع سيرته ﷺ ندرك أن أبا ذر لم يكن حالة استثنائية أو خاصة، بل إن إحاطة النبي ﷺ بمن حوله من الرجال والنساء، كانت إحاطة علم شامل وفهم عميق وتحليل دقيق.

ففي الحديث الصحيح على شرط الشيخين قال رسول الله ﷺ: (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أميناً وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح).

وهو ﷺ، لا يضع معايير غير موضوعية في اختيار الأشخاص للمهام، فإسلام خالد بن الوليد جاء متأخراً، وهو الرجل الذي تسبب بهزيمة أحد، حين كان منضوياً تحت لواء المعسكر المقابل، وفيها يشير رواة السير إلى عظم ما أصاب النبي ﷺ باستشهاد حمزة والتمثيل بجسده تمثيلاً بشعاً، وكان في صناديد الصحابة من أهل السابقة مؤهلات عسكرية فذة، ومقتضى المنطق أن تقديم الرجل مرجوح، إلا أن القيادة الرشيدة لا تنظر في حيثيات قراراتها بمثل هذه الأمور الحساسة إلا إلى ما يصلح شأن الدعوة.

وفي السياق، يقول لحسان بن ثابت في الحديث الصحيح: (اهْجُ الْمُشْرِكِينَ؛ فإنَّ جِبْرِيلَ معكَ).

ويأمر زيد بن ثابت بتعلم لغة العدو، كما في الحديث الصحيح (أمرَني رسولُ اللهِ ﷺ أن أتعلَّمَ لَهُ كتابِ يَهودَ، قالَ إنِّي واللهِ ما آمَنُ يَهودَ علَى كتابي. قالَ : فما مرَّ بي نِصفُ شَهْرٍ

حتَّى تعلَّمتُهُ لَهُ. قالَ: فلمَّا تَعلَّمتُهُ كانَ إذا كتبَ إلى يَهودَ كتبتُ إليهِم، وإذا كتَبوا إليهِ قرأتُ لَهُ كتابَهُم).

وقبل بلوغه سن الثلاثين، يجعل معاذ بن جبل مفتياً وقاضياً وإماماً مبعوثاً إلى (اليمن).

فائدة:

تحويل هذا المفهوم القرآني إلى لغة العصر، يستدعي أن يكون من أهم عوامل رشد قيادة العمل الإسلامي، قدرتها على الإحاطة بما في الصف من موارد بشرية، وتوظيفها توظيفاً صحيحاً باتجاه ما يخدم الأهداف العامة ويحقق مصالح العمل، عبر امتلاكها قاعدة بيانات حركية تفصيلية بالموارد البشرية، توفر سهولة الوصول إلى الطاقات والمواهب والخبرات والكفاءات، وتسخيرها للوصول إلى الأهداف، بعيداً عن الحسابات غير الموضوعية التي تستخدم في وضع الأفراد في مواطن التكليف.

الدرس الثاني: التنظيم المُحكم:

لم يستهن العبد الصالح بحماسة موسى، واندفاعه، والهمة التي أظهرها في سبيل المتابعة، رغم إدراكه المآلات، إلا أنه استجاب للطلب المقدم استجابة مشروطة؛ {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا}؛ لتبدأ الرحلة ومعها تتجسد أعظم صور العلاقة التنظيمية بين طرفين، في التاريخ، فيها من الإحكام والرقي ما لو تحقق في أي تنظيم؛ بغض النظر عن صلاح منهجه أو فساده، فسيحوز التمكين لا محالة.

الرابطة التنظيمية تقوم على ركنين أساسيين؛ الأول الثقة المطلقة من التابع (الأفراد) بالمتبوع (القيادة)، ثقة لا تخالطها الشكوك ولا الشبهات ولا الريب. ومنها يولد الركن الثاني: الانقياد الواعي والمدرك لتبعات الطاعة والتزاماتها الأخلاقية والتنظيمية.

موسى منح ثقته المطلقة بالعبد الصالح؛ بناء على تزكية الوحي، والقائد كان في أقصى درجات الحرص على الإبقاء على هذه الثقة عند سقفها العالي، كي لا تختل فيحصل الانتكاس لا محالة، فكانت المتابعة على شرطها.

وعند أول موقف، ومع انطلاق الرحلة، يقع التجاوز الأول من التابع لشروط المتبوع: {قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا}.. فهل تداري القيادة الراشدة، أو تحابي، أو تتغافل عن التجاوزات التنظيمية للحفاظ على ارتباط المنتظمين؟.

اختار المتبوع التنبيه الملائم للخطأ الأول، الذي يحرك في وجدان التابع القواعد التربوية المُحكمة، التي تربى عليها على مدار أعوام بمدرسة الوحي: {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}، فكانت النتيجة أن آتت التربية الصحيحة أكلها، فلم تتكلف القيادة الكثير من

العناء في رد المتبوع إلى جادة الانقياد الصحيحة: {قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا}، إنه الاعتراف الفوري بالخطأ، والاعتذار دون تردد.

وحين غلبت طبيعة النفس البشرية التابع، ووقع في الخطأ الثاني، لم تكرر القيادة التنبيه بذات الوتيرة التي كانت عند الخطأ الأول، بل زادت حدة التنبيه تبعاً لتكرار الخطأ: {قَالَ أَلَمْ أَقُل .. لَّكَ .. إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا}، وبمقتضى القاعدة البلاغية؛ فإن زيادة المبنى تفيد زيادة بالمعنى، فكانت زيادة (لَك) في الثانية، تدل على زيادة بشدة التنبيه ولفت النظر إلى تكرار خرق القواعد التنظيمية، لتتجسد مرة ثانية التربية السامية بسلوك المتربي في أبهى وأجمل تجلياتها، فكما رفعت القيادة من سقف التنبيه شدةً وحدةً، رفع التابع سقف الاعتراف بالخطأ، وزاد عليه إقرار عقوبة ذاتية عند التكرار الثالث: {قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ من لَّدُنِّي عُذْرًا}.

التنظيم المُحكم لا تعانيَ فيه القيادة الشدائد والمحن وهي تتجه صوب فرض العقوبات التنظيمية الضامنة لسلامة المسار، بل إن الصف المتشبع بقواعد التربية السليمة هو الذي يتكفل بإقرار المحاسبة الذاتية، قبل أن تبادر إليها القيادة.

هذه العلاقة التنظيمية الربانية، القائمة على قواعد مُحكمة بين الطرفين، هي التي تدفع القيادة إلى اتخاذ الموقف الملائم؛ حدة وصرامة، في الزمان والمكان والحال الذي يصلح مسار العمل، فما أن وقع الخطأ الثالث حتى انتقل المتبوع من مرحلة التنبيهات إلى مرحلة القرارات الحاسمة: {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ...}.

فائدة:

لا يمكن للقيادة الراشدة أن تتراخى في ضبط التنظيم ضبطاً مُحكماً تحت أي ذريعة كانت، أو انسياقاً وراء أي تأويل يبيح الاسترخاء.. فالتراخي مضافاً له عامل التراكم الزمني يفضيان إلى التفكك لا محالة، أو ذهاب الريح في أحسن الأحوال، وقد يبرر بعضنا التهاون التنظيمي بعلة الإبقاء على العدد، والحفاظ على المنتظمين، وعدم الرمي بهم في محك الفتنة، وهذا هو ما يؤدي إلى ذهاب الريح، فما فائدة الأعداد الكثيرة، إذا كانت غثاء كغثاء السيل؟

وهكذا كان العبد الصالح صارماً عند وقوع المخالفة الثالثة، فكان قرار المفارقة حاسماً قطاعاً غير قابل للاستئناف، دون مدارسة أثر القرار في نفس المتبوع، فالتنظيم الرباني يبلغ من الإحكام قدراً تثق معه القيادة في أفرادها حال تعريضهم لامتحانات المنشط والمكره.

وفي سيرة المصطفى ﷺ، نجد هذا التجلي في قصة تخلف أبا ذر الغفاري عن الركب السائر إلى تبوك، كما رواه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن مسعود قال: (لما سار رسول

الله ﷺ إلى تبوك جعل لا يزال يتخلف الرجل، فيقولون يا رسول الله: تخلف فلان، فيقول: دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، حتى قيل: يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره، فقال رسول الله ﷺ: دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه...).

فرغم المكانة التي لأبي ذر في نفس رسول الله ﷺ، إلا أنه حين أبلغ بتخلفه عن الركب، لم يرسل له وحدة إسعاف عاجلة، على اعتبار أنه من الصفوة المقربة من القيادة، بل جعله في دائرة الامتحان والاختبار، ليظهر معدنه الأصيل {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}، {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا..}، والدليل: سروره ﷺ بالتحاق الرجل بالركب، ففي تكملة الحديث: (ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله ونظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله هذا رجل يمشي على الطريق، فقال ﷺ: كن أبا ذر...)، وهذا دليل على عظم مكانة الرجل في نفس النبي، التي لم تمنعه أن يتركه للامتحان؛ الضمانة الوحيدة لتحقيق الصف الرباني محكم الرباط التنظيمي.

فائدة:

حين يحدث اختلال في إحكام العلاقة التنظيمية في صف ما، لا يمكن إلقاء اللوم على الصف غير المنقاد أو المطيع لقيادته طاعة مثالية ربانية مُحكمة، على ما جرت عليه العادة عند التلاوم.. فمثل هذه الظاهرة تتحمل مسؤوليتها القيادة من وجهين؛ الأول: أنّ تهلهلَ الصف دليل على أنها لم تكن مؤهلة لتربيته على القواعد الربانية التي ترقى به لمستوى موسى - صلوات الله عليه - في تعامله كتابع مع قيادته التي ارتضاها لنفسه ابتداء، لوجود اختلال في واحدة من مراحل العملية التكوينية، أو في كل مراحلها على الجملة.

الوجه الثاني؛ أن ولاء موسى لم يكن ليكون على هذا المستوى من السمو والرقي، لولا الثقة العميقة المُطلقة التي أولاها للعبد الصالح.. فالقيادة التي لا تظفر بالولاء المطلق من الأتباع، هي في أمسّ الحاجة لمراجعة شاملة للذات، والوقوف على ما فيها من أخطاء وهنات واختلالات.

الدرس الثالث: الشفافية وتوفير المعلومات:

لم يكتف العبد الصالح بإنهاء الارتباط مع موسى: {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ..}، فعلى الأخير؛ الذي تابع الأول بناء على توجيه الوحي، أن يفوّض إلى الثقة المطلقة جملة الأفعال، غير المألوفة زماناً ومكاناً، التي صدرت من قيادته، لينتهي المشهد تأدباً من التابع الواثق بقيادته، واعتماداً من القيادة على ما تشربه التابع من القيم التربوية الربانية العميقة.

فالقيادة الربانية الحكيمة، تدرك طبائع النفس البشرية وما جُبلت عليه من مُخلات بالكمالات المثالية، فتأخذ ذلك بنظر الاعتبار، وتقدم للصف دفقاً من المعلومات تبرر بـه أفعالها وأقوالها وقراراتها، ليكون الصف على دراية وإحاطة بالملابسات والتداعيات والمآلات التي بنت عليها الموقف واتخذت بموجبها القرارات.. {.. سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا}، ليكون الفراق بين الجانبين وقد أخذ كل منهما غايته، وحقق مراده، دون أن تترك عملية الارتباط الحركي أي أثر في نفس التابع تجاه قيادته يمكن أن يخل بعنصر الثقة، أو تهمة توجهها القيادة للصف حال عدم صبر الأفراد على قراراتها غير المسببة في زمانها ومكانها.

وفي سيرة المصطفى ﷺ، نجد نماذج لهذا المثال الحركي، ففي (الحديبية) رأت القيادة النبوية الراشدة أن صلحاً مع المشركين سيحقق للدعوة مصالح جمة، مع أن في بنود الصلح شروطاً مُجحفة؛ أملتها قريش على القيادة، لذلك عمّ الصف كآبة وحزن شديدين، لسببين:

الأول: أن النبي ﷺ كان قد أخبرهم؛ أنا سنأتي البيت فنطوف به.. وبمقتضى الصلح: رجوع بلا طواف.

الثاني: أن خطاب القيادة؛ على مدار أعوام العمل السري، ثم التمكين: أننا على الحق، وان الله ناصر دينه، وما لم يتحقق ذلك، فإن من يقضي نحبه في الطريق ماض إلى الجنة.. إذاً، لا يوجد مبرر لأن نعطي الدنية في ديننا، فإما أن ينجز الله وعده فننتصر، أو نموت فنظفر بالجنة!

ولنا أن نتصور أن أمة محمد ﷺ هلكت يومها، إذ عصت أمر نبيها بسبب عدم رضاها على بنود الصلح، وعدم وجود مبررات من القيادة مقنعة!

يعكس قتامة هذه الصورة، وكآبتها، وثقلها في نفوس أصحاب النبي، حديث البخاري الطويل عن الصلح، يقول:

(..فَلَمَّا فَرَغَ من قَضيَّة الكتَاب، قالَ رَسولُ الله ﷺ لأصْحَابِه: قُومُوا فَانْحَرُوا ثُـمَّ احْلقُـوا، قالَ: فَوَالله ما قَامَ منهُمْ رَجُلٌ حتَّى قالَ ذلكَ ثَلَاثَ مَـرَّات..) ارتدت أمة محمد ﷺ عن بكرة أبيها إذ عصت أمر نبيها؛ لولا أن تدارك الله الأمَة برحمته بمشورة أم المؤمنين أم سلمة!

ولعل (الفاروق)، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يقدم التأدب مع القيادة على الاعتراض على أمر ظاهره مضيعة للدعوة؛ وهو حال الغالبية المعترضة في ذاك الزمان، كان أحد وأظهر من عكس انفعال الصف واعتراضه الشديد على أمر القيادة، وفي حديث البخاري:

فَقالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: فأتَيْتُ نَبِيَّ الله ﷺ فَقُلتُ: (..ألَسْتَ نَبِـيَّ الله حَقًّا؟ قـالَ: بَـلَى، قُلتُ: ألَسْنَا علَى الحَقِّ وعَدُوُّنَا علَى البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: إنِّي رَسولُ الله، ولَسْتُ أعْصِيه، وهو نَاصِرِي، قُلتُ: أوَليسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ به؟ قالَ: بَلَى، فأخْبَرْتُكَ أنَّا نَأْتِيه العَامَ؟ قالَ: قُلتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيه ومُطَّوِّفٌ بـه، قالَ: فأتَيْتُ أبَا بَكْرٍ فَقُلتُ: يا أبَا بَكْرٍ، أليسَ هذا نَبِي الله حَقًّا؟ قالَ: بَلَى، قُلْـتُ: ألَسْـنَا عـلَى الحَقِّ وعَدُوُّنَا علَى البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: أيُّها الرَّجُلُ، إنَّه لَرسولُ الله ﷺ، وليسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وهـوَ نَـاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِـكْ بغَـرزِهِ؛ فَـوَالله إنَّـه عـلَى الحَقِّ..).

لاحظ معي حدّة ألفاظ عمر مع نبيه؛ وهكذا يجب أن يحتد أحدنا على مصالح الـدعوة، لا أن تكون غيرتنا على فـوات مصـالحنا الشخصـية أعظـم وأكـبر، ولا أن نحـابي ونتملـق كي نرضي زيداً وعمراً؛ رجاءَ نفع يُجلب أو ضـر يُدفع، وهـو لعمـري الشـرك الـذي عمـت بـه البلوى، وتأخر بسببه النصر.

فائدة:

بعد حربين عالميتين أحرقتا الأخضـر واليابس، أدركـت المجتمعـات الغربيـة أن أس الـبلاء وأصله ومنبعه، يكمن في قائد متسلط يجمع بين يديه الصلاحيات، ويجثم على صدر الأمـة دهوراً، يقضي في مصائرها، ويتحكم بمقدراتها؛ برأيه ورأي الدولة العميقـة التـي تحـيط بـه وتنصـره؛ من أفراد ومؤسسـات وهيئـات صـنعها عـلى عينـه! فعمـل عقلاؤهـا وحكماؤهـا ومخلصوها على أن لا يتكرر ظهور القائد الضرورة، عـبر تقنـين الحيـاة بقـوانين تقـوم عـلى الشـفافية وتـدفق المعلومـات، تجعـل مصـلحة الأمـة فـوق مصـالح الأفـراد والأحـزاب والجمعيات... إلخ، فلم يظهـر فـيهم لا (موسـليني) جديـد، ولا (هتلـر)، ولا (فرانسيسـكو فرانكو)، ولا (تيتو)... والقائمة تطول.

فالشـفافية وتـدفق المعلومـات هـي الأسـاس والـركن الـركين الـذي يجعـل الجماعـات الإنسانية تَحكُم وتتحكم في مصائرها ومقدراتها، وهو أساس سـبق إليـه الإسـلام وحيـاً مـن رب السماء، تشـهد عليـه عشـرات النصـوص، لكـن عالمنـا الإسـلامي لا يـزال يرفـل بحكـم (الحجّاج)، الذي لم يمت قط، فهو كطائر الفينيـق كلـما احـترق خلّـف وراءه رمـاده، ومنـه ينبعث على شكل طغاة في الدول، وبغاة في الجماعات، فينبعث من جديـد فيكـون حـاكماً فينا مسيطراً على مصائرنا، فنخسر النصر المتأتي من الأسباب، أو المأمول من توفيق الله.

قاعدة مهمة:

حيثما وجد التكتم، وغابت الشفافية، ابحث عن الخطايا التنظيمية، التي لا ينفع معها إلا إخفاء المعلومة.. كما ورد في حديث مسلم قوله ﷺ: (..والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس).

حين ينفد صبر القواعد، وتتوسع دائرة الترك وعصيان القيادة، لا بد من مراجعة آليات التواصل مع الصف، وليتهم صناع القرار أنفسهم قبل المسارعة بمهاجمة الأتباع❐

* **صحفي وكاتب - عضو مجلس شورى حركة العدل والإحسان - العراق.**

التصوف السياسي (الحلولي)

والطريق نحو الإلحاد

د. سعد سعيد الديوه‌جي

✍ ينتشر الإلحاد يوماً بعد يوم كانتشار النار في الهشيم، خصوصاً في المجتمعات غير الإسلامية، وذلك لضعف عقائدها وتصوراتها عن معنى الخالق والمخلوق، وللغرور الذي أصاب البشر باعتقادهم أنهم أسياد الكون! وأما في الإسلام، فإن الباب أمام الإلحاد يكاد يكون موصداً، نظراً لوضوح النص القرآني بشأن التوحيد الذي لا يقبل التأويلات الفاسدة، مما أدى بالساعين إلى نشر الإلحاد بين المسلمين إلى سلوك طرق ملتوية؛ بدأوها بنشر أفكار الحلول والاتحاد ووحدة الوجود تحت غطاء ادعوا أنه من التصوف، وهو ادعاء باطل.

والحقيقة أن بذر عقيدة الإلحاد بين المسلمين كان هدفاً سياسياً من أهداف الحركة الباطنية - الإسماعيلية التي حاولت تقويض الفكر الإسلامي الواضح بكافة السبل، وهي في الأصل حركة شعوبية خالصة؛ أصلها كراهية العرب والمسلمين وتقويض ملكهم.

والباطنية الإسماعيلية بدورها هي الوليد اللاشرعي لحركات الغلو والزندقة - بعد أن فشلت مساعيها في مقارعة الفكر الإسلامي - التي حاولت إرجاع أديان فارس القديمة؛ كالمانوية والمزدكية والمجوسية، التي توجد قواسم مشتركة بينها؛ كتقديس النار، وثنوية النور والظلام، والإباحية، وصولاً إلى الإلحاد، والمشاعية.. وهو ما كانت عليه (المزدكية) خصوصاً.

وكان التأويل القسري الباطني للقرآن من أول الأبواب نحو غاية الإلحاد التي اتخذت وسائل عديدة.

والتأويل القسري يعتمد على مبدأ أن لكل ظاهر باطناً، وأن العمل بالباطن هو للخاصة، والعمل بالظاهر للعامة! علماً أن مصطلحي العامة والخاصة من المصطلحات الدخيلة على الفكر الإسلامي، فالإيمان بالله والتصديق به ليس من الأمور الخاصة، وهو يناسب البشر كافة، دون تمييز.

يقول ابن الجوزي عن الإسماعيلية بأنهم لما عجزوا عن صرف الناس عن القرآن والسنة، صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها؛ فمعنى (الغسل)، عندهم، تجديد العهد على من فعل ذلك! ومعنى (الزنا) إلقاء نطفة العلم الباطن في نفس لم يسبق معه عقد العهد! و(الصوم) الإمساك عن كشف السر... إلخ. وكانت هذه المفاهيم تتغير بتغير الزمان والمكان، وبالاعتماد على عقلية المخاطبين بهذا المنطق الأعوج، وكان للدعاة حق الاجتهاد بالتأويل، فإذا وجدوا قوماً يتبرمون من الزكاة، قالوا بأن الزكاة تعني بث العلوم لمن يتزكى لها! وأما الحج، فهو لقاء الإمام الإسماعيلي، وتمام الحج مشاهدة الإمام... إلخ.

ثم ادعوا ألوهية أئمتهم، كما قال ابن خلدون: وقالوا "إن كمال الإمام لا يكون لغيره، فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر، ليكون فيه ذلك الكمال".

وهذه التأويلات لم تكن اعتباطية، وكانت مرسومة بدقة وذكاء، وتصب في غاية عليا، هي تهيأة العقول لتقبل الأفكار الثنوية، ومن ثم تقبل الإلحاد بالله الواحد الأحد، وإن كان الإلحاد هنا لا يعني إنكار فكرة الخالق المتفرد، ولكن تقديمها بشكل لا يختلف عن الإنكار المباشر، ونسف فكرة (الله خالق كل شيء)، وهو المتفرد بكل شيء، وليس كمثله شيء من خلقه!

وعلى هذا النسق تم زرع الأفكار التي مهدت لانتشار الإلحاد، وهي أفكار الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، حيث يعني الحلول والاتحاد استغراق المخلوق بالخالق، أو حلول الروح وتنقلها بين أجساد مختلفة. وهي من الأفكار الواضحة في المجوسية والهندوسية

والبوذية، والمبهمة في المسيحية؛ من خلال عقيدة التثليث، حيث يظهر الإله بشكل إنسان، والأخير هو ابن الإله الذي ضحى به من أجل البشر!

وأما وحدة الوجود، فهي ترسيخ لفكرة ألّا وجود في الحقيقة إلا للإله، وكل شيء ما عداه يعد مظهراً من مظاهره، وليس مخلوقاً من قبله، وكل ما في الوجود؛ من جماد وحيوان وإنسان ونبات، يشكل وجوداً مبهماً لشيء واحد.

وعليه، فالحلول، والاتحاد، ووحدة الوجود، من أخطر ما أدخلته الباطنية والغلاة في سعيهم لتدمير فكرة الخالق والمخلوق، وإلغاء الفوارق بين الله – جل شأنه – كخالق، والإنسان كمخلوق، وحتى - في بعض الأحيان - إلى ما دون الإنسان، وخلط الخير بالشر، والكفر بالإيمان، كمفاهيم مختلفة لمظهر واحد، وبالتالي طمس قدرة الله المطلقة، ليصبح كائناً بصفات مبهمة، أو أن الله روح، والعالم جسم لهذه الروح!

وكان من أبرع من صاغ هذه الأفكار تحت ستار التصوف الحلولي (السياسي) هو الحلاج (ت ٣٠٩ هجرية)، الذي ثبتت إسماعيليته، وانتماؤه للقرامطة، في كل الدراسات الجادة التي تناولت سيرته بعيداً عن العواطف.. فهو الذي قال بأن معنى (لا إله إلا الله) كلمة شغل بها العامة لئلا يختلطوا بأهل التوحيد. ثم زعم أنه من يوحد الله فقد أشـرك!.. وقد تناولنا الموضوع بالتفصيل في كتابنا المعنون (أسطورة الحلاج - قراءة في التصوف السياسي)، وقد اخترنا هذا المصطلح لكي لا يعتقد القارئ بأننا نهاجم التصوف ككل، وعن تعصب، وإنما لاقتران هذه الممارسات بغايات سياسية تحت غطاء عقائدي، كما ذكرنا آنفاً.

لقد كان الحلاج بارعاً في خلط المفاهيم، حيث قال: من فرق بين الكفر والإيمان، فقد كفر. ومن لم يفرق بين الكافر والمؤمن، فقد كفر. وأن الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم، وفي الحقيقة لا فرق بينهما!

ففي مسألة العقيدة يتهم بالكفر من يفرق بين الكفر والإيمان، وهي مسألة في غاية الإبهام والغموض. وفي مسألة التطبيق يبدو الأمر معكوساً تماماً، وكل ذلك يصب في بلبلة الأفكار والاقتراب بها نحو المبهمات، فتنمو أفكار الشك والريبة، ويكون المرء أقرب للإلحاد منه للإيمان.

إن خلاصة العقيدة في الإسلام تعني التسليم لله، والإيمان به إيماناً مطلقاً، وعدم تجاوز فكر المخلوق - أياً كان - على قدرة الخالق، الذي {ليس كمثله شيء}.. وأن أي ارتباط بالخالق بوشائج خارج العبادة والتفكير والتأمل والذكر، أمر يرفضه التوحيد الخالص، فالله تعالى قريب من كل عباده بشكل لا ندركه، وهذا من عظمته؛ قال تعالى: {ونحن أقرب إليه من حبل الوريد}، وهذه المسألة تنفي الاتحاد والحلول التي ادعاها أقطاب التصوف

الحلولي، فالله قريب من كل عباده بطريقة لا ندركها، وهنا تبرز أفكار الحلول والاتحاد كأفكار سوداوية تحط من قدرة الخالق المطلقة، وتلغي انفرادية المخلوق وخصوصيته.. ولذلك فشلت حركة الحلاج، وما شابهها من حركات، داخل الوسط الإسلامي، رغم كل المحاولات لإحيائها.

لقد دخلت هذه الأفكار إلى المسيحية، فجعلت من ما يسمى بعلم اللاهوت مجرد تخبطات وأوهام تستند إليها المسيحية في معتقداتها، ولذلك يجب أن يتوقف مفكرونا عن استخدام هذا المصطلح المبهم، واستبداله بـ(علم الإلهيات)، وعدم ربطه بما يسمى بـ(الناسوت)، فهذه كلها مصطلحات دخيلة لا وجود لها في الفكر الإسلامي الأصيل.

وعلى هذا النسق، حاول الحلاج، والشلغماني، وذو النون المصري، ويحيى بن حبش السهرور دي، ومن سار على نهجهم، جعل (التصوف الحلولي) ديناً منشقاً عن الإسلام، هدفه البعيد الإلحاد، ونسف الدين.. وعدّها الكثير من المفكرين والمتصوفة على أنها شطحات ليس إلا، وهي تفسيرا ت متهافتة وساذجة تركت جراحاً بليغة في الفكر الإسلامي، يرددها كثير من المسلمين إلى أيامنا هذه عن جهل بفكرة التوحيد الأصيلة.

فها هو جلال الدين الرومي (ت ١٢٦٧ م) يسير في هذا الطريق، ويبرر أفعال الحلاج وأقواله، بقوله: "إن قلب الصوفي هو موضع إرادة الله"، وهو افتراض لا معنى له، يقترب من الشرك بالله أكثر من اقترابه من الإيمان والتسليم له، وفيه من العاطفة اللاواقعية الشيء الكثير، وربما نتج عن الطريقة التي أعدم فيها الحلاج، فكثيراً ما يكتسب الذين يصلبون تعاطفاً وسمعة لا يستحقونها لمجرد العاطفة، ويستغل من يقف خلف أفكارهم الحدث لترسيخ مظلومية كاذبة.

يقول الحلاج :

لي حبيب حبه وسط الحشا لو يشأ يمشي على خدي مشا
روحه روحي وروحي روحه إن يشأ شئت، وإن شئت يشا

والكفر واضح في هذه الأفكار وضوح شمس الظهيرة، وهي ليست مجرد شطحات، حيث هذه الكلمة مطاطية. وقد جعل الرومي من الحلاج، ومن أقطاب الصوفية الحلولية، أشخاصاً معصومين، وهو تأثير واضح من تأثيرات لم يدرك كثير من المتصوفة المرامي الإسماعيلية الباطنية من وراء نشر الأفكار التي غطتها بغطاء التشيع لآل البيت.. فتأثر ابن عربي (ت ٦٣٨ هجرية) واضح جداً بالحلاج، ولذلك ظهر علينا بفكرة الفاطمي المنتظر، الذي هو والسيف إخوان.. وذهب جلال الدين الرومي لأبعد من ذلك، عندما اعتبر نفسه مهدياً، واعتبر أن الله يظهر في (سيف علي)، مخلوطاً بأفكار الاتحاد والحلول، فيقول عن

الله: "في كل نفس يظهر ذلك الصديق في ثوب جديد، فشيخاً تراه، وشاباً تراه أخرى، ذلك الجميل فتان القلوب، قد ظهر بصورة سيف في كف علي، وأصبح البتار في زمانه، لا بل هو الذي ظهر في صورة إنسان، وصاح أنا الحق"!

وحتى الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هجرية)، ورغم تأليفه لكتاب (فضائح الباطنية)، الذي فند فيه كل مزاعم الإسماعيلية، إلا أنه لم ينتبه للدافع السياسي للحلاج، ومن سار على نهجه، واعتبر أفكاره شطحات. وكذلك الإمام عبدالقادر الكيلاني (ت ٥٦١ هجرية)، الذي قال: "لو عاصرت الحلاج، لأخذت بيده"، وكان على اعتقاد خاطئ كبير في هذا المجال.

وكما أشرنا فإن هذه الأفكار كانت مدسوسة على الفكر الإسلامي عن تعمد وقصد، وليست هي بشطحات صدرت عن حسن نية، وغايتها القصوى نسف التوحيد وبذر أفكار الإلحاد؛ من خلال تنظيمات تدّعي أنها إسلامية، والقضاء على الكيان الإسلامي ككل❐

تأملات قرآنية

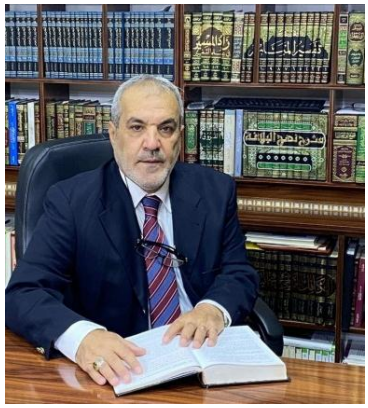

د. سيروان أحمد قادر - كركوك

✍ قال تعالى: **(إن الَّذِينَ قَالُوا ربنا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)**[1].

ذكر الله – سبحانه تعالى – في هذه الآية المباركة طائفة من المؤمنين متصفين بصفات مميزة، وهي الجمع بين توحيد الله – عز وجل –، الذي هو خلاصة العلم، وبين شريعته المطهرة.. بمعنى الذين أقروا بربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته، وداوموا على ذلك، واستقاموا مدة حياتهم في الدنيا على الشريعة (الدين)، وهو منتهى العمل[2].

الاستقامة: "هي سلوك الطريق المستقيم، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها؛ الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك"[3].

نستنتج من التعريف بأن الاستقامة تعني استقامة القلب، لأن القلب محل التوحيد، ولهذا سئل سيدنا أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - عن الاستقامة، فقال: أن لا تشرك بالله شيئاً[4].

---

[1]- سورة الأحقاف/ الآية ١٣.

[2]- تفسير روح المعاني للآلوسي: ٧٩/٢٥. وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي: ص٩٢١. فتح البيان في مقاصد القرآن، للقنوجي:٢٠/١٣، بتصرف.

[3]- جامع العلوم و الحكم لابن رجب:ص٤٧١ ، الحديث الحادي والعشرون.

[4]- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية:١٠٣/٢.

ونحن اليوم بأمس الحاجة إلى الالتزام بهذه الصفة، أي (الاستقامة)، ولا سيما بعد تخلي البعض منا عن ثوابت الاستقامة، ونحتاج إلى تجديدها في نفوسنا، ومتابعتها وتخليصها من زيغها وتهاونها وتساهلها، فمن أراد الكرامة وسلامة قلبه، فعليه بالاستقامة، يقول ابن رجب - رحمه الله -: "متى استقام القلب على معرفة الله وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القَلْبَ هو مَلِكُ الأعضاء، و هي جنوده، فإذا استقام المَلِك، استقامت جنوده ورعاياه. وأعظم ما يراعى اَستقامته، بعد القلب، من الجوارح: اللسَان، فإنه ترجمان القلب، والمعبِر عنه"[٥].

الاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنِّيّات، فالاستقامة فيها وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله.

قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة[٦].

واعلم أن هذه الآية: {**إن الَّذينَ قَالُوا ربنا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا**} تدل على أن الثبات، والجمع بين الإيمان والعمل الصالح، مطَلب إلهي، سوف يؤدي إلى النجاة والبشارة والأمان من ألّا نخاف الذي أمامنا، ولا نحزن على ما خلفنا، عليكم بالسمع والطاعة لأوامر الله - عزوجل - وطاعة رسوله ﷺ، كي تنالوا بشارة الأمان مِنْ قِبَلِ ملائكة الرَّحمن، عِنْدَ المَوْتِ، ثُمَّ في القَبْرِ، ثُمَّ بَعْدَ البَعْثِ[٧].

وجاء في الحديثَ الذي رواه (أبو أيوب الأنصاري)أن رجُلاً جاء إلى النبيَ ﷺ، فقال: (دُلَّني على عملٍ أعمَلُهُ يُدْنيني منَ الجنَّة، ويُباعدُني منَ النَّار. قال: تعبُدُ اللهَ لا تُشرِكُ به شيئًا، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتي الزكاةَ، وتَصِلُ ذَا رحِمَكَ. فلمَّا أَدْبَرَ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: إنْ تمسَّكَ بما أُمِرَ به، دخَلَ الجنَّةَ)[٨].

إذن، فالطَاعة كما قال الإمام ابن قيم - رحمه الله - حصن الله الأعظم، الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل

٥- جامع العلوم و الحكم لابن رجب:ص٤٧١ الحديث الحادي والعشرون.

٦- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية:١٠٦/٢.

٧- النكت والعيون، تفسير الماوردي: ٢٧٥/٥ بتصرف.

٨- صحيح مسلم بشرح الإمام النووي: ٢٩/٢ رقم الحديث ١٣، كتاب الإيمان، باب الإيمان الذي يدخل به الجنة، وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة.

جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أماناً، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوفَ[٩].

فعلينا أن نطيع الله – تعالى – ونطيع رسوله ﷺ كي ننجو من مخاوف الدنيا والآخرة، ولا نعصي الله في شيء، لأن الذنوب والمعاصي سبب لكل المصائب والبلايا، وسبب لسوء الخاتمة، أعاذنا الله منها.

قال تعالى: {ومَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}[١٠].

إنَّ الله أعْلَمنا أنَّ ما يُصيبنا من مصيبة في الدنيا؛ في الأموال والأنفس والأهل، فهو عقوبة منه لنا بما اكتسبنا من الآثام[١١].

رُؤِيَت عَلى كَفِّ شُرَيْحٍ قُرْحَةٌ، فَقيلَ: بِمَ هَذا ؟ فَقالَ: بِما كَسَبَتْ يَداي[١٢].

فالآيَةُ داعيَةٌ لكُلِّ أحد إلى المُبادَرَة عنْدَ وُقُوعِ المُصيبَة إلى مُحاسَبَة النَّفْس، ليَعْرِفَ من أيْنَ جاءَ تَقْصيرُهُ، فَيُبادِرُ إلى التَّوْبَة عَنْهُ، والإقْبال عَلَى اللهِ، لِيُنْقِذَ نَفْسَهُ منَ الهَلَكَة[١٣].

قال العباس بن عبد المطلب: (اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب، ولا يكشف إلا بتوبة)[١٤].

فإذا أردنا الخلاص من المصائب والبلايا، فعلينا بالتوبة والندم على ما اقترفنا من الذنوب والمعاصي، قبل فوات الأوان، ولكن بشروطه وضوابطه.

نسأل الله الثبات والسداد والزيادة، ونعوذ به من النكوص بعد الاستقامة، وأن يوفقنا لطاعته، ويحفظنا من شؤم الذنوب والمعاصي، وأن يوقظنا من غفلتنا، إنه على كل شيء قدير..

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين❐

٩- الجواب الكافي، لابن قيم الجوزية:ص١٥٨.
١٠- سورة الشورى، الآية٣٠.
١١- الهداية إلى بلوغ النهاية، للإمام مكي بن أبي طالب: ص٦٥٩٦.
١٢- تفسير البحر المحيط، لأبي حيان: ٤٩٦/٧.
١٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي: ٣١٥/١٧.
١٤- المجالسة وجواهرالعلم / لأبي بكر محمد الدينوري القاضي المالكي: ١٠٢/٣ رقم ٧٢٧.

رحلة إلى القمر

انتصار الجنابي

✍ في عام ١٩٦٩، وفي مركبة الفضاء (ابولو)، أصبح رائد الفضاء (نيل آرمسترونغ) هو أوّل رجل يهبط على سطح القمر.. ولكن لماذا لم تكرر الرحلات إلى القمر؟

المفروض أن يكون القمر في عصر التكنولوجيا والأقمار الصناعية وعصر النت، محط سواح الأرض إلى القمر؛ شأنه شأن أي جزيرة نائية يذهب إليها البشر.

ولكننا منذ عام ١٩٦٩ وحتى الآن (عام ٢٠٢٢)، لم نشاهد رجل فضاء يهبط على سطح القمر مرة ثانية، أو ثالثة، أو رابعة...

هل هناك غموض يكتنف تلك الرحلة اليتيمة التي يتساءل عنها إلى يومنا هذا؟ وهل كانت فعلاً رحلة؟ وهل كان هناك فعلاً رجل هبط على سطح القمر؟!

مجرّد تساؤلات تحتاج إلى أجوبة علمية بحتة!

ثلاثة وخمسون سنة مضت على تلك الرحلة، وبعد التطورات التي شهدها الزمان؛ من وكالات الفضاء، مثل (وكالة ناسا) الأمريكية، وغيرها من وكالات الفضاء.. كنا نعتقد أننا سنذهب إلى القمر نحن العامة من الناس، وتصورنا أن تلك الرحلة لم تعد حصراً على رواد الفضاء ومراكبهم، بل كنا نأمل، وأنا من الناس، أن أحجز لي مقعداً في رحلة إلى الفضاء.

قلت في نفسي قد يكون ثمن الرحلة باهضاً بعض الشيء، لكن ممكن أن أدبر ذلك الثمن بسحب سلفة من المصرف، أو ادّخار بعض الأموال، وتقليل الإنفاق على الكماليات، وغيرها من الأشياء غير الضرورية، كلها في سبيل الرحلة إلى القمر.

ولكن مع الأسف ما زالت رؤية القمر مجرد النظر إليه وهو في كبد السماء، وما زلنا نراه هلالاً في أول أيام الشهر، ونتمتع برؤيته بدراً في الأيام البيض!

لقد خاب الظن في ذلك التطوّر السريع، وفي عالم الروبوت.. حتى الرجل الآلي لم يستطع الذهاب إلى القمر، فأين التطوّر، وأين التكنولوجيا من تلك الأماني الضالّة؟!❐

مرافئ

كوكبنا وكوكبهم!

د.يحيى عمر ريشاوي

✍ وأسوأ ما في الأمر حين تضطر إلى متابعة أحدهم من على شاشة فضائياتهم الممولة من (جيوب المواطنين!)، وهو يتحدث عن (نجاح!) حكومة الإقليم في تجاوز الأزمات الاقتصادية، و(قدرتها!) على تحقيق (الأهداف الاستراتيجية!)، وكيف أن هذه الحكومة (استطاعت) أن تستقبل (آلاف السياح!) القادمين من وسط العراق وجنوبه، وتوفر (١٤) ساعة من الطاقة الكهربائية، وأن تخفض ثمن فحص الكورونا على الحدود من (٦٠) ألف إلى (٢٥) ألف دينار!! وتظل تسمع وتسمع، وتتابع وتتابع، حتى تصل إلى مرحلة يخيل إليك أنك ربما تعيش في كوكب آخر، وهؤلاء (المحللون العباقرة!) يتحدثون – بالتأكيد - عن كوكب آخر! وأنك تحتاج إلى مراجعة في رؤيتك (المتشائمة!) للأوضاع، وأن المنافسة الاقتصادية والعمرانية الآن ليست بيننا وبين بغداد والبصرة (كما يخيل إليك)، بل السباق الآن جار بيننا وبين دبي وسنغافورة وبكين!!

وبالتأكيد، فإن ادعاءاتهم بالرفاهية المعيشية! والسياسات الاقتصادية الناجحة! والطفرة العمرانية الهائلة! صحيحة ولا غبار عليها، فهم يتحدثون عن (كوكبهم) هم، لا (كوكبنا) نحن، فكوكبهم لا تشهد فيه (أزمة سكن)، و(أزمة معيشة)، و(أزمة وقود).. السفر من (كوكبهم) إلى (تايوان) و(برلين) متوفر على مدار الساعة، والتأشيرات وبطاقات السفر تصلك إلى باب بيتك بمجرد اتصال تلفوني!.. في كوكبهم ولى زمن (المبردات)، وبراميل وقود التدفئة المنزلية، وغيرها من الوسائل التي عفا عليها الزمن!.. بخلاف كوكبنا (المتخلف!)، الذي لا يريد أن (يتطور!)، ولا تنتهي فيه أزمة حتى تبدأ أخرى، وما زال المواطنون فيه يقفون في طوابير لاستلام رواتبهم في أكياس ورقية ونايلونية!

كوكبهم فيه جيش من المرتزقة والمطبلين، الذين لا يعرفون للتعب معنى، ولا مكانة عندهم لما يسمى في كوكبنا بـ(المصداقية، والقيم، والعدالة)، وغيرها من (المسميات البالية!).. فكوكبنا (صادع للرؤوس!)، (مخيب للآمال!)، (متشائم إلى أبعد الحدود)!!، أما (كوكبهم) هم، فمشرق وضاء! ولا مكان فيه (للبطالة)، أو عدم الحصول على عمل مشرف! فمكتب عملك جاهز حتى قبل أن تتخرج من الكلية، وشهادتك الجامعية مضمونة من الجامعات (الخاصة)، الموجودة بكثرة في (كوكبهم!).. والأب في (كوكبهم) (حريص!) أشد الحرص على مستقبل ابنه، فمجرد تجاوزه سن البلوغ تراه مسؤولاً عن منظمة (كوكبية!)، ومشرفاً على إنشاء مجمع سكني، وله رؤى سياسية للتقريب بين (موسكو) و(كييف)! ففي (كوكبه) لا مجال لراتب مستقطع، أو ترخيص مسيس!، بخلاف الآباء في (كوكبنا)، الذين لا همّ لهم سوى انتظار الإعلان عن قائمة جدول الرواتب، والعروج على أصحاب المحلات التجارية لتسديد الأقساط الشهرية!

فبالله عليكم هل هناك وجه مقارنة بين (كوكبنا) و(كوكبهم)؟! فهم في مجرة ونحن هنا في مجرة أخرى، فلم اللوم والتشكي؟!. فنحن (هنا) وهم (هنااااااااااك)!!❐

- مشاهدات الرحالة ابن جبير في عاصمة العباسيين	بشار نافكوندي

مشاهدات الرحالة ابن جبير في دار السلام عاصمة العباسيين

السقوط الذي سبق السقوط الكبير في العام ٦٥٨ للهجرة

بشار ناڤگوندى

✍ العالم الفقيه أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي، كان من علماء الأندلس، اشتهر بكتابه المعروف (رحلة ابن جبير) الذي وضعه بعد أن قام برحلات ثلاث؛ أهمها رحلة استغرقت ثلاث سنوات، بدأها في العام ٥٧٨ للهجرة الموافق ١١٨٢ للميلاد، وختمها في العام ٥٨١ هجرية الموافق للعام ١١٨٥ للميلاد، حيث بدأ رحلته بحراً من الأندلس نحو جزيرة صقلية، وصولاً إلى مصر، ومن ثم عبر البحر الأحمر نحو مدينة جدة في الحجاز قاصداً مكة لأداء مناسك الحج، ليتجه بعدها صوب المدينة المنورة، واصفاً كل ما مر به من مدن، وما شاهد من عجائب البلدان، وغرائب المشاهد والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية، ومجالس الوعظ، والمستشفيات والمارستانات، وما كابده المسافرون من ضيق وذعر؛ حيث يصف ابن جبير التعامل السيئ الذي لاقاه من البحارة

الذين نقلوهم من أرض مصر عبر البحر الأحمر إلى مدينة جدة، كما أشار إلى عمليات السرقة والسلب والنهب التي كان حجاج بيت الله الحرام يتعرضون لها من أهالي جدة وما حولها، حيث قال نصاً: إنهم "ينتهبون الحجاج نهباً"، ولولا خوفهم من السلطات التي شددت الرقابة والعقوبات عليهم، ومنحتهم بعض الامتيازات، لكان الحجاج جلهم فريسة لهؤلاء الهمج السراق. ثم يذكر بني شعبة (الشعبيون)، الذين كانوا يسكنون أطراف مكة، ويغيرون على حجاج بيت الله الحرام في موقف عرفات وينتهبونهم[1].

وصل ابن جبير إلى العراق في سنة ٥٨٠هـ - ١١٨٤م، بعد خروجه من المدينة المنورة، فمر بمناطق الديوانية والكوفة والحلة وصولاً إلى بغداد؛ هذه المدينة التي بنيت في العام ١٤٦هجرية من قبل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور[2]، لتكون لعقود طويلة من الزمن عاصمة للإمبراطورية الإسلامية التي امتدت حدودها من تخوم الصين شرقاً وإلى سواحل المحيط الأطلسي غرباً، ومن تخوم روسيا الحالية شمالاً وحتى سواحل اليمن جنوباً، ومرت بفترات متفاوتة بين القوة والضعف والازدهار والانحسار.. وعندما وصل إليها ابن جبير، في إحدى محطاته العديدة في رحلته، لم تكن مدينة بغداد في أحسن أحوالها، حيث فسدت أخلاق الناس، وشاعت الآفات الاجتماعية التي تكون سبباً في تلاشي واضمحلال المجتمع وضياعه، ولم يكن حال الحكام والمتنفذين في الدولة في أحسن حال من الصلاح والإصلاح، وقد صور ابن جبير بعضاً من هذه المشاهد التي تدل على ضعف هذه المدينة، وقرب زوال دورها الحضاري إلى الأبد.

وأكثر ما يلفت الانتباه هو الوصف القاسي لابن جبير لأخلاق وتعامل أهل بغداد، بعد أن عاشرهم وعاش معهم لفترة، حيث يشير إلى المستوى الاجتماعي المتردي الذي وصله المجتمع حينذاك، فيقول: "أما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء، يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء، قد تصور كل منه في معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم، يسحبون أذيالهم أشراً وبطرا، ولا يغيّرون في ذات الله منكرا... يتبايعون بينهم بالذهب قرضا، وما منهم من يحسن لله فرضا،

---

(١) ابن جبير ، محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ص٥.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ص١٥٦٢.

فلا نفقة فيها من دينار تقرضه، وعلى يدي مخسر للميزان تعرضه، لا تكاد تظفر من خواص أهلها الورع العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلا من ثبت له الويل في سورة التطفيف، لا يبالون في ذلك بعيب، كأنهم من بقايا مدين قوم النبي شعيب"[٣].

ويستمر ابن جبير في وصفه لهم: "فالغريب فيهم معدوم الأرفاق، متضاعف الإنفاق، لا يجد إلا من يعامله بنفاق، أو يهش إليه هشاشة انتفاع واسترقاق، كأنهم من التزام هذه الحلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق، فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها ومائها"[٤].. إلا أن ابن جبير لا ينسى الفقهاء والوعاظ، الذين كانوا موجودين في بغداد، في إشارة للوجه الآخر للمجتمع، حيث يذكر مجالس الذكر التي كانت تعقد بشكل مستمر في أروقة المدينة، وتأثيرها على توبة الناس وإصلاحهم؛ منهم الشيخ الإمام رضي الدين القزويني، رئيس الشافعية، والإمام جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي، الذي كان يجلس كل يوم سبت، حيث يصفه قائلاً: "آية الزمان، وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمَة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر... ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر، بباب بدر، في ساحة قصور الخليفة، ومناظره مشرفة عليه، وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة، وخص بالوصول إليه، والتكلم فيه، ليسمعه من تلك المناظر الخليفة، ووالدته، ومن حضر من الحرم..."[٥]. وهذه إشارة لطيفة من ابن جبير إلى كون الحاكم والخليفة حينذاك من أهل الصلاح، أو على الأقل من الميالين إلى الصلاح والسماع لوعظ المصلحين، وهو الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢ هجرية) الذي أحيا هيبة الخلافة العباسية التي احتضرت بموت المعتصم، ثم ماتت بموته[٦]، حيث كان ميمون النقيبة عند الناس، قد استسعدو بأيامه رخاءَ وعدلاً وطيب عيش، فالكبير والصغير منهم داع له... وعلى الرغم من كثرة مجالس الوعظ، والمستمعين، والتائبين، حسب مشاهدة ابن جبير، الذي يشير إلى أن الله تعالى، نتيجة مثابرة الوعاظ والدعاة على الإنذار والتحذير، يحط كثيراً من أوزارهم، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم، ويمنع القارعة الصماء أن تحل بديارهم، إلا أنه

(٣) ابن جبير، نفس المصدر، ص١٩٤.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٤.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٥.

(٦) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، تاريخ الخلفاء، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ط٢، ص٦٨٧.

يرجع ويؤكد أنهم - أي الدعاة والوعاظ – "يضربون في حديد بارد، ويرومون تفجير الجلامد"[٧]، وهذا وصف عجيب للحال الذي وصل إليه أفراد المجتمع في تلك الفترة، وتأكيد على حجم الانحراف الاجتماعي والأخلاقي الذي انحدر إليه المجتمع المسلم في العاصمة الحضارية والثقافية للأمة. ولا شك أن لهذا الانحدار الأخلاقي والقيمي مآلات لن تكون محمودة في السنين التي تلت هذه الحقبة من الزمن، فبعد مرور ٧٦ ستة وسبعين سنة من هذه المشاهدات، تم ذبح وإبادة أحفاد هؤلاء عن بكرة أبيهم من قبل المغول، وأية إبادة؟ إبادة لم تقم لهم قائمة بعد ذلك، وصار مجدهم وتفاخرهم وتكبرهم على خلق الله هباءً منثوراً، كأن لم يكن موجوداً.. حيث أطلق المغول أيديهم على أهلها، فقتلوا - على أقل تقدير - مليون شخص من سكانها، وقتلوا الخليفة والوزراء والوجهاء[٨]، وأشعلوا النيران فيها حتى ظلت النيران تتأجج ليالي عديدة تسطع وهاجة في حلك الظلام، وضربوها بالمنجنيقات أربعين يوماً، حتى صارت أكثر مساكنها وأسواقها ركاماً، كما ونهب المغول كل التراث الذي امتلكه الخلفاء العباسيون وأهالي بغداد؛ من أثاث وسجاد وأقمشة من حرير وأقطان وكتان وقساطيط وسروج خيل وأفرشة وبسط[٩]، وتم تدمير مكتبة بغداد التي كانت أعظم مكتبة على وجه الأرض آنذاك، وكانت تحتوي على عصارة فكر المسلمين لستمائة عام، جمعت فيها كل أصناف العلوم والآداب والفنون، وتحتوي على ملايين المصنفات في مختلف المجالات[١٠]. وهكذا سقطت مدينة بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦هجرية - ١٢٥٨م[١١]. هذه المدينة المليونية التي كانت عاصمة لأعظم إمبراطورية لعدة قرون، ومناراً للعلم، ومزاراً للعلماء وطلبة العلم، ومن أبرز المراكز الحضارية التي أهدت البشرية مفاتيح العلم والمعرفة، أصبحت في غضون أيام قليلة هامدة وخاوية على عروشها.. وليس هناك وصف أنسب مما وصفه بها أحد العلماء الذين مروا بها لاحقاً

---

(٧) ابن جبير، مصدر سابق، ص٢٠٣.

(٨) الصياد، فؤاد عبدالمعطي، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠، ج١، ص٢٦٦.

(٩) القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، ج٢، عالم الكتب، بيروت، ص٩٢.

(١٠) بخيت، رجب محمود إبراهيم، تاريخ المغول وسقوط بغداد، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ط١، ص٢٤٢.

(١١) ابن كثير، عمادالدين إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، اعتنى به: حسان عبدالمنان، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ٢٠٠٤، ص٢٠٤٣.

فقال: وافيتها بلدة خالية، وأمة بالية، ودمنة حائلة، ومحنة جائلة، وقصوراً خاوية، وعراصاً باكية، وقد رحل عنها سكانها، وبات عنها قطانها، وتمزقوا في البلاد، ونزلوا بكل واد، وقصورها المشيدة مهدومة، ونعماؤها مسلوبة معدومة، موحشة لفقد قطانها باكية، تسفي عليها الرياح السافية، فهل ترى لهم من باقية[١٢]؟

إن التأمل في وصف ابن جبير لحال المسلمين في زمانه، يدعو إلى التفكير واستنتاج بعض الأمور المثيرة للاهتمام؛ منها:

- إن فساد الأفراد، وانهيار القيم المثلى لديهم، هو انعكاس لفساد وتقصير منظومة الحكم والحكام، الذين هم بالنتيجة أفراد في هذا المجتمع، فالشعب المضطهد والمغلوب على أمره تفسد أخلاقه.

- انعدام فكر وروحية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين أفراد المجتمع، يؤدي إلى انتشار الآفات الاجتماعية؛ منها على سبيل المثال لا الحصر: الكبر، والبطر، وازدراء الغرباء استكباراً وعلواً. وهذا ما ابتلي به أهل بغداد، ولمسه ابن جبير وعايشه بنفسه.

- فساد التجار والباعة، وانتشار التطفيف والغش بين الناس في الأسواق، يستوجب العقاب الإلهي بالويل للمطففين، لقوله تعالى: (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣))(سورة المطففين)، وما يتبعه من انعدام الأمانة، وانتشار الغش والحيلة في الأسواق، وبين الباعة والتجار، وبالنتيجة فساد المنظومة الاقتصادية والتجارية في البلد، وانعدام الأمان الاقتصادي، وانتشار النفاق والفساد الخلقي والأخلاقي.

- عندما تفسد المنظومة المجتمعية، وينجرف أغلب الأفراد معها نحو السوء، حينها لن يكون للدعاة والمصلحين ذلك الأثر الذي يمكن من خلاله إنقاذ المجتمع من ذلك المستنقع الذي انجرف نحوه لعقود طويلة من الزمن.. ولهذا نرى أن ابن جبير يصف قوة مجالس الدعاة، وبراعتهم في إلقاء الموعظة ونصح الناس، إلا أنه مع كل ذلك نرى أن نسبة قليلة من الناس تتأثر بهم وترجع إلى طريق الصلاح، وذلك لكون المنظومة العامة للمجتمع تحتاج إلى الإصلاح من الأعلى إلى الأسفل، فالمصلح الفردي يستطيع أن يؤثر على بعض الأفراد، وربما يتوبون على يديه، ولكنه لن يستطيع التأثير على التوجه العام لأفراد المجتمع، وتغيير مسار حياتهم كلياً، إلا بمساندة وتكاتف كل مرافق الدولة والمجتمع، وإصلاح الجوانب الحياتية التي تؤدي إلى صلاح الأفراد؛ وأبرزها إصلاح هرم السلطة من الأعلى،

(١٢) التكريتي، سلمان، بغداد مدينة السلام وغزو المغول، مكتبة الشرق الجديد، بغداد ١٩٨٨، ص٢٥٤.

وجعله مناسباً لدعم وإصلاح المرافق الأخرى التابعة له، وبالتتابع من الأعلى إلى الأسفل، وبالعكس، بحيث يشد بعضه بعضاً كالبنيان المرصوص.

- صلاح الحاكم يجب أن يتبعه عمل دؤوب ومتواصل لإصلاح المحكوم، وببرنامج متكامل طويل الأمد، فالحاكم الصالح الذي لا يجيد إدارة الحكم والدولة، لن يكون تأثيره مجدياً، فالخليفة الصالح الذي يترك أمور الحكم والدولة لوزراء وحكام غير مناسبين، صلاحه لن يفيد أحداً.. فالمطلوب من الحاكم الصالح أن يعكس صلاحه على رعيته بالحزم والحسم والإصلاح واختيار الأشخاص المناسبين لإدارة الدولة.

- القاعدة الربانية الثابتة التي سرت في الأمم السابقة، وتسري على الأمم الحالية، والقادمة، إلى يوم الدين، هي أن الظلم يورث الهلاك، وأن انتشار الظلم واستفحاله بين أمة ما من الأمم، يؤدي في النهاية إلى هلاك تلك الأمة وزوالها، قال تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا}(سورة الكهف/ ٥٩). وهذه قاعدة ثابتة لا يستثنى أحد منها، ومن أبرز سمات الظلم التي انتشرت في المجتمع المسلم إبان الغزو المغولي هو ظلم الأثرياء وكبار موظفي الدولة، وانتشار الآفات الاجتماعية بينهم؛ كالبطر والغش والكبر والترف والبعد عن الأخلاق الحميدة. يقول الباري عز وجل في كتابه العزيز: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}(سورة الإسراء/ ١٦).

وَقد أورد الفيلسوف والمؤرخ المسلم ابن خلدون، الذي يعتبر الرائد في علم تفسير التاريخ، فصلاً في مقدمته أسماه (الظلم مؤذن بخراب العمران)، يحذر فيه من ظلم الرعية في أموالهم ومعاشهم، لأن ذلك يؤدي إلى فقدان الأمل والسعي في كسبه، لأن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم. ومن أقواله المثيرة للانتباه في هذا المجال، قوله: "ظلم الأفراد بعضهم بعضاً يمكن ردّه بالشرع، أما ظلم السلطان، فهو أشمل، وغير مقدور على رده، وهو المؤذن بالخراب"، وقوله أيضاً: "الشعوب المقهورة تسوء أخلاقها"[١٣] ❐

المصادر و المراجع

١.القرآن الكريم.

٢. ابن جبير، محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت.

(١٣) ابن خلدون، عبدالرحمن، مقدمة ابن خلدون، ضبطه: خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ص٣٥٣.

٣. ابن خلدون، عبدالرحمن، مقدمة ابن خلدون، ضبطه: خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت – لبنان، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
٤. ابن كثير، عمادالدين إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، اعتنى به: حسان عبدالمنان، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ٢٠٠٤.
٥. بخيت، رجب محمود إبراهيم، تاريخ المغول وسقوط بغداد، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٤٣١هـ-٢٠١٠، ط١.
٦. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن.
٧. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، تاريخ الخلفاء، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ط٢.
٨. الصياد، فؤاد عبدالمعطي، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠، ج١.
٩. القلقشندي، مآثر الانافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، ج٢، عالم الكتب، بيروت.
١٠. التكريتي، سلمان، بغداد مدينة السلام وغزو المغول، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، ١٩٨٨.

- هل يجري الرِبا في الأوراق النقديّة؟	شوان زنكنة

هل يجري الرِّبا في الأوراق النقديّة؟

شوان زنكنة

ماجستير اقتصاد إسلامي

✍ نَعم؛ يَجْرِي الرِّبا في الأوراقِ النَّقديّة.. ولكن ليس بالعلَلِ التي ساقَها فُقهاءُ المَذاهبِ الأربَعة. فَقدْ ذكرَ الشّارِعُ أصنافًا ستّةً من الأموالِ، واعتبرَها أموالًا رِبويّةً، يَحرُمُ في بُيوعِها الفَضْلُ والنّسيئَةُ. وقاسَ الفُقهاءَ عليها الأموالَ، بعدَ أنْ أشارُوا إلى علَلٍ استنبطُوها من ظاهرِ الرواياتِ المأثورَة، فاخْتلفُوا فيها اختلافًا شديدًا، لأن هذه الرواياتِ لم تَنُصَّ على العللِ صَراحَةً. وذكرَ (ابنُ رُشد) الجَدّ، بهذا الخصوص، ما يَلي: "وهذه العلَلُ أُخِذَتْ عن طريقِ النّظرِ والاجتهاد، إذ لم يَنُصّ النّبيّ ﷺ على العلَّةِ في ذلكَ، ولا نَبّهَ عليها، ولذلك اُختُلِفَ فيها، فهي مَظْنونَةٌ غيرُ مَعلومَة، ولا مَقطوعَة بها؛ والحُكْمُ بها - عندَ من رآها علَّةً بِنظَرِه واجتهادِه - معلومٌ مقطوعٌ عليه". (محمد بن رشد القرطبي، الْمُقَدِّماتُ الْمُمَهِّداتُ، ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م، ج٢، ٣٤).

فَعلَّةُ القياسِ، عندَ فُقهاءِ المَذهبِ الحَنفيّ، والحَنبليَ، هي الوَزنُ، أو الكَيلُ، فكلُّ مَوزونٍ أو مَكيلٍ هو مالٌ رِبويّ عندَهم. فقدْ وردَ في (الاختيار لتعليل المختار) ما يلي: "وعِلَّتُه (أي

عِلّةُ الرِّبا) عندنا الكيلُ أو الوزنُ مع الجِنسِ، فإذا وُجِدا، حَرُمَ التَّفاضُلُ والنَّسَاءَ". (عبد الله بن مودود الموصلي، الاختيار لتعليل المختار، إسطنبول: مكتبة باموك، ٢٠٦). والأوراقُ النقديةُ ليستْ مَوزونَةً، ولا مَكيلَةً، فلا يَجْري فيها الرِّبا عندَهم.

وعلَّةُ القياسِ، عند فُقهاءِ المذهبِ الشّافعيِّ، هي: جَوهَرُ الثمنيةِ الغالبَةِ، وهو القولُ المشهورُ في المَذهبِ. وهي علَّةٌ قاصرَةٌ على الذَّهبِ والفضَّةِ فقط، ولا تَتعَدَّاهما إلى غيرِهما.. فقدْ وردَ في (المجموع) ما يَلي: "فأمّا الذَّهبُ والفضَّةُ، فالعلَّةُ عندَ الشّافعيِّ فيهما كونُهما جنسُ الأثمانِ غالبًا، وهذه علَّةٌ قاصرةٌ عليهما لا تتَعدَّاهما، إذ لا تُوجَدُ في غيرِهما". (محي الدين بن شرف النووي، المجموع شرح المهذب، جدة: مكتبة الإرشاد، طبعة كاملة،ج٩، ٤٩٠).

ولم يَترُكْ فُقهاءُ المَذهبِ مَفهومَ الثّمنيةِ مُطلَقاً، بل قَيّدُوهُ بالغالبيّةِ، كي يَشمَلَ المفهومُ كلَّ أنواعِ الذهبِ والفضة؛ المَسكوكِ والمَصوغِ والتِّبْرِ، وللاحترازِ من الفُلوسِ، إذا راجَتْ رَواجَ النّقودِ. فَقدْ قالَ النَّوَويّ في (الرَّوضة) ما يَلي: "وأمّا الذّهبُ والفضّةُ، فقيلَ: يَثبتُ الربا فيهما لعَينِهما، لا لعلَّة. وقالَ الجُمهورُ: العلّةُ فيهما صَلاحيّةُ الثّمنيّةِ الغالبَةِ، وإنْ شئْتَ قلْتَ: جَوهريّةُ الأثمانِ غالبًا. والعبارَتان تَشمَلان التِّبْرَ، والْمَضروبَ، والحُليّ، والأوانيَ، منهما. وفي تَعدِّي الحُكمِ إلى الفُلوسِ، إذا راجَتْ، وَجهٌ، والصحيحُ: أنه لا رِبا فيها؛ لانتفاءِ الثّمنيةِ الغالبَةِ، ولا يَتعدّى إلى غيرِ الفُلوسِ؛ من الحديدِ والنّحاسِ والرّصاصِ، وغيرِها، قَطعاً". (يحيى بن شرف النووي، روضة الطالبين وعمدة المفتين، ط٣، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٩١م، ج٣، ٣٩٧).

واضحٌ أنَّ صِفةَ الثمَنيّةِ الغالبَةِ، قاصرَةٌ على الذهبِ والفضةِ، ولا تتعدَّاهما إلى غيرِهما، عند مُعظمِ فقهاءِ الشافعية. وما مُحاوَلاتُ البعضِ، ممَّن كَتبوا في هذا المجالِ، لجعلِ هذه الصّفة مطلقةً، ومتعديةً، لِيَشمَلَ الفلوسَ، استناداً إلى ما وردَ في الفَتاوى لابنِ حَجر، إلّا شُذوذٌ عن المذهبِ. فقد كَتبَ محمد سعيد المجاهد، في بحث له بهذا الخُصوص، ما يَلي: "ومعَ ذلك، فقد نَصّ ابنُ حجر؛ مُفتي الشافعيةِ الأول، على أنَّ الفلوسَ إذا رَاجتْ، ثبتَ لها أحْكامُ النُّقودِ. قالَ في الفَتاوى: ومِن ثَمَّ لو رَاجَتِ الفلوسُ رَواجَ النُّقودِ، ثبتَ لها أحْكامُها".

(محمد سعيد المجاهد، علة الربا في النقدين عند الشافعية، بحث، مجلة التجديد، م٢٠،ع٣٩، ٢٠١٦م، الجامعة الإسلامية ماليزيا،١١٠).

وعليه.. فإذا كانت علَّةُ الثّمنيّة الغالبةُ لا تَتعدَّى إلى الفُلوسِ المُستخدَمةِ في ذلك الوقتِ، عند فُقهاءِ الشّافعيةِ، فكيفَ يُمكنُ تَصوُّرُ تعدِّيها إلى الأوراقِ النقديةِ اليوم؟

وعلَّةُ القياسِ عندَ فُقهاءِ المَذهبِ المَالكيِّ، هي نفسُها التي عندَ فقهاءِ الشافعيةِ: الثّمنيّةُ الغالبَةُ. فقد ذكرَ الحبيبُ بنُ طاهر ما يَلي: "علَّةُ الرِبا في العَينِ (الذهَب والفضة)، كونُها رؤوسًا للأثمانِ، وقِيَمًا للمُتلَفات، إما بغَلبةِ الثمنيّة، أو بمُطلقِ الثّمنيّة. ويَنْبَني على ذلكَ حُكْمُ الفلوسِ النحاسِ، فإذا قلنا: مُطلقُ الثمنية، فيلحقَ بذلكَ ما كان ثمنًا؛ كالفلوسِ، والجُلودِ المَطبوعَة، إذا تُعُومِلَ بها؛ وإذا قلنا: أنها الثمنيّةُ في الغالبِ، فتخرجَ الفلوسُ وغيرُها. ومعنى الثمنيةُ كونُها رؤوسًا للأثمانِ، وقِيَمًا للمُتلَفات.

وهذه علَّةٌ قاصرةٌ على الذهبِ والفضة، غيرُ مُتعدِّية إلى غيرِهما من المَعادنِ. والدليلُ: أنّ النبيَ ﷺ نَصَّ على الذهبِ والفضة، ولم يَنُصَّ على ما سِواهُما؛ فدَلَّ ذلك على أنّهما مُختَصَّانِ بالحُكمِ؛ لأنه لا يُوجدُ لهما مشارِكٌ في وَضعهما الأخصِّ". (الحبيب بن طاهر، الفقه المالكي وأدلته، ط١، بيروت: مؤسسة المعارف، ٢٠٠٩م، ج٥، ٦٩). ولأنَّ علّةَ الثمنية قاصرةٌ على الذهب والفضة، لا تَتعدَّاهما إلى الفلوسِ، فإنَّها حتمًا لا تتعدَّاهما إلى الأوراقِ النقديّةِ أيضاً.

هذا، باختصارٍ شديد، سَردٌ واضحٌ لأقوالِ فُقهاءِ المَذاهبِ الأربعَة، في علَّةِ رِبويّةِ النَّقدَين؛ الذّهبِ والفضّة، من دونِ الدّخولِ في تَفاصيلِ استنباطاتهم، ومُناقشةِ أقوالهم. وهي كلُّها، وإن كانت صالحةً إلى حدٍّ مَا لتلك الأوضاعِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ في ذلك العهد، إلّا أنَّها لا تَصلُحُ أنْ تُساقَّ كعلّةٍ لرِبويّةِ الأوراقِ النقديةِ المستخدَمةِ حاليّا، لأنها ليستْ مِمَّا يُكالُ ويُوزنُ، ولا تَتَّصفُ بصفةِ ثمنيةِ الذهبِ والفضةِ القاصرةِ..

فإذن، كيفَ يُمكنُ تَصوُّرُ رِبويةِ الأوراقِ النقديةِ، في ظلِّ قُصورِ العللِ المُساقَّة من قِبَلِ الفقهاء بهذا الخصوص؟

للإجابة عن هذا السؤالِ، يَجبُ إمعانُ النظرِ في حديثِ الأصنافِ السِّتّة، المأثورِ عن الرسول ﷺ، واستنباطُ العللِ منه على وَفْقِ الأوضاعِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ والسياسيةِ الحاليّة، وتطوّراتها.

فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ؛ مِثْلًا بِمِثْلٍ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، يَدًا بِيَدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ، فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ". (مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، ط١، طبعة عبدالباقي، (القاهرة: دار الحديث، ١٩٩١)، ج٣، ١٢١١).

نصَّت الروايةُ المأثورةُ على ستَّة أصناف من الأموال، يَحْرُم فيها الفضلُ والنّسيئَةُ (النَّساءُ أو النَّسِيءُ)، من دون النَّصِّ على علَّة الربوية، مما جعلَ الفقهاءَ ينظرونَ في صفاتها لتحديد علَّة رِبويَّتها، والقياس عليها، فاجتَهدوا وأدَّوا ما عليهم على وَفقِ الأنشطة الاقتصادية في عصرهم. ولكنَّ هذه العللِ المُسْتَنبَطة قَصَرَتْ عن التجاوبِ مع المُتطلَّبات والمُستجدَّات المُعاصرَة، فَوجبَ النَّظرُ من جديد إلى النَّصِّ المأثورِ، واستنباط ما يُمكنُ اعتبارُه علَّةً ظاهرةً مُنضَبطةً مُتعدِّيةً، تَحملُ مظنّةَ الحكمِ، وتَتناسبُ مع الحكمة المَقصودَة منه.

وبإلقاء نظرة مُمْعنَة في الأصناف الستّة الواردَة في الرواية المأثورَة، يُمكنُ، وبسهولة فائقة، ملاحظةُ جملة صفات مشتركة في كلِّ هذه الأصناف الستّة مُجتمعَةً، وهي كالآتي:

١- تَمْتازُ هذه الأصنافُ الستةُ عن غيرها، بأنّها أموالٌ تمَسُّ عَصَبَ الحياة في ذلك الوقت، ويقومُ المعاشُ عليها، ولا يُمكنُ إدامةُ الحياة بدونها. وبالتالي، فهي أموالٌ تَحملُ قيمةً استراتيجيّةً في حياة الفقراء والأغنياء على السّواء، ولا تخُلوا البيوتُ منها.

٢- تَمْتازُ بأنها أموالُ سوقٍ وتجارةٍ، فمُعظمُ المُعاملات الاقتصادية كانت تَدورُ حول هذه الأصناف الستَّة، ومُعظمُ النُّصوصِ من الكتابِ والسنةِ وَردَت فيها، ومعظمُ المُنازَعات حدثتْ في تَعامُلاتها .

٣- تَمْتازُ بتَأثُّرِها السريع بعواملِ العَرضِ والطَّلبِ في السَّوقِ، وبتَعرُّضها للاحتكارِ والاكتنازِ بشدة، فخَصَّها الشارعُ بأحكامٍ لم يَخَصَّ غيرَها بها، وذلك لتحقيقِ التوازنِ والعدالة والتَّساوي في عقودها.

٤- تجتمعُ الأوصافُ أعلاهُ في وصفٍ واحدٍ ظاهرٍ مُنضَبطٍ مُتَعدٍّ مُناسبٍ للحُكمِ، يُمكنُ أن يكونَ مَظنَّةَ الحكمِ، وعلَّةَ الربوية، في جملة هذه الأصناف الستَّة مُجتمعَةً، هذا الوصفُ هو: (القيمةُ الاستراتيجيّةُ) ، فكلُّ صنفٍ من هذه الأصناف الستّة هو مَالٌ ذو قيمة استراتيجيَّةٍ في حياة الإنسان في ذلك الوقتِ، قصدَ الشارعِ إبرازَها، والإشارةَ إليها، كي تكونَ

علَّةَ تُقاسُ الأموالُ بها على الأصناف الستَّة إلى يوم القيامة.. فكلُّ مال - أيّا كان - يلعبُ دوراً استراتيجيّا للشعوبِ، في أيّ بلدٍ كانَ، هو مالٌ رِبويٌّ، لأنَّه يَتَّصفُ بنفسِ الصفة الاستراتيجية للأصناف الستة.

وعلى هذا الأساسِ، فكلُّ الأموالِ، والسِّلعِ، والأسهمِ، والسَّنداتِ، المُتداوَلةِ في الأسواقِ والبورصاتِ العالميةِ والمحليةِ، هي أموالٌ رِبويّةٌ، فهي لم تدخلْ هذه البورصات إلّا لأنها أموالُ سوقٍ، يحكمُها قانونُ العَرضِ والطّلبِ، وأنها مُعرّضةٌ للاحتكارِ والاكتنازِ، وأنها تتعلّقُ بالأمنِ الاقتصاديِّ للشعوبِ، فتَطلَّبَ ضبطَ التعاملِ فيها من خلالِ تنظيمِ تَسويقِها، وفرضِ الرّقابةِ القانونيةِ عليها.. وبالتالي، فالنفطُ، والغازُ، والسّكرَ، والمعادنُ الاستراتيجية، والشاي، والبُنَّ، وغيرُها، ممّا يتمَّ تداولُها في البورصاتِ، هي أموالٌ رِبويةٌ، بِغَضِّ النظرِ عن ثَمنيّتها، أو الوُحداتِ القياسيّةِ المستخدمَةِ في بُيوعها، وهي أموالٌ يَحرُمُ في بُيوعها الفضلُ والنَّسيئَةُ.. وتَأتي الأوراقُ النقديةُ على رأسِ هذه الأموالِ الاستراتيجية، في حُرمَةِ رِبا الفَضْلِ والنّسيئَةِ في بُيوعها، بِغَضِّ النّظرِ عن ثَمنيّتها، التي تشوَّهتْ بسببِ تَغيُّرِ أقيامها وتَعرُّضها للتَّضخُّمِ، وبِغَضِّ النّظرِ عن تَغطيتِها بالذّهبِ أو عدمِه، فإن غطاءَ الذهبِ قد تمَّ نَسْفُه بصَدمةِ نيكسون سنة ١٩٧١م .

وعليه.. فالأوراقُ النَّقديةُ أَمْوالٌ رِبوِيّةٌ، بعلَّة (القيمة الاستراتيجية)، التي تَشْتركُ فيها مَعَ الأصنافِ الرِّبَويّةِ الستَّةِ❐

- الملا مصطفى حسن الريكاني؛ سيرة ومسيرة	د. دحام الهسنياني

الملا مصطفى حسن الريكاني

سيرة ومسيرة

د. دحام إبراهيم محمد الهسنياني

✍ وأخيراً هوى النجم الساطع، وترجل فارس المنابر.. وانتقل الملا مصطفى الريكاني إلى جوار ربه الكريم.

أخيرا فقدت كو ردستان العراق خطيباً من خطبائها، وشيخاً من شيوخها، وعلماً من أعلامها.

مات ملا مصطفى الريكاني وهو يدعو إلى الله تعالى حتى آخر يوم من حياته.

لذلك رأيت من حق ه علينا، ومن باب الوفاء لهذه الشخصية الكريمة، أن أكتب شيئاً عن سيرته المباركة، ومسيرته العلمية، وجهوده الدعوية.. آملاً التوفيق من الله تعالى.

الملا مصطفى حسن محمد ياسين الريكاني، ولد في قرية (بيدة) في ناحية ريكان، قضاء العمادية سنة ١٩٤٦، من عائلة فلاحية بسيطة، مثل غالبية عوائل عشيرة ريكان، وكانت قرية (بيدة) منطقة نائية بعيدة عن المدن.

نشأ في قرية بيدة نشأة إسلامية صالحة، وختم القرآن فيها عند الملا محمود ميرتي خان.. ولحبه الشديد للتعلم والدراسة جعله دائماً يبحث عن طريقة للبدء بالدراسة والتعلم.

يقول الملا مصطفى رحمه الله في مذكراته: "كانت الحياة صعبة في أربعينيات القرن الماضي في تلك القرى، بسبب عدم وجود الاحتياجات الأولية؛ كالطرق والمدارس والمستشفيات، وكانت نسبة الأمية في ذلك الوقت ٩٨%، وغالبية الأطفال كانوا محرومين من التعليم والدراسة. لذا، فإن معظم الناس كانوا يشتغلون بتربية المواشي والزراعة، بسبب انعدام وجود الطرق والمواصلات، وكنا نعاني صعوبة الوصول الى قرية (هورة) للبدء بالدراسة، حيث كانت هناك مدرسة.. وكان أخونا الأكبر المرحوم (محمد) يشتغل عاملاً في بساتين قرية (سندور)، فتوجهت إلى بيت أخي (محمد) في خريف سنة (١٩٥٧م)، وبدأت بالتعليم على يد الشيخ (أبو بكر كويى) في مسجد القرية، حيث درست المبادئ الدينية الأولية، واستمريت فيها حتى نهاية الصيف من تلك السنة، ثم رجعت إلى قرية بيده"[١].

لكن حبه الشديد للعلم والتعلم جعله يقرر في خريف العام التالي مغادرة قريته ومحل ولادته بشكل نهائي، والانتقال إلى قرية (سندور)، ليدرس فيها وقتاً أطول مقارنة بعالم القرية، ثم انتقل إلى مدينة دهوك.

انتقل ملا مصطفى إلى دهوك سنة ١٩٥٧، في زمن عبد الكريم قاسم، وبدأ بالتعلم لوقت قصير في مدينة دهوك مع طلبة العلم في مسجد المفتي على يد الشيخ (عبدالكريم كويى)، وبسبب انتقال شيخه إلى قرية (بَروشكي)، فإن الملا ظل مع شيخه عاماً في قرية (بَروشكى) يتعلم منه.

بعد إتمام سنته هناك، عاد الملا مصطفى إلى مدينة دهوك، وبدأ بالتعلم على يد الشيخ (الملا صلاح بابوخكي) لمدة بضعة أشهر في مسجد (الريكانيين)[٢].

ودرس على علماء دهوك العلوم الشرعية بكل لهفة وشوق. ويشير الملا مصطفى في مذكراته إلى تلك المسيرة العلمية والسعادة الغامرة عندما بدأ بتعليمه في جامع دهوك الكبير، وأصبح أحد طلبة الشيخ الكبير والعالم المفتي الملا محمد عبد الخالق العقري، حيث

(١) مذكرات ملا مصطفى الريكاني، مخطوط بحوزة نجله الأستاذ أحمد مصطفى الريكاني.

(٢) مقابلة مع الملا مصطفى الريكاني - رحمه الله - في بيته في دهوك، في شتاء عام ٢٠١٩.

كان الجامع الكبير في دهوك يعد أحد أفضل الأماكن المتواجدة في ذلك الوقت للتعلم والتدريس، وظل ملازماً للملا محمد العقري إحدى عشرة سنة، إلى أن توفي رحمه الله في ١٩٦٩/٦/٢٧.

وممن درس عليهم أيضاً الملا عبد الهادي عبد الوهاب المفتي في دهوك. واستمر الملا في التنقل في مساجد دهوك للتعلم حتى أنهى المرحلة الثانوية سنة (١٩٧٠)[٣].

ودخل المعهد الإسلامي في دهوك سنة ١٩٦٣، وكانت الدراسة في المعهد آنذاك من الصف الأول الابتدائي إلى الصف الثاني عشر، ثم تغير الوضع فأصبح كالآتي:

صار المعهد الإسلامي بمثابة الثانوية، أي من الصف الأول المتوسط إلى الصف الثامن الجديد، وتخرج من الصف الثامن الجديد - المعادل للسادس الإعدادي في مدارس التربية - في السنة الدراسية ١٩٧٠- ١٩٧١[٤].

وكان يحضر دروس الشيخ مصطفى البنجويني، والشيخ ذنون البدراني، والشيخ حسن أحمد السليفاني، والشيخ بشير الصقال، والشيخ محمد ياسين السنجاري، في السبعينات من القرن الماضي في مدينة الموصل. وتربطه علاقة وثيقة مع كثير من شخصيات الموصل، مثل الحاج طه حسن السنجاري، والأستاذ غانم حمودات، والدكتور إدريس داود، والشيخ إبراهيم النعمة، والدكتور عبد الله الرحو، والأستاذ إدريس الكلاك..

بعد هذه المرحلة بدأ بالتفكير في المراحل المقبلة من التعلم، وكان أفضل الخيارات المتاحة في ذلك الوقت هو التوجه نحو مدينة بغداد، ليصبح طالباً في جامعة (الإمام الأعظم).

التحق بالدراسة الجامعية سنة: ١٩٧١- ١٩٧٢ في كلية الإمام الأعظم في بغداد، في قسم (الشريعة الإسلامية واللغة العربية)، وتخرج منها في سنة ١٩٧٥- ١٩٧٦، حيث كانت الدراسة في ذاك الوقت (٥) خمس سنوات.

يقول الملا - رحمه الله - في مذكراته : "إن شخصين قد ساعداه وقدما له الدعم المعنوي ليلتحق بالجامعة:

الشخص الأول هو الشيخ (مصطفى البينجويني)، حيث قال لي: اذهب إلى بغداد، وتحمل مصاعب خمس سنوات في الكلية، لن تندم مدى العمر.

(٣) مذكرات ملا مصطفى الريكاني، مخطوط بحوزة نجله الأستاذ أحمد مصطفى الريكاني.

(٤) مقابلة مع الملا مصطفى الريكاني - رحمه الله - في بيته في دهوك، في شتاء عام ٢٠١٩.

والشخص الثاني هو الأستاذ (غانم حمودات)، حيث كتب رسالة إلى الشيخ (إبراهيم النعمة)، الذي كان آنذاك طالباً في جامعة الإمام الأعظم، بأن يساعد حامل الرسالة حال وصوله إلى بغداد.

وعندما وصلنا إلى بغداد، وقدمنا للجامعة وثائقنا، بدأنا بامتحانات القبول، وبالنتيجة تم قبولي والحمد لله في الجامعة مع اثنين من أصحابي، وهما (الملا مهدي) و(ملا محمد رشيد)..."[٥].

وكان ممن درّسه في هذه الكلية من الأساتذة: الدكتور عبد الله الجبوري، والدكتور صبحي جميل الخياط، والدكتور محمد رمضان عبد الله الكركوكي، والدكتور أحمد عبيد الكبيسي، والدكتور هاشم جميل عبد الله القيسي، والدكتور أحمد ناجي القيسي، والشيخ عبد اللطيف البرزنجي. ومن الأساتذة المصريين: الشيخ عبد الرحمن محمود، والدكتور عبد الفتاح بركة، والدكتور عبد المنعم الشافعي، والدكتور سيد ندا الأزهري.

وفي سنة ١٩٧٢ كلفته عمادة الكلية بإلقاء دروس الوعظ والإرشاد في (جامع الإمام الأعظم)، وبعد إلقاء أربعة محاضرات، وجدوه جديراً بإلقاء خطب الجمعة أيضاً، وذلك بما كان يملك من فصاحة اللسان، وسلامة مخارج الحروف، مع مراعاة حسن الإلقاء؛ قوةً ولينًا، فلم يكن إلقاء خطبه على وتيرة واحدة، حتى لا يمل السامع. فكلفته عمادة الكلية بالقيام بواجب الخطابة في (جامع الصويرة الكبير)، التابع لمحافظة واسط، والتي تبعد عن بغداد حوالي (٧٥) كم، وظل يقوم بهذا الواجب لمدة سنة واحدة تقريباً، ثم تم نقله إلى بغداد في (جامع العشرة المبشرة)، في (حي العامل)، وظل يخطب في هذا الجامع إلى حين تخرجه من الكلية في ١٩٧٦، وانتقاله بعدها إلى مدينة دهوك[٦].

وخلال هذه السنوات، بالإضافة إلى دراسته الجامعية، وإلقاء الخطب والمحاضرات في المساجد، كان للملا مصطفى نشاط دعوي آخر، وهو إلقاء الوعظ والإرشاد الديني في الإذاعة الكوردية في (الصالحية) ببغداد، مع الشيخ عبد الحميد الأتروشي، والأستاذ أبو زيد السندي، والشيخ عمر مولود الديبكي، واستمر في الوعظ في الإذاعة قرابة أربعة سنوات، حيث خدم الفكر الديني باللغة الكوردية على أتم ما يكون.

(٥) مذكرات ملا مصطفى الريكاني، مخطوط بحوزة نجله الأستاذ أحمد مصطفى الريكاني.

(٦) مقابلة مع ملا إسلام الريكاني في بيته في دهوك.

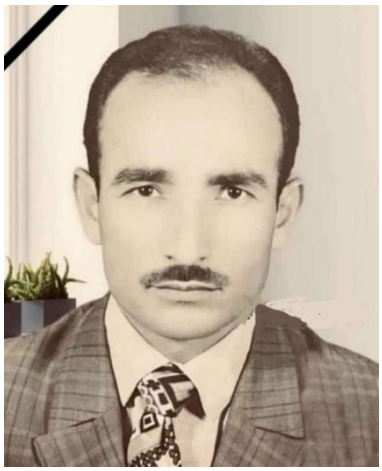

وكـان يحضـر مجـالس ودروس الشـيخ محمـود غريـب كـل يـوم إثنـين في (جـامع البنيـة) في بغـداد، خـلال السـنوات ١٩٧٣-١٩٧٥[٧]. كـما كـان يحضـر دروس الشيخ عبد الرحمن محمود المصري، والشيخ نمر الخطيب، في (جامع الضباط)، في بغداد الجديدة.

وتزوج الملا مصطفى سنة ١٩٧٥، وعنده أربعة أبناء وخمس بنات، رباهم عـلى تعـاليم الإسـلام والأخـلاق الحسنة وحب العلم والمعرفة، وتخـرج جمـيعهم مـن الكليات، وزوجته هي بنت العالم الكبير الشيخ طـاهر محمد الشوشي - رحمه الله -.

وبعد تخرجه من كليـة الإمـام الأعظـم سـنة ١٩٧٦، تـم تعيينـه مدرسـاً في وزارة التربيـة كمدرس للتربية الإسلامية واللغة العربية، وكـان أول تعيينـه مدرسـاً في (المعهـد الإسـلامي) بدهوك، وباشـر بوظيفته في: ٢٣-٩-١٩٧٦[٨].

وبالإضافة إلى وظيفـة التـدريس، كـان الملا مصـطفى يبـاشر مهنـة الخطابـة في مسـاجد دهوك، كلما سـنحت لـه الفرصـة، وأول خطبـة خطبهـا سـنة ١٩٧٧ في (جـامع المفتـي) في دهوك، وخطب خمسة خطب متتالية، ثم خطب في (جامع آزادي) (= البكر سـابقاً) لمـدة شهرين، ثم جعله الأوقاف خطيب احتياط، وكل ذلك حسبة لله تعالى[٩].

وفي سنة ١٩٧٨ حج بيت الله الحرام، وكان مرشداً لقافلته، بالوعظ والإرشاد والنصيحة.

ثم خطب في (جامع الحاج المصطفى)، على الشارع العام في دهوك، لمدّة عشـر سـنوات إلى سنة ١٩٨٧، حيث منع من إلقاء الخطب من قبل أمانة الأوقاف في أربيل، بسـبب كـثرة تواجد الشباب حوله في أيام الجمعة، وازدحام الناس على المسجد.

علاوة على نشاطه المذكور كان يحاضر في الثانوية المسـائية، ويواصـل الليـل بالنهـار مـن أجل أن يعيش أولاده بكل رفاهية وهناء، وفعلاً أنعم الله عليه، وتمكن جلهم من الحصـول على شهادات عليا.

(٧) مقابلة مع الشيخ زاهد في (جامع أنور المائي) في دهوك.

(٨) مقابلة مع الملا مصطفى الريكاني - رحمه الله - في بيته في دهوك، في شتاء عام ٢٠١٩.

(٩) مقابلة مع الأستاذ الدكتور حمزة الشوشي في بيته في دهوك.

زاره في تلك الفترة الأستاذ غانم حمودات، والأستاذ إدريس الكلاك، والملا عيسى الخركي، وسأله الأستاذ غانم عن سبب منعه من إلقاء الخطب، فقال الملا مصطفى: إن رجال الأمن البعثيين اتهموني بتهمتين، الأولى: أني لا أدعو لصدام فوق المنبر، والثاني: كثرة تواجد الشباب ومزاحمتهم على الجامع.

فقال الأستاذ غانم: إن إلقائك للخطب ضروري في هذا الوقت، ثم ابتسم وقال: ممكن تقول: اللهم وفقه لما فيه صلاح العباد والبلاد، دون ذكر اسمه، حتى تعود إلى الخطابة وتنفع الناس، فالمسلمون بحاجة ماسة اليوم إلى خطيب مثلك.

فقال الملا مصطفى: أنا أقسمت أن لا أدعو له بأي شكل من الأشكال، وأنا كوردي إذا قال لا لا، فضحك الأستاذ غانم وقال: فيها الخير إن شاء الله[١٠].

الملا مصطفى الخطيب البارع

يعد الملا مصطفى الخطيب الناجح والمؤثر في كوردستان العراق، فهو فارس المنابر، ومرشد الحائر، بخطبِه المدبّجة تستنير البصائر، وتنشر الهدايات والبشائر، فيبتعِدُ الناس عن الصغائر والكبائر.

الملا مصطفى؛ بخطبه ومواعظه، ودعوته وإرشاده، هو نوعٌ فريد من الدعاة، والعلماء الثقات، فقد ساهم بحظٍّ وافر في بناء المجتمع الصالح في كوردستان، وتغيير القناعات والعادات الغريبة، وتعديل السلوكيات والأخلاق السيئة، وصناعة القدوات والدعاة والخطباء والوعاظ.

ولقد كان للملا مصطفى هذا النجاح الكبير في أداء الخطابة، والإقبال المكثف لحضور الخطب والمواعظ.. بسبب ما كان له من ثقافة واسعة، واطّلاعٌ واسع مُدهش، ما أهّله أن يُقنع الطبيب والمهندس والعالم، وغيرهم من فئات المجتمع المختلفة، الَذين يحضرونَ خُطَبَه كل جمعة.

وأنا أشهد أن الملا مصطفى كان يحترم جمهورَه، ويتواصل معهم، ويستفيد من ملاحظاتهم واقتراحاتهم، فكان له من العيون ممّن يحضرون عنده، فيفيدونه بما هو كائنٌ، وبما ينبغي أن يكون؛ من خلال آرائهم التي يستفيد منها في بناء ذاته، وتطوير قدراته.. وكم من مرة حضرت عنده أستمع إلى خطبته، وبعد السلام عليه، يقول بكل تواضع: إذا عندك ملاحظة على الخطبة ذكرني بها.

(١٠) سمعت ذلك من الأستاذ غانم حمودات - رحمه الله - في الموصل، سنة ٢٠٠٦.

وكان من أخلاقه العالية أنه لا يدَّعي الكمال في خطبه، فهو بشرٌ، والبشر يُخطئون، لكنه يجتهد قدر استطاعته، فهو مرِنٌ بالدرجة التي تجعله يتكيّف مع وضعيتِه ومنطقته واحتياجاتهم واهتماماتهم.

أحبه شباب كوردستان، لأنه المؤثر الذي يتخذ الإخلاص مطية، تصل به إلى دربه ومبتغاه، ويحزم متاعه برباط الخوف من قيوم السماوات والأرض، وهو المؤثر الذي يمتلك من الألفاظ أعذبها وأشوقها وأقربها إلى القلوب والشعور، يأسرك بكلماته التي هي واحة المتعبين، وأنس السامرين، ودليل الحائرين، يربطهم بالمسجد ربط الطائر بعشه وأفراخه.

كما أن ثقافته، وذكاؤه، جعله يتفنن في تركيب الجمل والكلمات المناسبة والمشفرة لإيصال فكرته، دون أن يعطي لزمة لجلاوزة النظام السابق، الذين كانوا يتربصون به للإيقاع به[١١].

وكان الناس، والشباب خاصة، يرون الملا مصطفى واقعياً بكلامه في خطبه ومواعظه، ويمتاز بالقدرة على تحليل المواقف، وتركيب الفكرة وتنسيقها، والإيقاع بها في رشد زمانها وطيب مكانها، إذا حدَّث الناس عن الجنة، كأنما بجناحيه فيها يطير، وحول أنهارها يسير،

(١١) مقابلة مع الأستاذ الدكتور حمزة طاهر الشوشي في بيته في دهوك.

وبين يدي حُورها يميل، وإذا حدَّثهم عن النار، كأنه في بركانها يصطلي، كلامه عنها يفتت الأكباد، ويذهل الألباب، ويقطع الآمال[١٢].

كان الملا مصطفى في خطبه ومواعظه، يجمَعُ بين التأصيل الشرعيَ، والتنزيل الواقعي، والتسهيل اللُّغَوي، فتراه يُوظِّف الآيات والأحاديث والآثار، وينتفع بالشِّعر والقصص والأخبار، في معالجة المشكلات الواقعية، بلغة واضحة نقية، تارة باللغة العربية الفصحى، وتارة باللغة الكوردية البهدينية الفصيحة.

كان مثالاً للمسلم ا لملتزم الأبي، الذي لم تهزه العواصف والتغيرات التي مرّ بها المجتمع الكوردي بعد انتفاضة آذار، ولم يستسلم للاستمالات المغرية والمناصب والرتب العالية، وقد رفض مراراً الانخراط في البرلمان، رغم المحفزات المغرية التي كانت تقدم لأعضائه، كل ذلك من أجل أن تظل سمعته طيبة، كما يريده دينه[١٣].

لقد كان الملا مصطفى شجاعًا في قول الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، مع التحلي بالحكمة وحسن التقدير للموقف، بعيدًا عن التهور والاندفاع غير المحسوب، وكثيراً ما كان يستشهد بآثار الصالحين وحكمهم، لقد كان يتمثل بالإمام الشافعي - رضي الله عنه - وهو يقول:

أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا!
همتي همة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا! [١٤]

وقد نجح الملا مصطفى نجاحاً باهراً في خطبه ومواعظه، وأصبح له القبول في بهدينان كوردستان العراق، وسبب ذلك أن الناس ينظرون إلى سلوك الخطيب، ويدققون النظر فيه، فإذا رأوا تتطابق أفعاله مع أقواله أحبوه واستمعوا إليه وأخذوا بكلامه، فالتزام الخطيب بأحكام الإسلام بوجه عام، وتطبيق ما يدعو إليه في خطبه، يجعل لكلامه قبولاً عند المستمعين. أما مخالفة القول للعمل، لدى قسم من الخطباء، فيجعل أكثر المستمعين لهم لا يثقون بهم ولا بتوجيهاتهم، وذلك لقول الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾[١٥].

(١٢) خمسون وصية ووصية لتكون خطيباً ناجحاً: ٣٧.
(١٣) مقابلة مع الأستاذ الدكتور حمزة طاهر الشوشي في بيته في دهوك.
(١٤) ديوان الإمام الشافعي.
(١٥) سورة الصف، الآيتان: ٢-٣.

وقد كانت للملا مصطفى الريكاني – رحمه الله - همة عالية، وإرادة ماضية، ونفس راضية، وفعالية رائعة، فهو في محافظة دهوك؛ بخطبه ومواعظه، ينبوع متدفق من الخير والعطاء؛ لأنه يحب ويعطي عن أريحية ورضا، سيما وأن الشفقة على الخلق إحدى سماته وصفاته، يرى المنكر فلا يسكت عليه، بل يصوغه في قالب خطابي تربوي مؤثر، يوقظ الوسنان، ويروي الظمآن، ويؤنس الرجفان، ويقود العميان إلى دروب الحق وميادين المعرفة والبيان.

لذلك، بسبب هذه الخطب الحماسية، تغيرت نبرة كثير من خطباء دهوك، وأحسنوا خطبهم، فكان الملا مصطفى فارس المنابر، وشيخ الخطباء، وقد أحدث تغييراً وانقلاباً فكرياً في أسلوب الخطابة؛ من الروتين القديم إلى ما يتشوقه الناس، فكان الملا مصطفى يشعر بأنه صاحب رسالة يؤديها، ويقصد من خلالها وجه الله تعالى، حتى ولو كانت تلك وظيفته التي يقتات منها، وذلك لأن صاحب الرسالة يستفرغ كل طاقته في محاولة توصيلها للناس دون كلل ولا ملل.

وفهم الناس، والخطباء خاصة، أن الخطابة فن، ولذا ينبغي لمن يتصدى لها، أن يكون ذا موهبة، يثقلها بالعلوم والمعارف المختلفة، ذات الصلة الوثيقة بعلم الخطابة، فسعة الاطلاع خير معين للخطيب في أداء خطبته بقوة وتأثير.

وبعد انتفاضة ١٩٩١، هاجر مع أهالي دهوك مهاجراً إلى تركيا، وذلك بصحبة أخواله، وعانى ما عانى هناك من المشقة والعناء والشدة، كون أولاده لم يبلغوا الحلم بعد، ولكنه تجاوزها بكل صبر واحتمال وثبات، وبعد شهرين رجع إلى ناحية (كاني ماصي)، ثم عاد إلى مسكنه في مدينة دهوك، بعد أن تحررت كوردستان من النظام السابق.

وفي سنة ١٩٩٢ كلف، من قبل مديرية الأوقاف في دهوك، للقيام بواجب الخطابة والإمامة في مسجد (جامع الإمام حمزة)، في حي العسكري في دهوك، وظل إماماً وخطيباً في هذا الجامع حتى يوم ٢٢-٦-٢٠١٢ بسبب ترميم الجامع، لكن اسمه ارتبط بالجامع، رغم اسمه المعلن لدى الأوقاف، وظل الجامع يعرف بـ(جامع ملا مصطفى)، وما زال هذا الأثر باقياً ليومنا هذا، رغم تغيير اسمه ثانية إلى (جامع شهيدان)[١٦].

وكان للملا مصطفى نشاطات في الجامع، بالإضافة إلى الخطابة والإمامة:

أ. حلقات الدروس في مختلف العلوم الشرعية واللغوية.

(١٦) مقابلة مع الأستاذ الدكتور حمزة طاهر الشوشي في بيته في دهوك.

ب. إلقاء محاضرة للنساء يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وذلك من ١٩٩٢ وحتى إلغائها في سنة ٢٠٠١م.

جـ. الاستمرار في إلقاء الوعظ العام في كل أسبوع[١٧].

ثم واصل الخطابة في جامع (سيد محمد ورميلي)، في (حي مالطة) في دهوك، وواصل الخطبة فيه إلى أن مرض مرضه الأخير.

كان الشيخ مصطفى - رحمه الله - يُحسِّن الحَسَن، ويُقبّح القبيح، ويرى معروفًا مطبوعًا أو مصنوعًا فلا ينسى أن يذكِّر به، وأن يشي بصاحبه، دعوة للخير وزيادة في البر، ولا تؤثر فيه الأحداث، بل هو الذي يؤثر فيها، ويحولها إلى إشراقة من الفأل الحسن، والثقة المبتغاة، فلا يزيده القهر إلا إرادة صلبة قوية، لا تتفتت أو تلين، ولا يزيده الظلم إلا عفوًا وعزًا، ولا تزيده المكاره إلا مضاءً وعزماً.

فتراه يستلهم الحَدَث ليربي به تلك الجموع الغفيرة التي قدمت إليه، وانساقت له، ورغبت فيه، فلا يمكن أن يمر حدث عليه دون حسّ تربوي مؤثر، أو موعظة بليغة، أو ربط جيد بالآخرة، أو استنفار وبعث بالأمل بامتداد أنفاس الحياة، والتهوين من أمر الدنيا.

الجانب الاجتماعي والإنساني

كان ملا مصطفى يحب الزيارات ومخالطة الناس والتعارف، وكان يرى أن المسلم لا يمكن أن يعيش وحده منعزلاً عن المجتمع، مفرداً لا يختلط بغيره؛ لأن الإنسان مدني بالطبع، ويتعين على المسلم أن يكون إيجابياً في هذه الحياة، وعنصراً مؤثراً، لما ورد عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم - قوله في الحديث الشريف: (الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ)[١٨]، فالمسلم الذي يبحث عن السعادة، عندما يختلط بالناس، ويصبر على أذاهم، ويقدم الخير لهم، هو خير من الذي لا يكون كذلك.

إن الملا مصطفى وثيق الصلة بجمهوره، ومستمعيه، فهو يُحدثَ تقاربًا بينه وبينهم، فيعود مرضاهم، ويسأل عن غائبهم، ويشارك في وضع الحلول لمَشكلاتهم، لأن الخطيب كلما اقترب من المدعوين، ووقف بجانبهم في أزماتهم، كان ذلك أدعى إلى التفافهم حوله.

(١٧) مقابلة مع الملا مصطفى الريكاني - رحمه الله - في بيته في دهوك، في شتاء عام ٢٠١٩.

(١٨) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

والملا مصطفى اجتماعي الطبع، فكان يزور أصدقائه باستمرار، وعلى الدوام، مثل الملا زاهد الدهوكي، والملا عيسى، وملا إسلام الريكاني، والشيخ عبد الحميد... و..و..و.. ولهم برنامج زيارات، حيث يقومون كل أسبوع بزيارة لإحدى شخصيات دهوك أو وجهائها.

وكلما سنحت له الفرصة يؤكد لهم أن الخطابة هي فن مشافهة الجماهير، والتأثير عليهم، وخطبة الجمعة كانت - ولا تزال - لها أثر كبير، إذا أُدِّيت على الوجه الصحيح. ويبين لهم أن الخطيب لا بد أن يكون على قناعة تامة بما يدعو إليه، حتى يكون قادراً على الإقناع والتأثير، فالإيمان بقضية ما يجعل صاحبها يدافع عنها بكل ما يملك[١٩].

وكان – رحمه الله – يغشى مجلسه الكرماء، والصلحاء والبسطاء، فيعمر الحديث بالفكر والذِّكر، فتحل بركة السماء في الزمان والمكان، وله في القلوب مكانة، ولدى النفوس منزلة؛ لأنه عنصر من عناصر الخير والنماء، وهو من يدرك آلام أمته وآمالها، فيخفف الآلام، ويمسح الجراح، ويهون الداء، وينفث في الآمال، لينتشي ويرتقي بها نحو آفاق رحبة عالية، ويدرك عظمة الأمانة، وقدر المسؤولية، وتبعة العطاء.

لذلك، من يحضر خطبه يرى أنه يختار موضوع الخطبة من واقع الحياة التي يحياها الناس، ومناقشة المشكلات الاجتماعية المتعددة، ومحاولة طرح الحلول لها، لأن الموضوعات السلبية التي لا تعالج أمراض المجتمع وعلله المختلفة، تكون الاستفادة منها قليلة.

وأحيل على التقاعد سنة ٢٠١٦ كمدرس على ملاك مديرية تربية دهوك، لكنه ظل مواظباً على إلقاء خطبه، حسبة لله تعالى[٢٠].

كان الملا مصطفى - رحمه الله تعالى - يرى أن العبادة لا تقتصر على العبادات التي يقوم بها الإنسان، ولحظات المناسك القصيرة للصلاة والصيام والزكاة والحج، بل إن العبادة تشمل كل نشاط الحياة، بما في ذلك التعليم والتدريس والدعوة والخطابة والإرشاد.. لذلك خدم أكثر من أربعين سنة في التربية والدعوة والإرشاد والتعليم والتدريس.. وبقي إلى آخر حياته يخطب خطبة الجمعة.

وعامّة مواضيع الشيخ مصطفى التي يتناوَلُها في خُطَبه، تُعالج ما يهمّ قضايا الأمّة في ذلك الوقت، وتلتَمس لها الدَّواء الشافي، وتُرشد إلى الطريق المستقيم، فهي ليست مواضيعَ من نَسْج الخيال، أو بعيدةً عن واقع الأُمَّة والمنال؛ ولهذا فهي تُحرِّك الهِمَم، وتوقظ العزائم، بما

(١٩) مقابلة مع ملا إسلام الريكاني في بيته في دهوك.

(٢٠) مقابلة مع الأستاذ الدكتور حمزة طاهر الشوشي في بيته في دهوك.

يَسُوقه الشَّيخ من وقائعَ وأحداث، وبما يُناسب مقتضى الحال، ويُلائم الظَّرْف، وهو لذلك يتفرّس في وجوه الحاضرين، فإنْ رأى فُتوراً في الإصغاء، وضعفًا في الانتباه والإقبال، لجَأ إلى المُثيرات - وكل ذلك طبعاً باللغة الكوردية، واللهجة الدهوكية الجميلة -، ومنها:

القصص الواردة في القرآن والسّنة، والآثار الواردة عن الزهاد والصالحين، وهو كثيرٌ في خُطَب الشيخ، حيث يقوم بتصوير المعاني بأشياء محسوسة، لتقريب المعنى إلى الأذهان، ومنها خبرٌ فيه فائدة، أو حدَث مهم، ثم يربطه بمعاني القرآن والسّنن الكونية، ومنها اختيارُ حادثة تكون محورَ الخُطبة، ثم يخرج بعد ذلك بحلٍّ لما وقع للمسلمين من بلاء وضيق، كلُّ ذلك مع التفاعل الصَّادق، والرغبة المُفعَمة بالحب والشفَقة.

الشيخ مصطفى إشراقة أمل، وفأل حسن، وهو روضة ندية نضيرة، تغشاها رياحينها، وتزقزق حولها عصافيرها، ويشم عبيرها القاصي والداني من أبناء كوردستان. وهو المؤثر الذي يسأل نفسه عندما يقوم بإعداد مادته: ما الذي أريده من عرض هذا الموضوع دون غيره، والغاية من سرد هذه القضية، وما هي الوسيلة المثلى لبسطها وعرضها؟.

وبمعنى آخر يسأل نفسه: هل أريد معالجة فكرة جديدة؟ أم تثبيت مبدأ أصيل؟ أم محاربة عادة مقيتة دميمة، أو صفة مرذولة؟

فهو يرى نفسه لا يقل أهمية عن المقاتل في صدر الجيش، يذود عن أمته بروحه؛ لأنه يحمي عقائدها من الدخن والدخل.

وكانت له مُؤهِّلات لُغَوية وشرعية، وعقلية ونفسية واجتماعية، جعلت له المهابة، وأكسبته الاحترام والتقدير من قبل جمهوره، في محافظة دهوك خاصة.

كان للخطيب البارع الملا مصطفى صفاتٌ ومواصفات؛ منها الأخلاقية؛ كالصدق والأمانة، والحياء والعفو، والبشاشة وطلاقة الوجه، ومنها المِهْنيّة؛ كالالتزام والجدية، والاتزان الانفعالي والحكمة والموضوعية.

لذلك كان - رحمه الله تعالى - إنسانٌ له هيبةٌ خاصة، فكلما ارتقى المنبر اشرأبَّت الأعناق، وارتعَدَت الفرائص، وخرست الألسن، وانفتحت مغاليق القلوب لتستقبل أنوارَ الهداية الربّانية، وتترك خطبتُه أثرًا في نفوس المصلِّين، طال أو قصر، وذلك بسبب إخلاصه ونيته، وجمال عرضه وبلاغته، وبجهده وحماسته!

توفي في يوم الأربعاء: ٦ شعبان ١٤٤٣هـ الموافق ٩ آذار ٢٠٢٢م، بعد مرض قصير برأ منه واستجمع قواه، لكن الله قدر له أن يكون الكورونا سبباً في منيته.

دفن المرحوم في (مقبرة شاخكي)، في دهوك، بجوار أستاذه (ملا محمد العقري)، في أكبر موكب تشييع، رغم هطول المطر بغزارة وشدة البرد[٢١]. رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، اللهم وتقبله في عبادك المخلصين، وأجزه خير ما تجزي به الأئمة الصادقين، واحشره مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، وأجرنا في مصيبتنا فيه، واخلفنا فيه خيراً، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله❐

(٢١) سمعت ذلك من القاضي الدكتور إبراهيم علي الهسنياني الذي حضر التشييع.

بصراحة

التعليم أولاً

صلاح سعيد أمين
Selah1434@gmail.com

لا يجادل أحد في أن التعليم، في أي مجتمع، يعد من أهم أعمدة التطور والارتقاء فيه، ولا يمكن الحديث عن التقدم والنهوض دون الاهتمام الكافي بقطاع التعليم؛ بفرعيه (الدراسات الأولية والعليا).. والسبب واضح ويتمثل في أن رأس المال البشري؛ الذي هو بدوره ركيزة النهوض الأولى، يولد من رحم التعليم، ويقوم على أساسه.

ومن المؤسف جداً القول هنا: إ ن البنك الدولي أعلن مؤخراً أن أكثر من ٩٠% من الطلاب، في العراق، لا يفهمون ما يقرأون!، مبيناً أن رأس المال البشري في العراق يمثل أقل من ١٥% من إجمالي الثروة، وهو أدنى المعدلات في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا!

إن ما يعلنه البنك الدولي حول قطاع التعليم بالعراق، هو بمثابة كارثة حقيقية، ويتطلب متابعة جدية وسريعة، وأي تقصير من هذه الزاوية ينذر بعاقبة وخيمة، أشد مما أعلنه البنك الدولي.

واللافت أن العراق في عهد النظام السابق، امتلك أفضل الأنظمة التعليمية في المنطقة، فهل من المعقول أن يتراجع قطاع التعليم بعد تغيير نظام دكتاتوري مستبد، وفي أقل من عقدين، إلى درجة تخيب آمال كل من في قلبه مثقال ذرة من الحب لهذا البلد وأهله؟

ووفق المعلومات والإحصائيات، فإن أسباباً كثيرة وقفت خلف كواليس التراجع الكبير الذي حدث في قطاع التعليم العراقي - كما أعلنته منظمة اليونيسف في ٢٠١٩ -، حيث بينت أن ٥٠% من المدارس "بحاجة إلى التأهيل والترميم"، وأشارت إلى أن نقص "المدارس، والكوادر التربوية والتعليمية، في العراق، أسفر عن ازدحام الصفوف المدرسية بالتلاميذ، حتى اضطر العديد منهم إلى ترك الدراسة".

وقد تحدث المسؤولون حينها؛ عندما أعلنت (اليونيسف) عن تراجع التعليم بالعراق، عن خطة لمعالجة ما يعانيه قطاع التعليم بالبلد.. وها نحن في منتصف عام ٢٠٢٢، وما زلنا نسمع في كل يوم جديداً عن تراجع التعليم بالعراق!

ما زاد الطين بلة هو أنه مع كل هذه الإحصائيات التي تؤكد - بين فترة وأخرى - ما يعانيه قطاع التعليم، فإن المسؤولين والمعنيين بالموضوع في خبر كان، ويتصرفون كأن شيئاً لم يحدث. وفي كل مرة، وعندما نطالع جديداً حول تراجع قطاعنا التعليمي، ننتظر بفارغ الصبر وقفة جديّة من المسؤولين والمعنيين حول المسألة، لكن هيهات.. هيهات!❐

- أثر العولمة في الأدب	د. حازم ناظم فاضل

أثر العولمة في الأدب
وتأثرها بالانفتاح بين الثقافات

الدكتور حازم ناظم فاضل
دكتوراه في علم النفس التربوي

المقدمة

ظهرت العولمة بعد سقوط المنظومة الماركسية ومعسكرها وأحزابها وحكوماتها سنة ١٩٩١م. وانتشر استخدام مصطلح العولمة منذ أوائل التسعينيات في كتابات سياسية واقتصادية عديدة - بعيدة عن الإنتاج الفكري والعلمي أو الأكاديمي في البداية - وذلك قبل أن يكتسب المصطلح دلالات استراتيجية وثقافية مهمة، من خلال تطورات واقعية عديدة في العالم.

فالعولمة هي اجتياح الشمال للجنوب.. اجتياح الحضارة الغربية؛ ممثلة في النموذج الأمريكي، للحضارات الأخرى.. وهي التطبيق العملي لشعار نهاية التاريخ، الذي أرادوا به الادعاء بأن النموذج الغربي الرأسمالي هو (القدر الأبدي) للبشرية جمعاء، وهي القوة

العظمى الوحيدة الآن. فمع تنامي مجالات السياسة والاقتصاد وتبادل المعلومات والثقافة ووسائل الاتصال، ونظرا إلى دور الولايات المتحدة المركزي في معظم هذه المجالات، بات من الصعوبة بمكان معرفة الحد الذي ينتهي عنده النفوذ الأمريكي.

ولم يحدث في تاريخ البشرية من قبل أن برز على سطح المجتمع الدولي تيار اقتصادي وسياسي واجتماعي، وأثار من الجدل والحيرة والقلق والتوجس، مثلما فعل التيار الذي أطلق عليه مصطلح (العولمة). فهو تيار لم يقننه فلاسفة أو مفكرون ثم قدموه للناس على أنه نظرية أو مذهب جديد يسعى إلى دمج العالم في منظومة متكاملة، بل تيار تدفق كنتيجة طبيعية لانهيار الاتحاد السوفيتي، وانتهاء عصر القطبية الثنائية، وثورة المعلومات التي جعلت من العالم قرية صغيرة، وتضخم وتطور الشركات العملاقة المتعددة الجنسيات، ومع بروز ملامح هذا التيار منذ أوائل التسعينيات، هرع المفكرون الاستراتيجيون والسياسيون والاقتصاديون والاجتماعيون إلى تقنينها في إطار منهجي متبلور، وسعى بعضهم إلى تقديمها كنظرية حتمية لا يمكن تجاهلها أو تجنبها على المستوى التطبيقي الدولي.

مفهوم العولمة

بداية أود أن أشير إلى أن تعريف العولمة؛ تعريفاً جامعاً مانعاً، هو أمر صعب؛ فمن الطبيعي أن يتفاوت فهم الأفراد للعولمة ومضامينها المختلفة؛ فالجدال حول العولمة متعدد، ومتغاير، ومتنوع، ومتمايز بصورة كبيرة. فالاقتصادي يفهم العولمة بخلاف عالم السياسة، كما أن عا لم الاجتماع يفهمها فهماً قد يختلف فيه عن المهتم بالشؤون الثقافية. فهناك عولمات عدة تتفاوت في معانيها ومظاهرها. فهي نسق معين؛ سياسي، اقتصادي، ثقافي، عسكري، ينتقل من بيئة إلى أخرى، وغالباً ما يكون الانتقال من بيئة حضارية متقدمة إلى بيئة حضارية من دول العالم الثالث.. فالمستعمرون يقلدون المستعمرين، وهذا هو ما تفرضه العولمة الآن[1].. فهي مرحلة من مراحل التفكير الإنساني في العالم المعاصر، بدأت بالحداثة، ما بعد الحداثة، العالمية، ثم العولمة.

والعولمة كناية عن ولادة كرة أرضية واحدة، هي من الآن وصاعداً ملك الناس أجمعين: إنها ليست ملكية أي حضارة كبرى، ولا سيطرة لأي منها عليها[2].

والعولمة قديمة، وكل الشعارات التي ترفع لتبرير العولمة، أو لمقاومتها، قديمة أيضاً. إن من المفيد بالطبع لفت النظر إلى التسارع الهائل الذي حدث في معدل العولمة في العقود

الأخيرة، ولكن من المفيد أيضاً - من حين لآخر - لفت النظر إلى أنه مجرد تسارع حديث لظاهرة قديمة ومستمرة[٣].

في تعريفه للعولمة يقول السيد ياسين: إذا أردنا أن نقترب من صياغة تعريف شامل للعولمة، فلا بد أن نضع في الاعتبار ثلاث عمليات تكشف عن جوهرها.

العملية الأولى: تتعلق بانتشار المعلومات، بحيث تصبح متاحة لدى جميع الناس.

العملية الثانية: تتعلق بتذويب الحدود بين الدول.

العملية الثالثة: هي زيادة معدلات التشابه بين الجماعات، والمجتمعات، والمؤسسات[٤].

أما الدكتور عابد الجابري، فيقول: إن العولمة ترجمة لكلمة Mondialisation الفرنسية، التي تعني جعل الشيء على مستوى عالمي، أي نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود، الذي ينأى عن كل مراقبة[٥].

ولعل العناصر المشتركة بين جميع هذه التعريفات ما يلي:

١- تجاوز الأفكار والخبرات والنظم والسلع والمشكلات لبيئاتها المحلية، وعبورها للحدود السياسية والجغرافية، على مستوى العالم.

٢- نظام العولمة قائم على عدم الاكتراث بالخصوصيات المحلية والتراثية والبيئية للدول والشعوب التي تغزوها؛ لأن العولمة تصنع - بآلياتها الجبارة - الميزات والخصائص والأجور التي تنسجم مع رواجها، ومع مصالح القائمين عليها.

٣- تضاؤل الاعتبارات المحلية؛ من فكرية واقتصادية وسياسية واجتماعية، في تشكيل حياة الناس وأذواقهم وأوضاعهم المختلفة، لصالح إسهامات وانعكاسات دولية عامة.

٤- تسارع وتيرة الاتصال العالمي، وتقدم وسائله؛ مما سهل انتقال كل ما يراد نقله[٦].

الغزو الثقافي

يعتبر الغزو الثقافي؛ من أكثر القضايا التي حظيت باهتمام المفكرين والمؤسسات الثقافية على حد سواء، وليس هذا بغريب على أمة تتعرض لأشد حملات الغزو الثقافي ضراوة، ولا يوجد وجه من أوجهه إلا وعانت منه؛ فهناك الغزو الثقافي المباشر، المصاحب للاحتلال الاستيطاني، الذي يعاني منه الشعب العربي في فلسطين المحتلة، وعانى منه شعب الجزائر من قبله على يد المحتل الفرنسي.. فالغزو الثقافي الإسرائيلي لم يكتف بما يقترفه لطمس المعالم الأثرية للشعب الفلسطيني، بل اتسعت جبهته لتشمل العرب جميعاً؛ من تشويش

صورة الشخصية العربية، وتزوير التاريخ، وعلاوة على ما نعانيه مع الآخرين من الغزو الثقافي غير المباشر، بفعل الإمبريالية[٧].

إن العولمة تحمل - دائماً - في طياتها نوعاً أو آخر من (الغزو الثقافي)، أي: من قهر الثقافة لثقافة أخرى أضعف منها[٨]. ولكي نتبين حقيقتها، وأبعادها، ومخاطرها على الفرد والمجتمع والحضارة والثقافة الإسلامية، والإنسانية، بصورة عامة، نرى بأن هناك إجماعاً كبيراً – على الأقل – بين مفكري البلاد العربية، على أن البشرية تتجه نحو ثقافة عالمية مشتركة، بمعنى أن هناك خصائص ثقافية ذات طابع عالمي، تفرض نفسها على ثقافات ومجتمعات متباينة، تخترقها دون مراعاتها لهوية هذه المجتمعات، وخصوصيتها الثقافية، التي تكونت عبر قرون طويلة، ومحاولة احتوائها؛ بدءاً من زعزعة وهدم ثوابتها، ومروراً بمحوها من ذاكرة أبنائها، وانتهاءَ بالحلول محلها[٩].

إن العديد من ثقافات شعوب العالم المختلفة، لا تقبل الذوبان في ثقافة الآخر، وإن قبلت التفاعل معها. ولا تقبل أن تهيمن عليها عناصر ثقافة الآخر، وإن قبلت بعض هذه العناصر.. إن الثقافة - كما أقول دائماً - هي شأن عقلي؛ ومن ثم فلا يمكن لآليات الثقافة الغربية المعاصرة، وهيمنتها، أن تزيح الثقافات الأخرى من عقول أصحابها، لأن كل فرد، في أي شعب، وخاصة الشعوب ذات الثقافات العريقة، المتجددة، قادر على استجلاء عناصر ثقافته الأصلية، والتمسك بها، في مواجهة الثقافات الأخرى[١٠].

ويقرر (صامويل هنتنجتون): "إن فرضيتي تقوم على أن المصدر الجوهري للصراع في هذا العالم الجديد، لن يكون في الأصل أيديولوجياً، أو في الأصل اقتصادياً، وإنما ستكون الانقسامات الكبيرة بين الجنس البشري، والمصدر السائد للصراع، ثقافياً"[١١].

وتسعى العولمة إلى إزالة الطابع الأكاديمي عن عالم المعرفة والبحث[١٢]، لتكوين ثقافات فرعية متمايزة، متناقضة؛ بين ثقافة النخب وثقافة الجماهير، وبين ثقافة سكان الحضر وسكان الريف، وبين الثقافة الأصيلة والثقافة المعاصرة.

لذا نرى (شمعون بيريز) يقول: "... إن رخاء الأمة يأتي حصيلة تجميع المعرفة، فالمعرفة هي الثروة الحقيقية على أعتاب القرن الحادي والعشرين"[١٣].

ويذهب أبعد من ذلك، حين يقرر: "إن موقع الصدارة والهيمنة سيكون للمبادئ القائمة على العلوم والمعرفة، التي يتم إحرازها في الجامعات ومعاهد الأبحاث"[١٤].

فلقد أصبح مألوفاً أن نشهد ملامح العولمة، واحتلالها للعقول والنفوس، في شبكة المعلومات (الإنترنت)، التي أزالت الحدود؛ وفي وسائل الإعلام، واحتلالها للفضاء، ونشوء منظمات تحمل إيقاع العولمة، مثل: (أطباء بلا حدود)، و(مراسلين بلا حدود)، و(صحفيين

بلا حدود)، و(حوارات بلا حدود)، ...إلخ؛ وفي شيوع مصطلحات العولمة على الساحة الثقافية؛ ومحاولات تنميط أسلوب الحياة في الطعام، واللباس، والتسوق، والاستهلاك، وصناعة الثقافة العالمية، ورسملة العالم، وتتم السيطرة عليه في ظل هيمنة دول المركز وسيادة النظام العالمي الواحد، وبذلك تتهافت الدولة القومية، وتضعف فكرة السيادة الوطنية، ويؤول الأمر مع الثقافة إلى صياغة ثقافة عالمية واحدة، تضمحل إلى جوارها الخصوصيات الثقافية. ويبدو الآن النمط السائد هو العولمة الأمريكية، بمعنى أمركة العالم، وسيادة الإيديولوجيا الأمريكية، على غيرها من الإيديولوجيات[١٥].

التعددية الثقافية

بعد عام ١٩٨٩م فقط، أصبح من الممكن أن نتصور - على الأقل - وجود عالم (بلا حدود)، حيث الناس، والبضائع، والأفكار، والأفلام، تتدفق، منذ أن سقط الحاجز الكبير بين الشرق والغرب. علاوة على ذلك، فإن العالم - بعد نوفمبر ١٩٨٩م- بدا كأنه شخص يزيد من سرعته، دون أن يتوقع[١٦].

وظهر دعاة التعددية الثقافية Multiculturalism، وهي فلسفة سياسية، أو اجتماعية، تعمل على تطوير التنوع الثقافي. وتحظى هذه الفلسفة بدعم العديد من المربين في الدول التي يتكون فيها السكان من مجموعات اجتماعية تنتمي إلى خلفيات عرقية أو ثقافية متباينة[١٧].

ومن أهم أهداف التعددية الثقافية، وخصائصها، في عصر العولمة:

١ - أنها ثقافة منفتحة على العالم كله، وليست محصورة فقط في المجال المحلي.

٢ – أنها ثقافة متعددة الوسائل (مطبوع، مسموع ، مرئي .. إلخ)، ولا يمكن الاقتصار على إحداها.

٣– تتطلب متابعة يقظة، وسريعة، ومستوى معيناً من الذكاء.

٤- يغلب عليها الطابع الكمي، على حساب الكيف والنوعية.

٥– تتميز بالإبهار في العرض، والسيطرة على اهتمام المتلقي.

٦- تحتاج إلى مهارة تكنولوجية، للإفادة القصوى من وسائلها ومعطياتها.

٧- تقوم على انتشار المعلومات، وسهولة حركتها، وزيادة معدلات التشابه بين المجتمعات والجامعات.

ومع ما نلاحظه، من خلال هذه الخصائص، من بعض السلبيات، فإن التعددية الثقافية في عصر العولمة، تتضمن – بالتأكيد – بعض الإيجابيات، التي يأتي في مقدمتها:

١- زيادة الوعي بالقضايا الإنسانية، والتفاعل معها.
٢- تتطلب قدراً من التسامح مع وجهات النظر المختلفة، والمخالفة.
٣ - تساعد على سهولة الاندماج، أو - على الأقل - سهولة التعامل مع المجتمعات الأخرى[١٨].

إن وجود لغات وأديان مختلفة، يضمن التنوع الثقافي عملياً. وإن التقاليد، والشيء المهدد بالخطر، هو فكرة ثقافة (قومية) حصرية، ومكتفية بذاتها عملياً، ثقافة لا يشكل فيها الأفراد سوى نماذج تلهج بلغة ومعتقدات ونشاطات، مشتركة. لقد حاولت الدول، بحماس متقد، أن تخلق مثل هذه الثقافات، عن طريق نظم مشتركة للتعليم، والخدمة العسكرية، وما شاكل. وإن تعذر القيام بهذه المشاريع في البلدان المتقدمة، يعني أن عليها أن تبحث عن مرتكزات أخرى لولاء المواطن، خارج نطاق التجانس الثقافي البدائي[١٩].

وهكذا يصير النظام الثقافي الجديد عبارة عن الخصوصية الثقافية للغرب، معممة على غيره من شعوب العالم، مما يفضي - حتماً - إلى تجريد الإنسانية من التنوع الثقافي، والتعدد الحضاري، الذي تنبني عليهما الخصوصيات التي تتميز بها هذه الشعوب، وتستمد منها عناصر طاقتها ومعاني وجودها وأسباب عطائها[٢٠].

لكن العولمة لم تؤد - كما يرى الكثيرون - إلى تعددية متساوية، أو متوازية، في المؤثرات الثقافية، وإنما تعكس الوضع الحضاري العالمي، الذي يهيمن فيه النموذج الحضاري الغربي على غيره من النماذج. وإذا كانت تلك الهيمنة لا تتخذ شكل المواجهة المباشرة، كما كان يحدث في الاستعمار الأوروبي القديم للشعوب الأخرى، فإنها تتمثل في نوع من الزحف الحضاري السلمي، وغير المباشر، كانتشار مطاعم الهامبورجر الأمريكية، أو ملابس الجينز، أو أغاني الروك، أو من خلال سلاسل الفنادق الأمريكية، والأوروبية، أو شبكات التلفزيون الغربية. فعلى الرغم من أن هذه لم تنتج عن محو غيرها من المأكولات، أو الملابس، أو أشكال الثقافة والاستثمار الاقتصادي الأخرى، فإنها زاحمتها؛ إما إلى درجة الحد من الانتشار، أو إلى ما يشبه الإلغاء التام، وذلك نتيجة لأسباب كثيرة، من أبرزها عدم التكافؤ في المنافسة الاقتصادية. ومن هنا، فإن هناك من يرى أن العولمة أدت، وتؤدي، في كثير من الأحيان، إلى هيمنة نموذج حضاري واحد، هو النموذج الغربي الأمريكي، في المقام الأول[٢١].

العولمة الثقافية

تعني العولمة الثقافية: بروز عالم بلا حدود ثقافية، فيه تنتقل الأفكار، والمعلومات، والقيم، والأنماط السلوكية، بحرية كاملة، في اتجاه تكوين ثقافة إنسانية واحدة، على

أساس أن طبيعة الإنسان واحدة، واحتياجاته واحدة، أينما وجد على هذا الكوكب. وما تنوع الثقافات -كما يزعم منظرو العولمة - إلا نوع من استجابة الجماعات البشرية للبيئة الطبيعية، وتفاعلها معها، لتلبية احتياجاتهم المادية، والروحية. وبالتالي، لا توجد ثقافة أصلية، وأخرى أدنى، ولا توجد ثقافة متحولة، وأخرى ثابتة[٢٢].

إن ثقافة العولمة تجتمع مع تقنية الإعلام، والمعلومات، والاتصالات، في الرموز والتعابير، أي محكومة بمنظومة الثقافة التي تؤسس لها، وتفتح آفاق تطورها، بحيث يغدو كل منهما معطى للآخر، أو سبباً ونتيجة لوجود الآخر. وحيث إن تقنية المعلومات، والاتصالات، تعتبر أهم أدوات صناعة عولمة الثقافة ونشرها، وإن نموها يؤدي إلى تطوير تقنيات المعلومات؛ فإن تفاعل وتكامل هذين الجانبين هو الذي يجعل عولمة الثقافة واقعاً[٢٣].

وإنها لكارثة كبيرة إذا أدت العولمة بالإنسان إلى شعور جارف بالغربة والضياع، عندما يفتقر إلى الجذور التي تربطه بأيّ أرض يعيش أو يتحرك عليها، بل وعندما يكتشف أن ثقافته التي عرف الكون والحياة من خلالها، والتي ترسخت عبر العصور والأجيال، قد محيت من الوجود إلى غير رجعة[٢٤]، عبر تفكيك وتهميش الثقافات الوطنية، عن طريق قوة وسائل الاتصال والإعلام والمعلومات، التي تحتكرها الدول الرأسمالية الكبرى، بقصد توجيه نمط الثقافة نحو تقوية منطق الاستهلاك لدى الشعوب، وتوظيف العلم والمعرفة لاختراق الثقافات التقليدية، من خلال إظهار تفوق الغرب الرأسمالي وحضارته، وضرورة الاعتماد على إنتاجه المعرفي لتطوير المناهج التعليمية وإجراء البحوث .. إلخ.

ومن هنا جاء مصطلح (العولمة الثقافية)، أي قدرة الثقافة والمجتمع والحضارة الأقوى تكنولوجياً ، على اختراق الثقافات والمجتمعات والحضارات الأضعف تكنولوجياً، وتهميشها، ومن ثم إلغائها، إن أمكن، وذلك عن طريق زرع القيم والأفكار النفسية والثقافية، ومن ثم السلوكية، في وعي الآخرين، من أجل اختراق هذه المجتمعات، وإسقاط عناصر المقاومة والممانعة لديها. مما يؤدي بدوره إلى تأسيس هوية ثقافية وحضارية جديدة، معادية لهويتها السابقة[٢٥]. والخوف من استشراء خطر الثقافة الواحدة، وتعاظم نزعة الفكر الواحد، لم يعد هاجساً يراود رجال الفكر وحدهم، ولكنه امتد ليشغل اهتمام رجال السياسة، في كثير من أقطار البلاد النامية، وفي العديد من الدول العربية والإسلامية، على وجه الخصوص.

وإذا كان النظام العالمي الجديد، والسياسات التي تحكمت في تسيير دفة العالم، والهيمنة عليه، هي التي أفرزت ظاهرة (العولمة)، فإن هذا النظام، وآلياته، يسير من قبل دول

ومؤسسات وهيئات دولية تتحكم في الجوانب الثقافية والفكرية. فالدول الكبرى تريد أن تفرض ثقافتها، وأنماطها الفكرية، على دول العالم الثالث، بتعميم النموذج الغربي في العالم.

إذن، فالعالم كله يواجه خطر إشاعة الثقافة العولمية ذات الطابع المؤمرك، والمتجهة إلى إقصاء الثقافات الأخرى، وتذويب الهويات، تحت شعارات طوباوية زائفة، مثل (المواطنة العالمية)، و(القرية الكونية)، و(القيم الكونية)... إلخ من تلك المصطلحات التي لا واقع ولا أمل لها، وصناعة الجهل في البلدان النامية.

وقد تفننت عبقرية الجهل في اختراع استراتيجية:

(١) لمنع العامة من الوصول إلى المعرفة الأساسية؛ في مجالات العلوم، والاقتصاد، وعلم النفس، وعلم الأعصاب، وعلم التحكم الآلي: حافظوا على اهتمام الرأي العام بعيداً عن المشاكل الاجتماعية الحقيقية، اجعلوه مفتوناً بمسائل لا أهمية حقيقية لها. أبقوا الجمهور مشغولاً، مشغولاً، مشغولاً، لا وقت لديه للتفكير، وعليه العودة إلى المزرعة مع غيره من الحيوانات.

(٢) وفي إلباس الجمهور ثوب الجهل، وإبقائه غير قادر على فهم التقنيات والأساليب المستعملة من أجل السيطرة عليه، واستعباده، وإغراقه في بحار الجهل، ونشر وباء الجهل بينهم، وانحلال الخُلق. "يجب أن تكون نوعية التعليم الذي يتوفّر للمستويات التعليمية الدنيا سطحياً، بحيث تحافظ على الفجوة التي تفصل بين النخبة والعامّة، وأن تبقى أسباب الفجوة مجهولة لدى المستويات الدنيا"[٢٦].

تأثير العولمة الثقافية في النصوص الأدبية العربية الحديثة

تعمل العولمة على إيجاد تمايز واضح بين ثقافة النخب وثقافة الجماهير، وتعميق الازدواجية بين الأصالة والمعاصرة، في الثقافة والفكر والسلوك[٢٧].

كانت الأمم الأوروبية، في العصور الرومانية والقوطية، والنهضة والباروك، تميل على الدوام إلى التباس اتجاهات جديدة في الفن والثقافة من بعضها البعض، وبدرجة مدهشة من الوحدة. وعلى الرغم من كل (أمركة) الحياة الثقافية اليومية في فترة تبدل القرن، ما زالت موسيقى القرن الثامن والتاسع عشر الألمانية، بشكل أساسي، تعزف في كل العالم؛ من لندن، وعبر شيكاغو، وصولاً إلى اليابان، كموسيقى كلاسيكية. وهذا التطور أيضاً أقدم بكثير مما نطلق عليه اليوم العولمة[٢٨].

ولعل أبرز مظاهر تأثير العولمة الثقافية، أن وسائل الاتصال المتعددة، وشبكة الانترنت، وغيرها من الوسائط، تساعد على إيصال المنتوج الثقافي، بمختلف مصادره، إلى جميع أنحاء

العالم، في نفس اللحظة. والمقصود بالثقافة، في حركة العولمة، هي (الاستهلاكية)، الموجهة أساساً لدعم العمل الاقتصادي والتجاري، من مثل: السينما، والموضة، والفنون، بمختلف أشكالها.

ففي شهر فبراير ١٩٩٧م اشتهرت (عيشة)، وهي أحدث أغنية للمهاجر الجزائري خالد، ويدعى أيضاً ملك الراي، في مهرجان الأغنية الفرنسية، وأصبحت أغنية العام. وكون هذه الأغنية موجهة إلى فتاة عربية في أسطوانات المحطات الإذاعية الفرنسية الكبرى (وليس فقط في أجهزة الأقنية الخلفية الناطقة بالعربية) يعد في حد ذاته أمراً جديراً بالاعتبار. إنها مثال على نجاح المهاجرين المغاربة في (أغاني) ثقافة الأمة الفرنسية. وإذا ما نظرنا إلى الأمر الخارج، فإن خالداً يمثل فرنسا، وقد فتنت موسيقاه الناس في بلدان مختلفة اختلافاً كبيراً، مثل مصر وإسرائيل، وحتى المملكة العربية السعودية، المعروفة بمحافظتها الشديدة، وقد وجدت لها صياغات محلية باللغة العبرية والتركية والهندية. وتدل هيئته وموسيقاه على أنه ليس من الضروري أن تكون العولمة شارعاً باتجاه واحد، وإنما هي للثقافات الموسيقية المحلية، على العكس من مسارح وأهمية امتداد العالم للعولمة الثقافية[٢٩].

لقد وفرت التكنولوجيا للمبدع الثقافي وسائل مادية عديدة لمعاونته في إنتاج عمله الأدبي أو الفني، ولكنها - في الوقت نفسه - قد قلصت من دوره، بتهميشها الثقافة، وتحويل الفنون والآداب والموسيقى إلى وظيفة ديكورية، أو مكون سلعي مكمل لمنتجات عصر الصناعة. ولا شك أن حاجة السلطة للمثقف ستزداد في عصر المعلومات، في محاولة لاستغلاله، من أجل السيطرة على التوتر، بعد أن أصبحت الجماهير - بفعل انتشار المعلومات - أكثر إدراكاً لواقعها[٣٠].

وكان من الطبيعي للعولمة، التي تهدف إلى صياغة العقول طبقاً لأهدافها، أن تمسك بزمام الأمور في مجال الصناعات الثقافية، وأن تجعل منها مدفعيتها الثقيلة المدوية التي تصم الآذان، فلا تترك مجالاً للعقول كي تتأمل وتحلل وتفسر بأسلوب موضوعي متفرد. وتتعدد هذه المنتجات وتتنوع بحيث تحاصر الجماهير بالصوت والصورة، والحركة والكلمة، من كل جانب؛ من المعارض إلى الكتب، ومن المسرحيات إلى الحفلات الموسيقية، ومن الأفلام السينمائية إلى الأعمال التليفزيونية، مثل التمثيليات، أو المسلسلات والبرامج والمقابلات والمحاضرات والأحاديث والندوات وغيرها. وكذلك أشرطة الفيديو، بل وعروض الأوبرا والحفلات.

فإن معناها الثقافي هو تعميم ثقافة الدول الرأسمالية الكبرى - وعلى رأسها أمريكا - على كل بلاد العالم، ولا سيما التقليدية منها، على اعتبار أن الثقافة نظام جزئي لحضارة النظام الرأسمالي، ولا بد من القيام بأدواره حتى تكتمل منظومة عولمة العالم.

ومهما كانت الحال، فثمة إجماع كبير - على الأقل بين مفكري وعلماء البلاد العربية - أن البشرية تتجه نحو ثقافة عالمية مشتركة، بمعنى أن هناك عولمة الثقافة في البلاد العربية، في هذه المرحلة، والمتمثلة في تمزيق مكونات المجتمعات العربية.

إن بعض أكثر الظواهر الثقافية أهمية، في زمننا، تتصل بردود الأفعال والتأويلات الخاصة بالنظام الكوني ككل. وبشكل أكثر تحديداً، تنطوي العولمة على ضغط على المجتمعات، والحضارات، وممثلي التقاليد، بما في ذلك التقاليد الخفية والمخترعة، كي تمحص الساحة الثقافية الكونية من أجل أفكار تعد وثيقة الصلة بهوياتها. وربما كانت عملية استهلاك الثقافة، وتوفيقها، تعد أكثر الجوانب المهملة الخاصة بإعادة الحياة للثقافة، باعتبارها فكرة سوسيولوجية بارزة[٣١].

إن الدور المتعاظم للمعلوماتية، وثورة الاتصال، في خلق مناخ الذات الاجتماعية، من جهة، ومن جهة أخرى مكملة للأولى، دور الحاسوبية والمغامرة التكنولوجية، في هز مرجعية الخيال الأدبي، والتحريض على نشوء آليات جديدة لإنتاج النصوص، ربما تحمل معها مرجعيتها النوعية؛ وقد تنتقل بالمرجعيات والإحالات الداخلية للسانيات والسيميائيات إلى مرحلة نوعية جديدة[٣٢].

النشر الإلكتروني، والمواقع الالكترونية

من المعلوم أن الثورة الإلكترونية تجاوزت كل الحدود الجغرافية والسيادية بين الدول، وحطمت الكثير من السدود والأسوار. فنحن نرى أدوات التطور التكنولوجي، وعصر المعلومات، أدوات خير صهرت العالم فأصبح قرية كونية صغيرة، تلاشت المسافات بينها إلى غير رجعة، ويمكن أن تكون وسيلة للتلاقي بين الشعوب والحضارات. وليست العولمة بحد ذاتها شراً، ولكنها كانت نتيجة تراكم الإنجازات العلمية، وهي قد لا تكون مرغوباً فيها فقط، ولكنها حدث تاريخي حتمي لا يمكن تجنبه[٣٣].

العولمة والرواية

تراجعت كثيراً الأعمال الروائية في المجتمعات التي تعاني انحداراً ثقافياً وحضارياً، عكس المجتمعات التي حققت أعلى درجات الإنجاز العلمي والتقني والاقتصادي والسياسي، وأصبحنا أمام ظاهرة عولمة الأفكار والثقافات والاتجاهات الروائية، بدلاً من مركزتها في

شكل استقطاب أحادي اللون والنكهة الثقافية. وإن ما نراه اليوم من شيوع الندوات والمؤتمرات السنوية، التي تعنى بالرواية والروائيين، ربما يكون الدليل الواضح على أهمية الدور الثقافي العولمي الذي تنهض به الرواية، وبخاصة الرواية الأمريكية اللاتينية والأفريقية والآسيوية.

لقد أصبحت الرواية الفن الأكثر حضوراً بين القراء، والأكثر إغراءَ لتأليفها وترجمتها إلى اللغات العالمية، التي غالباً ما تكون اللغة الإنجليزية، وتحويلها إلى أفلام ومسلسلات تلفزيونية. وأصبحت فكرة (الرواية العالمية) رائجة كذلك، للاستفادة من وسائل العولمة. فمثلاً؛ نجح الروائي (أورهان باموك)، التركي، في نقل بيئة محلية في شرقي تركيا، إلى مستوى عالمي، في رواية (ثلج KAR)، التي تدور أحداثها في مدينة (قارص) التركية، الغارقة في الفقر والبؤس والانقسامات السياسية. كذلك نجح في تمثيل فئات المجتمع كافة، في (مسرح الشعب)، الذي تجري فيه أحداث الرواية، ويجلس المشاهدون؛ من مختلف الأطياف التركية، لمشاهدة مسرحية دعائية[٣٤].

وفي عام ١٩٨٨م فاز الروائي، والكاتب المصري نجيب محفوظ(ت٢٠٠٦م)، بجائزة نوبل، ويُعد أول أديب عربي حائز على هذه الجائزة في الأدب. ونتيجة ذلك أصبح الأدب العربي موضع اهتمام المترجمين، فتضاعفت حركة الترجمة الأدبية عدة أضعاف منذ هذا الاعتراف العالمي برواية محفوظ رواية عالمية، وبمحفوظ روائيًا عالميًا.

العولمة والشعر

لقد ظهرت الدعوة إلى الإصلاح بداية القرن العشرين، وكانت آفة هذه الدعوة الغلو في القدح في القديم، ومدح الجديد الذي تدعو إليه. ولا يخفى أن حالة العصر الحاضر تقتضي أن تكون الأدبيات موافقةً للشؤون الاجتماعية فيه، فنحن في أشد الحاجة إلى الشعراء والمنشئين الذين يصرفون قوتهم الخيالية إلى جذب وجدان الأمة إلى الفضائل الاجتماعية التي ترتقي بها وتساوي الأمم العزيزة وتجول في ميادين المعلومات التي انتهت اليها المدنية الحاضرة. لأجل ذلك، كما أننا في أشد الحاجة إلى إحياء موات لغتنا العربية الشريفة بالاستعمال، لأن الأمة لا تحيا بدون لغة، فإذا وجد في عالمنا الأدبي من يشتغل بإقامة أحد هذين الركنين، لا ينبغي لنا أن نهضم حقوقه لأنه لم يقم الركنين كليهما معاً. وامتاز هذا الطور بظهور بعض المصلحين الاجتماعيين. وقد أسهم الشعراء بشعرهم في الدعوة إلى الإصلاح.

ولكون الأمة العربية تحتل مكان الصدارة في العالم بالنسبة لموقعها الجغرافي، لذا كانت مطمع الغزاة في القديم والحديث. فهناك عدو رابض، المتمثل في الاستعمار الكامن وراء الغزو الفكري. وصار الاتجاه إلى الطلاسم والتمرد على الواقع، بل على معطيات الثقافة العربية التي تستقي مقوماتها من الإسلام، وصارت إهانة هذه المعطيات ديدن هؤلاء الشعراء، وكلما تمردوا عليها زادت شهرتهم، وبالتالي زادت مساحة النشر لهم، على حساب الكلمة الطيبة، أو على حساب الكلمة الشاعرية، حتّى المعنى والمضمون؛ تلك التي تخالج الوجدان، وتثير مكامن العاطفة لدى الناس، من صنوف الغزل العفيف، الذي لا ينزل إلى حد البذاءة والتسطيح في المعنى والمضمون..

أما شعراء الحكمة والالتزام، بأدنى حدود الالتزام، فقد جرى لهم تجاهل، وشكك النقاد في شاعريتهم، وعدوا شعرهم ضرباً من النظم، كما كانت بعض العلوم تنظم شعراً، أو نظماً ، وكانت منها فائدة عظيمة، ولكنها تعرضت للهجوم الذي تعرض له التراث عموماً. ولعلنا نتذكر الحملة على ما سموه، حينها، بالكتب الصفراء، التي لم تعد كذلك، اليوم، شكلاً ومضموناً، إذ إنها قد أدخلت في الحاسوب، ويتداولها الناس اليوم[٣٥].

دور الانترنت في انتشار أعمال الأدباء

فالعولمة هي الاجتياح الغربي، بزعامة أمريكية، لصب العالم في قالب الحضارة المهيمنة، ولمصلحة أهلها.. فإن هذا الاجتياح الطوفاني لا يترك ميداناً من الميادين إلا ويريد أن يطاله ويحتويه.. وخاصة إذا وجد فراغاً يغري بالاحتواء.

لقد أحدث ظهور الانترنت ثورة عارمة في مجال صناعة الكتب والمجلات والجرائد، ما تسبب في حالة من الرعب لدى الكثير من المفكرين من إمكانية اختفاء الكتاب الورقي.

إن أدب الجيل الحاضر سريع بسرعة البرق في الانتشار، لكن يتضمن نشر معلومات غير موثقة وغير حقيقية، ولكن لا مفر من مجاراة العصر الإلكتروني، وبما يسمى الأدب الرقمي. وأصبح الإطلاع على الثقافات المختلفة بكل سهولة ويسر. وشهد أدب الإنترنت تطورا سريعاً . لقد أسهمت العديد من المواقع الإلكترونية في نشر الأعمال الإبداعية في المجال الأدبي إلكترونياً، مما سهل الحصول عليها، خاصة أعمال الأدباء الذين يتمتعون بشهرة وصدى إعلامي كبير. كما أن هذه الأعمال الناجحة كثيراً ما أصبحت تستقطب اهتمام الدارسين والنقاد وطلبة الجامعات، وهذا ما من شأنه أن يثري الساحة الأدبية، ويعطيها حراكاً أدبياً ونقدياً يحسّن مستوى الأداء الإبداعي لبعض الأدباء.

الخاتمة

(١) لم يحدث في تاريخ البشرية من قبل، أن برز على سطح المجتمع الدولي تيار اقتصادي وسياسي واجتماعي، وأثار من الجدل والحيرة والقلق والتوجس، مثلما فعل التيار الذي أطلق عليه مصطلح (العولمة).

(٢) إن ما أتت به العولمة من ثورة المعلومات، جعلت من العالم قرية صغيرة. كما أن تقدم وسائل الاتصال العالمي، زاد من قدرة الثقافة والمجتمع والحضارة الأقوى تكنولوجياً، على اختراق الثقافات والمجتمعات والحضارات الأضعف تكنولوجياً، وتهميشها، ومن ثم إلغائها إن أمكن.

(٣) تذويب الحدود بين الدول، وانتشار المعلومات، وسهولة حركتها، وزيادة معدلات التشابه بين المجتمعات والجامعات.

(٤) إن العولمة تحمل دائماً في طياتها (الغزو الثقافي)؛ من قهر الثقافة الأقوى، لثقافة أخرى أضعف منها.

(٥) ثقافة العولمة منفتحة على العالم كله، وليست محصورة فقط في المجال المحلي.

(٦) تعمل العولمة على إيجاد تمايز واضح بين ثقافة النخب وثقافة الجماهير، وتعميق الازدواجية بين الأصالة والمعاصرة، في الثقافة والفكر والسلوك.

(٧) تعميم ثقافة الدول الرأسمالية الكبرى - وعلى رأسها أمريكا - على كل بلاد العالم، ولا سيما التقليدية منها، على اعتبار أن الثقافة نظام جزئي لحضارة النظام الرأسمالي، ولا بد من القيام بأدواره حتى تكتمل منظومة عولمة العالم.

(٨) تعاظم كثيراً دور الأعمال الروائية في المجتمعات التي حققت أعلى درجات الإنجاز العلمي والتقني والاقتصادي والسياسي، عكس المجتمعات التي تعاني انحداراً ثقافياً وحضارياً، وأصبحنا أمام ظاهرة عولمة الأفكار والثقافات والاتجاهات الروائية، بدلاً من مركزتها في شكل استقطاب أحادي اللون والنكهة الثقافية.

(٩) إن أدب الجيل الحاضر سريع بسرعة البرق في الانتشار، لكن يتضمن نشر معلومات غير موثقة وغير حقيقية، ولكن لا مفر من مجاراة العصر الإلكتروني، وبما يسمى الأدب الرقمي. وأصبح الاطلاع على الثقافات المختلفة ميسراً بكل سهولة ويسر، وشهد أدب الانترنت تطوراً سريعاً. وقد ساهمت العديد من المواقع الإلكترونية في نشر الأعمال الإبداعية في المجال الأدبي إلكترونياً.

(١٠) تعرض شعراء الحكمة والالتزام للهجوم، وتم تجاهلهم، وشكك النقاد في شاعريتهم، وعدوا شعرهم ضرباً من النظم، كما كانت بعض العلوم تنظم شعراً، أو نظماً. وصار

الاتجاه إلى الطلاسم والتمرد على الواقع، بل على معطيات الثقافة العربية التي تستقي مقوماتها من الإسلام، وصارت إهانة هذه المعطيات ديدن هؤلاء الشعراء، وكلما تمردوا عليها زادت شهرتهم، وبالتالي زادت مساحة النشر لهم، على حساب الكلمة الطيبة، أو على حساب الكلمة الشاعرية، حتّى المعنى والمضمون❐

الهوامش

(١) **العولمة السياسية**: انعكاساتها وكيفية التعامل معها، د. فضل الله محمد سلطح، مكتبة بستان المعرفة، الاسكندرية، ٢٠٠٠م ، ص١٠.

(٢) **العولمة الثقافية** :الحضارات على المحك، جيرار ليكلرك، ترجمة : جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٣٣٣.

(٣) **العولمة**، جلال أمين، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٤٩.

(٤) **العولمة والطريق الثالث**، السيد ياسين، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ١٩٩٩م، ص١٨.

(٥) **قضايا في الفكر المعاصر**، محمد عابد الجابري(ت٢٠١٠م)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٧م ، ص ١٣٦.

(٦) **العولمة**: طبيعتها وسائلها – تحدياتها - التعامل معها، د عبدالكريم بكار، عمان، ٢٠١٣م ، ص١٢.

(٧) **العرب وعصر المعلومات**، د. نبيل علي، سلسلة عالم المعرفة، العدد:١٨٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، ص٣١٥.

(٨) **العولمة**، جلال امين، ص٤٨.

(٩) **العولمة والتربية**: آفاق مستقبلية، د. أحمد علي الحاج محمد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ٢٠١١م ، ص ١٠٦,

(١٠) **ما بعد العولمة**: قراءة في مستقبل التفاعل الحضاري وموقعنا منه، د. مصطفى النشار، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م ،ص٩٧.

(١١) مقال **الرؤية الغربية لصامويل هنتنجتون**، نشر في كتاب الحضارات العالمية، د. محمد عمارة، ص٢٢.

(١٢) **عولمة العولمة**: من أجل التنوع الحضاري، مهدي المنجرة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠١١م ، ص١٦.

(١٣) **الشرق الأوسط الجديد**، شمعون بيريس(ت٢٠١٦م)، ترجمة: محمد حلمي عبدالحافظ، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٤م ، ص١٧٩.

(١٤) **الشرق الأوسط الجديد**، ص١٧٣.

(١٥) **آفاق الإبداع ومرجعيته في عصر المعلوماتية**، د. حسام الخطيب ، دار الفكر الإسلامي الحديث، دمشق، ٢٠٠١م، ص١٢٤.

(١٦) **العولمة والحياة اليومية**،لارى راى، ترجمة: الشريف خاطر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ٢٠١٤م، ص٣٢.

(١٧) **الموسوعة العربية العالمية**، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٩م ، ج٨ ص ٤١.

(١٨) **الإعلام والعولمة**، د. رضا عب دالواجد أمين، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة ، ٢٠٠٧م ، ص ١٠٥-١٠٦.

(١٩) **ما العولمة**: الاقتصاد العالمي وإمكانات التحكم، بول هيرستاو وجراهام طوميون، ترجمة: د. فالح عبدالجبار، سلسلة عالم المعرفة، العدد: ٢٧٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت، ٢٠٠١م.، ص٣٩٣.

(٢٠) **العولمة فرص وتحديات**، عمر عبيد حسنة، المكتب الاسلامي، بيروت،٢٠٠٤، ص٢٤.

(٢١) **الموسوعة العربية العالمية**، ج١٦ ص٧٢١.

(٢٢) **العولمة والهوية الثقافية**: عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة العرب والعولمة، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، عبدالإله بلقزيز ، بيروت، ١٩٩٨م ، ص ٣١٠.

(٢٣) **العولمة والتربية**: آفاق مستقبلية، د. أحمد علي الحاج محمد، مصدر سابق، ص ١٠٦.

(٢٤) **أقنعة العولمة السبعة**، د. نبيل راغب، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة، ٢٠٠١م ، ص٣٤٠.

(٢٥) **الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية**، د.خليل نوري مسيهر العاني، ديوان الوقف السني، بغداد، ٢٠٠٩م، ص١٢٨.

(٢٦) **الأسلحة الصامتة لحرب هادئة**، ناعوم تشومسكي، د.ت.

(٢٧) **العرب والعولمة**، العولمة والهوية الثقافية، محمد عابد الجابري(ت٢٠١٠م)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص٣١٦.

(٢٨) **فرص العولمة**: الأقوياء سيزدادون قوة، نورمان دان شريرع، ترجمة حسين عمران، العبيكان للنشر، الرياض ٢٠٠٢م ، ص١٣.

(٢٩) **ما هي العولمة**، أولريش بك، ترجمة: أبو العبد دودو، منشورات الجمل، بغداد، ١٩٩٩م ، ص٤٥-٤٦.

(٣٠) **العرب وعصر المعلومات**، د. نبيل علي، ص٣٢٥.

(٣١) **العولمة**: النظرية الاجتماعية والثقافية والكونية، رونالد روبرتسون، ترجمة: أحمد محمود ونورا أمين، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٩٨م ، ص١٠٦.

(٣٢) **أفاق الإبداع ومرجعيته في عصر المعلوماتية**، ص٣٢-٣٣.

(٣٣) **نذر العولمة**، عبدالحي يحيى زلوم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٨م، ص٢٥.

(٣٤) **رواية الثلج**، أورهان باموق، ترجمة: عبدالقادر اللي، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا،٢٠٠٥م.

(٣٥) **فكر الانتماء في زمن العولمة**: وقفات مع المفهومات والتطبيقات، د. علي بن ابراهيم النملة، العبيكان للنشر، الرياض، ٢٠٠٦م ، ص٢٦.

منظمات وهيئات لا جدوى منها

محمد واني

لا شك أن هدف القادة الذين أنشأوا المنظمات والهيئات العربية والإسلامية؛ كمنظمة التعاون الإسلامي (أسست ١٩٦٩)، وجامعة الدول العربية (١٩٤٥)، وغيرها، كان ينحصر في تحقيق مصالح الدول الإسلامية والعربية الحيوية وأهدافها، وترسيخ السلام والأمن فيها، ولم يكن هدفهم أبداً إقامة مؤسسات غير فاعلة، وعاجزة عن حل المشاكل ومواجهة الأزمات التي تواجه المسلمين.

لنا الحق أن نتساءل: ما هي الإنجازات والمكتسبات العظيمة التي حققتها هذه المنظمات والجمعيات، بعد سنوات طويلة من تأسيسها؟ وهل كانت على مستوى المسؤولية التاريخية في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، والأحداث المتلاحقة التي عصفت وتعصف بالمنطقة؟! ماذا قدّمت مؤسسة سياسية كالجامعة العربية للأمة العربية مثلاً؟! سوى بعض المهام التربوية والثقافية المحدودة جداً، ومحاولات روتينية لجمع الأمراء والملوك والرؤساء العرب في مكان واحد، بين فترة وأخرى.. ولكنها لم تستطع أبداً أن توحدهم على كلمة واحدة في قضية مهمة من قضايا الأمة، ولم تنجح أبداً في نزع فتيل الحروب والصراعات التي نشبت بينهم منذ تأسيسها، ووقفت متفرجة عاجزة عن فعل أي شيء!

والأمر نفسه يصح بالنسبة لمنظمة (التعاون الإسلامي)، التي تجمع في طياتها أكثر من ٥٧ دولة إسلامية، بل إن مصيبتها أدهى وأمر، أولاً؛ لأنها منظمة عالمية ذات عضوية دائمة في الأمم المتحدة، ثانياً؛ لأنها تمثل أكثر من مليار ونصف مليار مسلم في مشارق الأرض ومغاربها، يفترض أنها تعمل لصالحهم وتدافع عن قضاياهم، ولكنها عجزت عن ذلك، وأخفقت في عملها تماماً.. وعلى الرغم من كل هذه اللجان والمؤسسات ومراكز البحوث والدراسات الاستراتيجية الكثيرة التي انبثقت منها، فإنها ظلت عاجزة عن فعل شيء ملموس على أرض الواقع، ولم نجد لها أي دور سياسي أو إنساني أو إسلامي مشرف في النزاعات والمشاكل التي يخوضها المسلمون فيما بينهم، أو تلك التي يتعرضون لها من قبل الغير؛ كالتطهير العرقي الذي يتعرض له شعب الـ(روهينغا) المسلم على يد البوذيين في (ميانمار)، وجرائم الإبادة الجماعية ضد الكورد؛ أحفاد صلاح الدين الأيوبي، ضمن عمليات الأنفال والقصف الكيمياوي على مدنهم في العراق (١٩٨٨)، وكذلك موقفها المخجل من القتل المنظم الذي تعرض ويتعرض له الشعب السوري على يد نظام الأسد.

كل ذلك وغيره الكثير يدفعنا إلى القول بإن هذه المؤسسات، التي تصرف عليها الأموال الطائلة، لم تقم بدورها ا السياسي الإصلاحي الذي أنشأت من أجله، ولم تقدم شيئاً مذكوراً للشعوب العربية والإسلامية! و كان من المفروض أن تأخذ الأنظمة الممولة لها موقفاً مسؤولاً تجاهها منذ فترة طويلة، وتمتنع عن تمويلها، إلى أن ترتفع إلى مستوى المسؤولية، وتقوم بإصلاحات شاملة وجذرية على هياكلها الأساسية!❐